

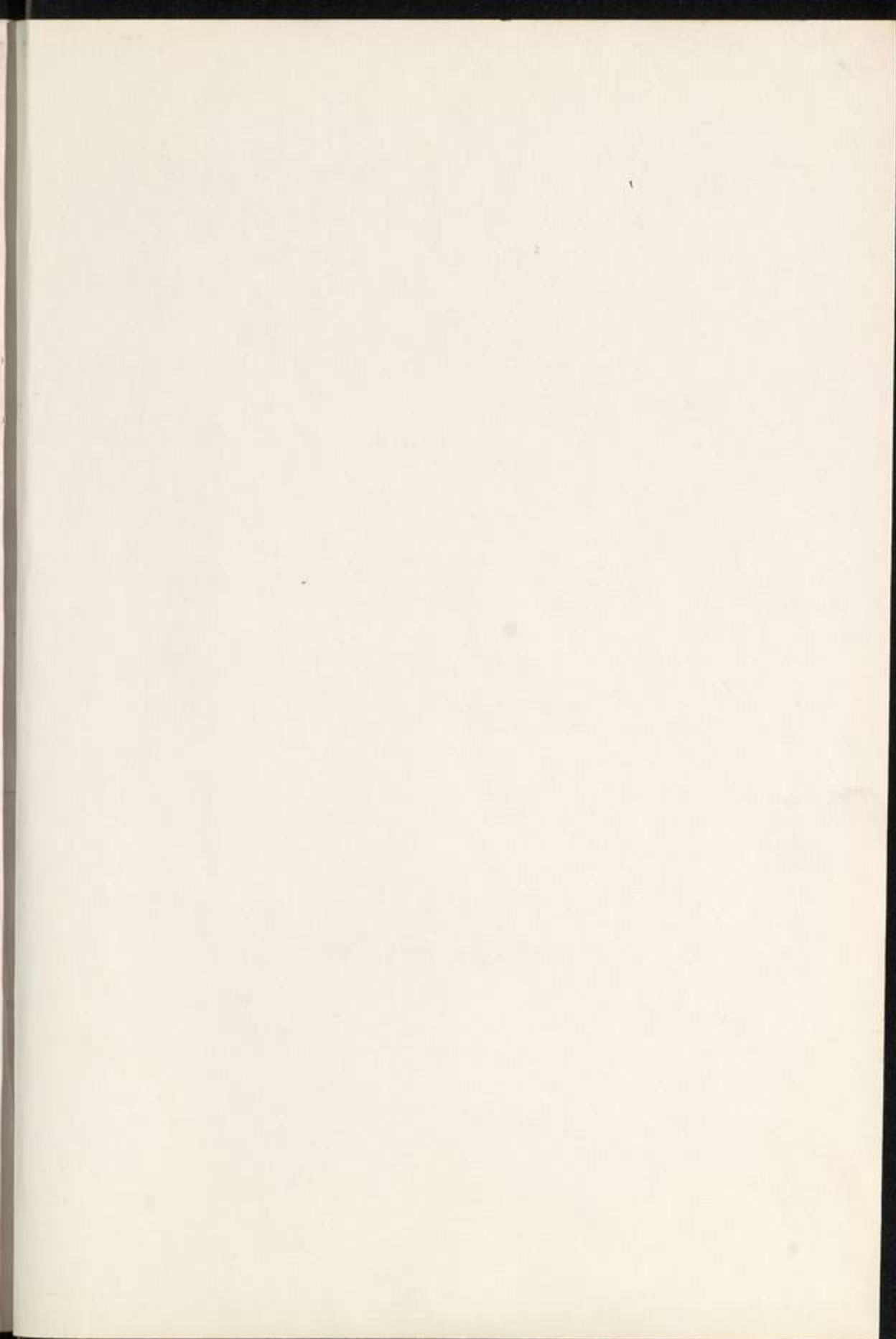


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







صفى الدين الهمداني

جمهورية العراق

كلية التربية

ساعدت على نشره وزارة المعارف

مطبعة المعارف - بغداد

١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م

A 11.-
332/790

al-HILLĪ. - ĞAWĀD AHMAD °ALŪŠ. Ši°r Šafī
ad-Ďīn al-Hillī. 1379 H.
(GAL II 159)

صفوة الدين الحلي

عماد الدين عراقي
كلية التربية

ساعدت على نشره وزارة المعارف

مطبعة المعارف - بغداد
١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م

893.7H558
DA

02077H

الاهداء

ومن أمم بالأهداء من والدي العزيزين ؟

أبي الذي كره ونعب من أهلي .

وأمي التي قاست ما قاست في سبيلي . . .

فأنا ثمرة أُنعا بهما ، وهذا الكتاب ثمرة جهودي ،

فقد أقدم ثمرة أُنعا بي إلا لمن كنت ثمرة لأُنعا بهما . . .

ج

لستُ (كالبحتري) أنغر بالشعر وأتني عطني في الايراد
وإذا ما بنيتُ بيتاً تبخترت كأي بنيت (ذات العباد)
(صفي الدين الحلبي)

حبذا من إمام لفظٍ وفعلٍ نشر الذكر في البلاد دعائه
ناظم يشتكى (الوليد) فعوداً حين تتلو رواه أياته
(ابن نباتة المصري)

تقدير

هذا بحث متواضع دأبت على عمله في كلية الآداب بجامعة القاهرة خلال أكثر من عامين ، وقد تقدمت به للحصول على درجة الماجستير في الآداب في أواخر كانون الأول من عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٥٣) وبعد مناقشة علنية ، نلت الدرجة بتقدير (جيد جداً) وقد كانت لجنة المناقشة مؤلفة من : (١) الاستاذ المشرف الدكتور شوقي (رئيساً) (٢) الاستاذ مصطفى السقا (عضواً) (٣) الدكتور محمد كامل حسين (عضواً) .

ولا يسعني اليوم إلا أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة المحترمين لحسن توجيهاتهم ، وصائب ملاحظاتهم ، ولما بذلوا في قراءة الكتاب ونقده من جهد مشكور ، ويحق لي أن أنغر بأنتي ، قبل أن أقدمه للطبعة ، استطعت أن أحقق معظم رغباتهم ، وأن أعمل بكثير من توجيهاتهم ، وأن أسد الفجرات التي سلطوا عليها ضوءهم أثناء المناقشة فظهرت واضحة . . وبهذا يكون هذا الكتاب المتواضع بين يدي القارئ الكريم ، في شكله الأخير ، بعد إجراء شيء من التنقيح والزيادة ، ولكنها - والحق يقال - زيادة بسيطة ، وتنقيح يسير ، لا يمس أصل البحث ولا يغير شيئاً من منهجه . . وهذا ما قاله لي أساتذتي الأجلاء وقد أرادوا أن يكون الكتاب خالياً ، إلى حد ما ، من العيوب والهفوات ، والسكالم لله وحده . . ولا بد لي أن أشير هنا إن «كتاب العاطل الحالم والمرخص الغالي في الأزجال والموالي» لصفي الدين كان مخطوطاً إلى وقت قريب ، وقد طبع أخيراً فلزم أن أشير إلى طبعه في الموضع المناسب ،

كما ان ديوان صفي الدين قد أعيد طبعه سنة ١٩٥٦ في النجف ، فوجب أن
أبين هذا ايضاً .

هذا ولا يمكن أن أعتبر هذا البحث-الآن- قد استكمل من جميع الوجوه ،
فلا بد أن هناك الكثير من العيوب التي نحتاج إلى الاصلاح ، ولعل هذا من
العوامل التي عجلت في طبعه وإخراجه للنور ، فأنا لا أعتبر طبع الكتاب
خاتمة المطاف ونهاية البحث ، وإنما اعتبره بداية الشوط ، إذ يلقى - وهو بين
يدي القراء الأفاضل - من التوجيه السديد ، والنقد الشديد ، ما يقوم
اعوجاجه ، ويصلح خطأه ، ويكمل نقصه . . . ولهذا فأنا أرحب بكل نقد
وكل توجيه .

وختاماً لا يسعني إلا أن أشكر وزارة المعارف الجليلة التي كانت المحفز
الرئيسي في طبع هذا الكتاب إذ شملته برطيتها ، وقدمت له مساعدتها ،
وهذا جهد محمود للاسهام في خدمة الأدب والثقافة من وزارة العلم والمعرفة .
والله أسأل أن يميننا ويهدينا سواء السبيل .

المقدّمة

لا شك أن حب الوطن غريزة سامية يفرسها الله في نفس كل كائن حي منذ تدب فيه الحياة ، فالطير يحن إلى وكره ، والأسد يعزّز بهرينه ، والظبي يأنس بكناسه ، والانسان ، لما وهبه الله من عقل مفكر وقلب شاعر ، يحب وطنه ويفديه بروحه . هذا الوطن الذي يضمه وإخوانه المواطنين ، فيلم شعثهم ويهي لهم ما يحتاجون اليه من مطالب الحياة الكثيرة . فيؤمن لهم الغذاء والكساء في أحوال تلامهم وترضيهم . وهم يترعرعون فوق ربوعه ويستظلون بسائه ويستنشقون هواه ويرتوون مائه . فوجب على الانسان ألا يشعر بماطفة حب الوطن فحسب بل عليه أن يقوم بخدمته حتى يكون أبناء الوطن جميعاً كالبنيان المرصوص ، بصدون عنه كل إعتداء ، ويعالجون فيه كل داء ، للدفاع عنه في كل حين وبذل المساعدة لجميع المواطنين . وقديماً قال الشاعر العربي :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وقومي وإن شحوا عليّ كرام

ومن تلك الخدمات التي يقدمها الانسان إلى وطنه ، بل من الواجبات التي على المرء أن يؤديها نحو بلده ؛ إظهار المواهب الأدبية المطمورة فيه فالأدب هو حياة الأمة ، وقلبها النابض ، لانهما بدونه ؛ لأنه غذاء الروح والوجدان والركن الوطيد من أركان بناء النهضة . وهو المرآة التي تنعكس عليها ثمار العقل والقلب فتظل تحفظها الأجيال تلو الأجيال .

وقد تمر بالانسان ظروف تجعله يحس إحساساً دقيقاً بواجبه نحو وطنه ، ويشعر شعوراً صميماً بحبه وحنينه إلى بلاده ، ويفكر تفكيراً صادقاً في

تقديم ما يستطيع من مساعدة لأبناء قومه . ومن هذه الظروف إبتعاد الانسان عن وطنه مدة من الزمن ، طالت أم قصرت ، فهنا يتجسم في قلبه حبه لوطنه واعتزازه به ، وهنا يتجلى شوقه لمواطنيه وخدمته إياهم . وهنا يعرف حق المعرفة خير بلاده . ويدرك تمام الادراك فضل أبنائها .

وقد شعرت بكل هذا منذ اليوم الذي غادرت فيه أرض وطني الحبيب لأنهل العلم من مصر ، رأيت لزاماً عليّ أن أخدم وطني في إظهار آدابه العظيمة للناس ، وإخراج آثار أدبائه الخالدين للنور ، وتعمير الناس بتلك النهضة الأدبية الرائعة التي مرت بالعراق عامة والحلة خاصة . وهأنذا اليوم أقدم هذه الدراسة لشاعر الحلة ومفخرتها العظيم ، الذي طبقت شهرته الآفاق في زمانه ، وذاع صيته بين الناس ، وصار الملوك والسلاطين يتمنون مديحه ، حتى قال فيه جميع الذين كتبوا عنه : إنه شاعر عصره على الاطلاق .

وليس هذا فقط ما حدا بي إلى دراسة (صفي الدين) ، بل هناك أسباب أخرى هامة ، فبعض الظروف التي صر بها الصفي صمرت بها أنا أيضاً . وعلى ذلك فاني أستطيع أن أتفهم البيئة التي عاش فيها الصفي ، وأعرف أثرها في ترجمة حياته وشعره : فالحلة التي ولد فيها الصفي ولدت فيها ، وقد عاش فيها الصفي عقدين من حياته وغادرها بعد ذلك طلباً للنجاة ، وعشت فيها مثل ذلك وغادرتها طلباً للعلم . وجاء الصفي إلى مصر وبقي فيها مدة غير قصيرة ، وقد أثرت فيه كثيراً وأحبها حباً صادقاً ، وجمع ديوان شعره فيها وهأنذا في مصر ألتقي الدرس وأنهل العلم . وقد زار الكثير من المدن العربية التي زرتها أنا أيضاً ورأيت فيها ما رأي . فانتقالي هو بعض انتقال الصفي وعلى هذا سأستعين بمعلومات شخصية كثيرة لتفسير كثير من الظواهر التي سببها انتقاله بين هذه البلاد ، وان كان الزمن بيني وبين الصفي بعيداً .

وقد جعلت موضوع رسالتي هذه « شعر صفي الدين الحلبي » ومعنى ذلك أنني سوف أدرس الشعر فقط دون أن أعرض للنثر أو أهم به ، هذا

صحيح ، ولكن . . . هناك شيء آخر أبعد من هذا . فاني سأحاول أن أدرس حياة الصفي وثقافته وعقيدته من شعره نفسه ، فالرجع الأول لهذه الفصول هو الديوان . وإني على طول بحثي وتنقيي ، وكثرة تسألني وقراءتي ، لم أجد من المراجع ما أستعين به على كتابة شيء ذي بال عن حياته ، وكذلك ثقافته وعقيدته ؛ فـسـكـل ما هناك نتف بسيطة متفرقة هنا وهناك ، لا تسمن ولا تغني من جوع ، فوق ما فيها من تضارب واضطراب . ولا أبالغ إن قلت : إن خير وثيقة عن حياة الشاعر ديوانه ، خصوصاً إذا كان الشاعر قد جمعه ودوّنه بنفسه ، كما فعل الصفي ، ولهذا فديوانه أهم الوثائق التي تبنى عليها أحكام دراستنا لحياته وثقافته وعقيدته . وهو فعلاً غني بالمعلومات التي تضيء لنا الطريق وتهدينا السبيل . ففيه نسبه وبلده وذكر أيام صباه ورحيله عن وطنه وحينئذ إليه ورحلاته المختلفة وكل ما يتعلق بحياته . وشعره كالمراة يعكس لنا ثقافته المتنوعة من علوم العربية وآدابها وعلوم الدين وغيرها . ويظهر شعره كذلك تحزبه للاسلام واهتمامه بأمور المسلمين ، واستنهاضه السلاطين للذود عن الاسلام والذب عن حياضه ، ويحلي مذهبته ونشيعه ، وحبه لعلي وآل علي .

ولكن . . . هل الديوان يغنيننا عن أي مرجع آخر فلا نحتاج لغيره ؟ وهل يجيب عن كل سؤال يمكن أن يثار ، أو يرد على كل اعتراض يمكن أن يقف في الطريق ، فلا يترك ناحية لا يوضحها تمام التوضيح ؟ أفلا توجد بعض النواحي ، قليلة كانت أم كثيرة ، في حياته لم يشر إليها الديوان ؟ في الحقيقة أنه لا يمكن أن نعتمد على الديوان فحسب دون أن نرجع إلى مراجع أخرى ، ولو من باب التأكد والاستعانة ، ولهذا رجعت إلى مراجع وراء الديوان لتساعدني على كشفه وتوضيحه ، وأكثر هذه المراجع مراجع عامة في التاريخ والأدب ، استغنت بها على دراسة عصر الصفي أو بيئته ، حيث البيئة الطبيعيه والحياة السياسية والحياة الاجتماعية وغيرها .

واستطعت بواسطتها أن أرسم صورة تقريبية لهذه البيئة . فراجع العراق في هذا العصر قليلة نادرة . لأن المغول أحرقوا وأتلفوا المكتبات العظيمة في بغداد وغيرها من سراكز العلم . وبعض هذه المراجع قديم مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير ، والحوادث الجامعة لابن الفوطي وغيره . وبعضها حديث كان لا بد أن أرجع إليه . أما المصادر الخاصة للصفي وسيرته فقليلة وليس بها سوى بضعة سطور لا تكاد تصوّر شيئاً . ومن أجل ذلك كله كان الديوان هو المرجع الأول والأخير .

وقد جعلت بحثي هذا في تمهيد وباين :

التمهيد : ويشمل البيئة الطبيعية ، والحياة السياسية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة العلمية ، والحياة الأدبية .

والباب الأول في سيرة الصفي من شعره ، وهو فصلان : الأول في حياته والثاني في ثقافته وعقيدته .

والباب الثاني في شعره وهو خمسة فصول ، الأول في آثاره الشعرية وهي : ديوانه ، وكتاب دور النحور ، والبديعية . والثاني في مراحل شعره وهي : ابتداء صنعة الشعر ، ظهور التعقيد ، اشتداد التعقيد ، صفات عامة . والثالث في موضوعات شعره وهي الحماسة والمدح والزنا . الخ . والرابع في الفنون المستحدثة وهي الموشح والمسمطات والأزجال والموالي وغيرها ، والخامس في منزلته في الشعر العربي ، ودرست فيه تقليده وإبداعه ومنزلته وأثره في أخلافه . وذيلت البحث بخاتمة بينت فيها ملخص الرسالة ، وأشارت فيها إلى الجديد الذي استحدثته بنفسي وأوجدته بدراستي الشخصية .

والله أسأل أن يجعل هذا البحث بداية بحوث أستطيع بها أن أظهر ما لبلدي من فضل في الأدب ، وأن أطلع الناس على آثاره الأدبية والعلمية ، فأكون بذلك قد استطعت أن أرد بعض الجليل ، والله المستعان .

تمهيد

١ - البيضة الطبيعية :

ولد الصفي في الحلة ، وهي مدينة من أمهات مدن العراق ، كانت في عصر من عصور التاريخ قبلة العلماء والأدباء ، وطلبة التجار وسائر أرباب الحرف . وأصبحت لها مكانة مرموقة بين مدن العالم الاسلامي وتنافس بغداد في مركزها وسطوتها وجامها .

هذه هي مدينة الصفي ، ففيها ولد ، وبين أهلها ترعرع ، ووسط جوها المعطر بشذا العلوم والآداب تتقف واكتسب علمه وأدبه ، وباسمها يلقب فيقال صفي الدين الحلي .

وتقع الحلة على بعد أربعة وستين ميلاً إلى الجنوب الغربي من بغداد ، وعلى بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الكوفة وعلى بعد بضعة أميال من أطلال بابل العظيمة ، وعلى موقع جميل من نهر الفرات . وتكتنف هذه المدينة بساتين النخيل الباسقة ، وأشجار الفاكهة الشبية . وقد وصفها ياقوت الرومي بقوله : « مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى (الجامعين) ، طولها سبع وستون درجة وسدس وعرضها اثنا وثلاثون درجة ، وتمديد نهارها خمس عشرة درجة ، وأطول نهارها أربع عشرة ساعة وربيع وكان أول من عمرها (سيف الدولة صدقة الأسدي) سنة (٤٩٥ هـ) . وكانت أجمة تأوي إليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى بها المساكن الجميلة والدور الفاخرة » (١) .

وقال عنها (ابن بطوطة): « . . . مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو شرقياً ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة وحدائق النخيل منتظمة بها داخلاً وخارجاً ودورها بين الحدائق »^(١) فهي تمتد مع الفرات فيكسبها جمالاً رائعاً ، ويجعلها منظرأ ساحراً من مناظر الطبيعة الفتانة ، ويصلها بالمدن الشمالية والجنوبية . كما تصل بينها وبين المدن الأخرى طرق برية حسنة « فالطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً وبشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب وتسقيها »^(٢) وكان للمدينة « جسر عظيم معقود على صراكب كبار متصلة إلى الشط تحف بها وبجانبيها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً ترتبط إلى خشبة مثبتة من « كلا الشطين »^(٣) ومناخها جميل وهوأما عليل ، تهب عليها الأنعام التي يلطفها نهر الفرات ، وتنقيها الأشجار الكثيفة التي على ضفتيه . وفي شتائها شيء من البرودة تنسيك قسوتها أيام الربيع الدافئة الرائعة ، وكثير من المطر الغزير نجففه حرارة الصيف الشديدة وشمسها الساطمة . وفي صيفها حرارة تكسر من حدتها الظلال الوارفة تحت الأشجار النضرة .

أرضها خصبة وتربتها غنية بالمواد اللازمة للزراعة . وماؤها وفير يزيد عن الحد المطلوب في كثير من الأحيان ، فالسماه تدر عليها الكثير في كل عام ، والفرات ماؤه لا ينضب وإن كان غالباً ما يفيض ويفيض ويدسر . وماؤه عذب كاسمه ، قال عنه ابن جبير : « هو من أخف المياه وأعذبها » . بسايتها الواسعة ملائى بشتى أنواع الفواكه والخضروات والحبوب ويربى الكثير من الحيوان في المراعي الشاسعة التي تحيط بها فتجعلها ذات ثروة عظيمة .

* * *

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٣٣

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢١٣

(٣) المرجع السابق ص ٢١٣

وحين سقطت الخلافة العباسية في أيدي المغول سنة (٦٥٦ هـ) وحلت الكوارث في أكثر مدن العراق ، نجت الحلة من هذا الدمار ، لأن أهلها أرسلوا وفداً إلى هولاكو يسألونه حقن دماهم ، وكان مكوفاً من كبار رجال البلد وأعيانه وعلماؤه والعلويين ، ومعهم الهدايا والأموال الكثيرة فأجابهم هولاكو إلى طلبهم^(١) ، وعين لهم شحنة فازدهرت الحلة ازدهاراً عظيماً وارتقى الحليون أسمى المراتب وتقلدوا أعلى المناصب في الدولة ، واتسمت النهضة الأدبية والعلمية في الحلة . وحين ولد الصفي في هذا المجتمع أقاد منه كثيراً . ولكن حين تفاقمت الأحوال في العراق في أواخر أيام حكم المغول سنة (٧٠٠ هـ) ، واضطرب الأمن اصاب الحلة ما اصاب غيرها من مدن العراق فكثرت فيها القتل والاعتقال ، فقتل (أبو المحاسن خال صفي الدين غيلة فأخذ الصفي بثأره سنة (٧٠١ هـ) وهاجر إلى (ماردين) ففرض فيها كثيراً من أيام شبابه .



و (ماردين) مدينة ذات قلعة حصينة تقع على قمة جبل في الجزيرة . وقد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الاسلام في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، فكانت عاصمة لمملكة إسلامية قوية ، كانت تحكم مساحات واسعة امتدت إلى الموصل وحلب ، واستطاعت أن ترد هجمات الافرنج مرات عديدة وتتوغل في أراضيهم .

وهي تقع على جبل حصين ، تشرف على (دينيس) و (دارا) و (نصيبين) - في جنوب تركيا اليوم - وتطل على فضاء فسيح يمتد فيه البحر إلى مدى بعيد ، ذلك هو سهل الجزيرة الذي يدهش الناظرين . ويبلغ ارتفاع هذه الهضبة خمسمائة قدم في الجنوب الغربي من ديار بكر وتمتد هذه المرتفعات الصخرية البازلتية نحو الشرق في اتجاه (جزيرة ابن عمر) وتنساب من

المنحدرات الجنوبية لهذه الجبال المجاري المائية الكثيرة التي ما يلبث تشعبها بعد مسيرها قليلاً أن يتصل بعضها ببعض فيكون أنهاراً صغيرة تختلط فتكون نهر الخابور^(١) .

وقد وصف ياقوت دور أهلها بقوله : « ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى وكل درب فيها يشرف على ما تحته من الدور »^(٢) فهي كغيرها من المدن الجبلية مبنية على هيئة مدرجات تضم الدور والدكاكين والأبنية الأخرى ، ويشرف بعضها على بعض ، وطرقها تلتف وتلتوي حول هذه الدور . وتحيط بماردين بساتين واسعة ، تخترقها وديان كثيرة منها : (وادي باغ الفراء) و (وادي الشيخ) و (وادي شجالا) وغيره . وكل هذه الأودية تروي البساتين الملاصقة بالكروم والقواكه المتنوعة^(٣) . وماردين نفسها قليلة الماء فأكثره من ماء المطر لأنهم يجمعونه في صهاريج كبيرة ويمتفظون به للاستعمال وهناك أيضاً بعض القنوات التي تسقى المدينة بالماء الذي تأخذه من العيون المنتشرة حول المدينة .

وماردين جميلة المناخ لطيفة الهواء ، وكان حسن مناخها سبب اختبار الأطباء لها كصحة (ماردين) ابن ملك الفرس^(٤) .

وقدر (الاصطخري) مرتقى ماردين بفرسخينما (ابن حوقل) قدره بفرسخين^(٥) وتتصل ماردين بما حولها من مدن بعدة طرق من أهمها : طريق ديار بكر - نصيبين الذي ينمط في اتجاه جزيرة ابن عمر والموصل . وهي في موقع مهم تتقاطع فيه عدة طرق هامة وكانت تعتبر مركزاً هاماً للقوافل التجارية إلا أنها فقدت مركزها^(٦) .

(١) دائرة المعارف الاسلامية - النسخة الانجليزية ج ٣ ص ٢٧٣

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٠

(٣) تاريخ ماردين لعبد السلام المارديني (خ ورقة ١٠٢) .

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية - بالانجليزية ج ٣ ص ٢٧٤ .

(٦) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة .

وقد تأسست ماردین قبل ظهور الاسلام ، وفتحها المسلمون في زمن الخليفة (عمر بن الخطاب) وحكمها أمراء وولاء عديدون حتى جاء الارتقيون سنة (٥٤٩٧) فحکوها .

وكان مجي الصفي اليها في زمن مليکها (المنصور) ثم ابنه الملك (الصالح) بعده . وكانت تتمتع يومذاك بهدوه وطمانينة .

٢ - الحياة السياسية :

جاء القرن السابع الهجري والخلافة العباسية قد تناهى بها الضعف واستبد بها الهرم ، وغدت البلاد الاسلامية يتنازعها الأتراك السلاجقة في الشرق والاكراد الأيوبية في مصر والشام ، والبربر في المغرب والأندلس . ورأى ذلك أعداء الاسلام ففرحوا به لأنهم يريدون أن ينقضوا على البلاد الاسلامية . فأغار الكرد والأرمن من الشمال للسلب والنهب ، وهجم الفرنج والصليبيون من الغرب هجوم الفاتح النازي ، أما من الشرق فقد جاء التتر المغول المتوحشون وهم قبائل بدوية كانت تقطن شرق آسيا ، ثم تسكنت واستطاعت أن تغزو معظم آسيا في فترة وجيزة ، وأن تدخل العراق بقيادة (هولوكو) وتسقط الخلافة العباسية وتحتل بغداد وتقتل الخليفة (المستعصم بالله) سنة (١٢٥٦) . وهكذا أصبح العراق إمارة تابعة للمغول بعد أن كان قلب العالم الاسلامي النابض . وكان هؤلاء المتوحشون يحكمون بكل وحشية وقسوة ، فهم عتاة غلاظ القلوب ، وكان من آدابهم الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة^(١) ، فالسلطان حاكم مستبد يخضع له الجميع وليس عنده من النظم والقوانين ما يسير عليه إلا ذلك القانون العرفي الذي وضعه أبوم الأكبر

(١) البداية والنهاية لابن كثير . خ ج ١٣ ورقة ١١٨ .

(جنكيز خان) ، ويتميز بروح القسوة والعنف ويقضي بقتل من يرتكب أبسط الأُمور^(١) .

ولد الصفي في كنف هذا الحكم ، وشب فرأى الاضطراب السياسي ، والانحطاط الشامل لكل مرافق الحياة . فبعد أن انتهى حكم الخلافة العباسية وحل محله حكم المغول لمعظم هذه البلاد العربية والاسلامية لم تعد هناك أي رابطة تربط بينها سياسياً ، ولا أي صبغة توحد بين ألوان الحكم فيها ، وقد أصبح في كل دولة أمير يحكمها مستمداً سلطته من قوته . فاذا جاء من هو أقوى منه تمناه وجلس مكانه . وحاول هؤلاء الحكم تطبيق نظام وراثة العرش فلم يفلحوا لأن الحكم للأقوى . وكانت هذه المنازعات تقع حتى بين الاخوة وأبناء العمومة ، وبين الأبناء والآباء ، وكثيراً ما أدى هذا إلى القتل بالطرق الوحشية الفظيعة والسلب والمصادرة . ولهذا كان الشك بملأ القلوب ويشحن الصدور : شك السلطان في حاشيته وحتى في أهله وأقرب الناس إليه ، فهو لا يأمن خيانتهم وغدرهم . وشك الحاشية في أميرهم فهم لا يأمنون غضبه ، ولا يعرفون في أي ساعة يثور فيقضي عليهم جميعاً وشك الأمير في رعيته فلا يدري متى تثور عليه وتنجيه وهكذا .

لهذا كان القلق سائداً كل شيء في هذا العصر ، الناس في قلق فهم لا يعرفون هدوء العيش ، والحكم في قلق فليس فيه استقرار ، والحكام في قلق إذ أنهم لا يعرفون الهدوء السياسي ، فكثيراً ما ينقل الأسماء أو موظفو الدولة وكثيراً ما يعزلون ، وكثيراً ما يقضي عليهم بالقتل والمصادرة ، وكانوا قبل لحظات في أعلى المناصب . وتبعاً لهذا الاضطراب السياسي اضطرب الأمن ، فالسلطة غير قادرة على حكم البلاد ، والحكام والموظفون لا يعرفون مصيرهم في غد أو بعد غد .

* * *

ولم يكن نظام الحكم فى الامصار الاسلامية منتظماً على أسس سليمة أو يتبع قوانين معينة ، فالحكم إذاً استبدادي ، والسلطان حاكم مطلق يفعل ما يشاء ويأمر بما يريد ، دون أن يوجد من يحاسبه أو يعارضه لأنه أقوى من حوله . وكان أكثر هؤلاء السلاطين يبررون حكمهم باسم الدين بالرغم من أن القوة لا غير هي التي أوجدتهم فى مناصبهم ، فكانوا يجمعون حولهم الكثير من رجال الدين ولا يعملون عملاً إلا ويجدون له ما يبرره أو يحلله فى الدين . وبذلك يجب على الشعب أن يرضى به ، لأن علماء الدين قد ارتضوه . واستغل السلاطين هذا وصاروا يجبرون علماء الدين على إعلان الرضى عن أعمالهم فكان الكثير يرضخ لحكمهم والقليل هو الذي يقاوم فيلقى الاضطهاد والمذاب . وقد كان ذلك لارضاء الشعب ، فهل معنى هذا أن الرأي العام كان قوياً ، أو لم يكن بحسب له أي حساب عند السلاطين ؟ لقد كان السلاطين يرعون بعض النواحي التي تهتم الشعب . فهم إن أرادوا جمع المال خافوا عصيان الشعب أو ثورته فأشاروا على علماء الدين أن يفتوهم بأمر هذه الضريبة ويحللوا ليرضخ الشعب لهم . فرضى العامة وسخطهم ليس مهملاً ، ولكنه ليس مهماً كذلك بالدرجة التي كان يخافها السلاطين ، فالسلطان يحكم وهم مطيعون ، دون أن يكون له مجلس شورى يعبر له عن رأيهم عند الفصل فى الأمور . وكان أكثر هؤلاء السلاطين المتظاهرين بالتدين لا يتورع عن ارتكاب أعظم المنكرات فى المجالس الخاصة ، يصرفون فيها الأموال الطائلة على لذائذهم ومباهجهم دون الالتفات إلى المشاريع التي تنفع الشعب وهم يكتزون الذهب والفضة والمال والسلاح يستعينون به عند الملمات .

وفي (ماردين) كان الأرتقيون ، وكانوا أيضاً يحكمون ديار بكر وحصن (كيفا) و (خربوط) منذ أواخر القرن الخامس فقد استطاع جدم (ياقوتي) حفيد (أرتق بن أكسب) مملوك السلطان (ملكشاه السلجوقي) ، أن

يستولي على (ماردين) سنة (٣٩٧ هـ) ويؤسس فيها ملكاً للأرتقيون^(١) واتسمت أملاكهم وقوى نفوذهم . وحين قضى المغول على الخلافة العباسية أصبحت (ماردين) تابعة لهم إسمياً ويخضع لهم على المنابر ، لكن السلطان الفعلي ظل بيد الأرتقيين . لذا كانت تتمتع بهدوء وطمأنينة لا مثيل لها في البلاد الإسلامية الأخرى ، خصوصاً في عهد الملك المنصور وقد ظل يخضع للمغول ورحل في خدمة السلطان (غاران) للمغولي إلى الشام ، لكنه كان يناصر الملك الناصر محمد بن قلاوون سرأً وتزوج ابنته^(٢) . وهو الذي التجأ إليه صفي الدين الحلي فأواه وأحسن وقادته . ومات سنة (٧١٢ هـ) فلك بمده ابنه الملك الصالح . وكان من أجل ملوك (ماردين) حزمًا وعزمًا ورأيًا وكرمًا ودهاءً . كان حسن السياسة بحب المدح وبجيز عليه^(٣) . وهو الذي قطع الخطبة للمغول واستقل بالحكم سنة (٧٣٧ هـ) وتوفي سنة (٧٦١ هـ) . وهذه الدولة حريصة منذ تأسيسها سنة (٤٩٧ هـ) وظلت كذلك حتى انقرضت سنة (٨٠٢ هـ) . وملوكها كلهم فرسان شجعان . وكانت جيوشهم من التركان ولاغرو والعائلة المالكة تركمانية ، وكان الجندي شديد المراس قوي البطش عظيم الصبر لذا استطاع الملوك أن يطبقوا نظام وراثته العرش . وحين خضعوا للمغول لم يغيروا شيئاً من حكمهم سوى الخطبة لهم على المنابر .

٢ - الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع الإسلامي في هذا العصر مجتمعاً مفككاً في غاية التدهور والانحطاط ، فكما كانت الحياة السياسية فاسدة مضطربة كانت الحياة

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٦

(٢) المنهل الصافي - مخطوط - ج ٢ ورقة ٥٠٢

(٣) المنهل الصافي - مخطوط - ج ٢ ورقة ٢١١

الاجتماعية كذلك . فاذا كانت السياسة مضطربة والحكم فاسداً فكيف يكون المجتمع صالحاً وحياة الناس هادئة طبيعية ؟
المجتمع الاسلامي إذاً كان مضطرباً كل الاضطراب ، منحلاً أسوأ
الانحلال ؛ اجتمعت فيه مساوي الأمم المختلفة فأصبح خير مثال لشر
فساد وتفكك .

واضطراب الأمن واختلال النظام كان يسود البلاد الاسلامية ، فكثر
القتل كانت متفشية نفسياً عجيباً بين جميع الناس وفي كافة الطبقات ومختلف
المجتمعات : فقتل (عماد الدين القزويني) أحد حكام بغداد سنة (٦٦٠ هـ)
وقتل (علي بن بهادر) شحة بغداد سنة (٦٦١ هـ) . وقتل (نجم الدين بحبي)
سنة (٦٦٩ هـ) إلى آخر ذلك من القتل الشنيع . وفي مصر قتل من المهاليك
(إيبك) و (قطز) و (كتبغا) و (سلار) و (لاجين) وغيرهم . وكانوا
يبتسكرون للقتل والتمثيل أبشع الطرق وأشنع الصور ؛ فهذا (مجد الملك)
يسلم إلى الصاحب (علاء الدين) فيقتله ونحمل أطرافه إلى البلاد ويسلخ رأسه
ونحمل إلى بغداد ويشوي أتباع (السلطان خربنده) لحمه ويأكلون منه
ويشربون الخمر في قطعة من رأسه^(١) . وكثر الانتحار أيضاً ، ففي سنة
(٦٧٨ هـ) وجد في قبة المؤذن بالمدرسة النظامية جثة رجل صلب نفسه .
وفي سنة (٦٧٩ هـ) صلبت امرأة نفسها في دارها بمحلة الجعفرية . وفي سنة
(٦٨١ هـ) طولب (نجم الدين) كاتب البريد بالحساب على بقايا وجبت عليه
فلما عجز وخشي العقاب قتل نفسه ، وكان شاباً حسن الصورة^(٢) .

وهناك حوادث أخرى متنوعة تدل على فساد المجتمع . ففي سنة (٦٨٨ هـ)
دخل الأعراب يوم الجمعة إلى الجامع بالمحول فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم
قصدوا ناحية الحارثية وكبسوها ليلاً وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٣٩١

(٢) نفس المرجع ص ٤٠٨ — ٤٥١

من أهلها ، فلم يزل شحنة العراق يبحث عنهم حتى ظفر بأكثرهم وضرب أعناقهم ، وبني رؤسهم في قبة الجسر ، وجعل وجوههم ظاهرة ليتمتع بها كل مفسد^(١) . ولو لم يكن ذلك شائماً لما اضطرت شحنة العراق إلى بناء رؤوسهم في الجسر ليخيف أمثالهم . وفي مصر كثر فساد العربان فقطعوا الطرق وفرضوا الأتاوات على التجار وأرباب العيش بالصعيد ، واستخفوا بالولاة ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون فاضطر السلطان للخروج لقتالهم^(٢) . ومن مظاهر هذا الاضطراب ظهور الشطار في بغداد وغيرها ، ففي سنة (٦٧٧ هـ) ظهر صبيان من الشطار يعرف أحدهما (ابن الحماس) والآخر (بالتاج الكفني) وانضم إليهما جماعة من الجهال فقويت شوكتهم وانتشر ذكركم فأحتال صاحب الديوان حتى أحضر (ابن الحماس) إليه وعين عليه والياً من الشرطة فبقى على ذلك أياماً ثم استعفى فأعطاه وجعله ملازماً باب داره . . . ثم ثبت إفسادهما فأمر بقتلها وطيف برأسيهما ، فكبس بعض رفاقهما على (قتادة) نائب الشرطة وهو جالس على شاطيء دجلة في الرقة فقتله وبعض أصحابه ، فأمر صاحب الديوان أن ينبش (ابن الحماس والكفني) وتحرق جثتهما^(٣) . وهذه بلا شك حيلة العاجز .

وكان هذا المجتمع يزخر بشتى الأجناس ، وبموج بأخلاق مختلفة من الناس ، فقد التقى فيه أناس من أقصى الشرق بأناس من أقصى الغرب . واختلطت هذه الأجناس المتباينة فكونت هذا المجتمع الجديد الذي لا تعرف له لوناً ولا جنساً ولا شخصية خاصة . فقد امتزجت في الحروب الصليبية وحروب المغول وغيرها شتى الحضارات والديانات والأفكار والعلوم والمعادن والتقاليد ، وتداخلت وكونت هذا المجتمع الجديد . فوجدنا عادات المسلمين بجانب عادات الوثنيين دون نمرج أو توقف .

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٥١

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٤

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤٠٣

فليس هذا المجتمع بمجتمع عربي ، تغلب عليه العروبة ، وليس الناس كلهم من العرب بل ليس معظمهم عرباً ، وإنما كان هناك فرس وترك ومغول وغير ذلك من الأقوام . وكانت الغلبة في العراق للمغول لأنهم الفاتحون المسيطرون ، وكانت الغلبة في مصر والشام للماليك الأتراك لأنهم حكام البلاد ، كذلك في (ماردين) ، فالحكام ترك لا شك في ذلك . ضعف إذاً شأن العربية ولم تبق لها تلك الصولة ولم تعد صاحبة السطوة ، لأن الحكام أو معظمهم لا يتكلمون بها فعلى الشعب أن يخاطبهم بلغتهم التركية وعليه أن يتعلمها فتزاحم العربية في كل ميدان . ولكن بالرغم من هذا بقي للعربية شيء من الأهمية لأنها لغة القرآن ولغة الدين الذي يدين به أغلب السكان ويدين به معظم الحكام ، وحتى حكام المغول فيما بعد .

ولم يكن هؤلاء الناس جميعاً من طبقة واحدة ، فكانت هناك طبقات متفاوتة يختلف بعضها عن بعض وهي أربع طبقات : الأولى طبقة السلاطين والحكام والأمرء . وهي الطبقة العليا المتميزة في كل شيء . والثانية طبقة علماء الدين ويلون الحكام في المنزلة وكانت لهم مكانة بين الناس لذا كان السلاطين يحترمونهم ويقرّبونهم اليهم ويستشيرونهم في الأمور . والثالثة طبقة كبارالتجار ، وهم المثرون من الأغنياء ، ويرتقون إلى منزلة الخاصة وبجالسون الأمرء والسلاطين وكانت لهم مميزات خاصة وبها كون أمام الحكام لا أمام القضاة كما يحاكم سائر الناس . والرابعة طبقة العامة وهم الصناع والزراع وصغار التجار وبقية الناس وهم أقل الطبقات .

وهناك من يقسم الناس تقسيماً آخر : حكى أن السلطان (هولاكو) لما كان بوطأة حران وقف له جمع من الفقراء فقال لنصير الدين : ما هؤلاء ؟ قال : فضلة في العالم . فأمر بقتلهم فقتلوا . وسأله عن معنى قوله فقال : الناس أربع طبقات : بين إمارة وتجارة وصناعة وزراعة فن لم يكن منهم

كانت كلاً عليهم^(١) . فهو يقسمهم إلى : (١) الأسماء (٢) التجار (٣) الصناع (٤) الزراع . ولا يجعل لعلما الدين طبقة ، وربما كان ذلك تواضعاً منه لأنه من علماء الدين وأكبر علماء عصره . ويعتبر غير هؤلاء الأربعة ليسوا من الناس ويجب أن يقضى عليهم .

فليس المجتمع إذاً وحدة شاملة وقوة مترابطة ، وإنما هو مجزء مفكك ، وليس هذا التقسيم الطبقي هو الظاهرة الوحيدة لهذا التفكك فهناك ظواهر متعددة ؛ فكل طبقة من هذه الطبقات مفككة هي الأخرى فطبقة الحكام مقسمة إلى أحزاب تتناحر وتتنافس ، كل يريد أن يستأثر بالسلطة ، وكل يريد أن يجمع حوله الأنصار ، وكل يريد أن يفرق عن غيره الأعوان ، وطبقة العلماء منقسمة على نفسها ، فهؤلاء علماء يسرون في ركاب السلطان ويؤيدون كل أعماله ويوجبون على الشعب طاعته مهما تكن الظروف ، وأولئك علماء يخالفون هذا ولا يرضون بكل أعمال السلطان ويكفرون العلماء الذين يؤيدون السلطان . والطبقات الأخرى مجزأة أيضاً .

وليس عسيراً أن نعرف أسباب هذه الفرقة ، فقد عرفنا أن في المجتمع أخلطاً مختلفة ، وأن الأحوال مضطربة وأن الروابط بين أجزاء الأسرة قد اندرست ، وحتى الأسرة تفككت وكادت تمحي معالمها ، فقد رأينا الحروب والخلافات بين الاخوة والأبناء والآباء . وقد سبب ذلك أشياء كثيرة قوي خطرهما في هذا العصر ؛ فالرق وتمدد الزوجات من مختلف الأجناس ، من عربيات وروميات وتركيات ، وانتشار التسري انتشاراً فظيماً ، وظهور الكثير من الشذوذ الجنسي كإقتناء الغلمان وغيره من اللهو والمبث وكثرة إنتشار الخمر والكيفيات الأخرى . وهذا (ابن الفوطي) يروي حادثة تبين أثر تعدد الزوجات فيقول : « تزوج رجل يعرف (بابن البيضاوي) امرأة مغنية ببغداد ونقلها إلى قريته وأسكنها مجاور دار زوجته وكانت ابنة عمه

فدخلت اليها وضربتها بدبوس فقتلتها ، وخرج عمه اليه فضربه بنشابه فمات .
من ساعته ، فعلم ولده بذلك فضرب عم أبيه بسيفه فقتله ،^(١) كل هذا يدعو
إلى انحلال الأسرة وتفسخها لعدم وجود الروابط التي تربطها وتحافظ على
كيانها ، ففسدت الأجيال وفسدت أخلاقها أي فساد ، فلم يعد للفضيلة أي
وجود ولم يبق للأخلاق الحميدة أي أثر . وانتشرت الخلاعة والمجون
والدمارة والفسق ، وتفشت بين الناس أخلاق جديدة فيها الخداع والمكر
والديسة والغدر والكذب وحب الاعتداء على الغير وغير ذلك من شرور .

ولم لا يكون هذا والناس لا رادع لهم من سياسة أودين ؟ فالسياسة
فاسدة ، والدين لم يعد ذلك العامل القوي الذي يسيطر على قلوب الناس
ويوجههم في كل أمهاتهم ، فقد تغيرت الحال وأصبح الانسان أضعف من
أن يوجههم ؛ فالخاصة تتظاهر بالدين تظاهراً فحسب أما في الباطن فتأتي كل
ما ينهى عنه الدين ولا تعمل شيئاً مما يأمر به ، أما العامة فقد أصبح الدين
عندهم أضعف من أن يصل إلى أعماق النفس وأهون من أن يسيطر على الضمائر
وأعجز من أن يوجه الأعمال ، سواء أكانت من علاقة المرء بربه أو علاقته
بأخيه فلم يبق من الدين عندهم إلا القشور لذا رأينا إنتشار الموبقات ونفسي
المنكرات وعمل المحرمات ؛ فالحجرة مباحة بشرها الجميع ، والاهو والعبث
يقام في وضع النهار دون مخرج .

وقد كثرت الحرافات وانتشرت انتشاراً عجيباً حتى شغلت الناس عن كل
شيء . وقليل من علماء الدين من أحس بالخطر وشخص الداء وعرف الدواء
لكنهم كانوا أضعف من أن يعملوا ، فآكتفوا بأضعف الإيمان ، وكثير
منهم انساقوا في ركاب الأسراء ليجزلوا لهم العطاء وليمتعوم بدار الفناء .
لهذا رأينا كثرة الفرق الدينية والمذهبية وكثرة تطاحن هذه الفرق مما لا ظائل
تحته ومما يؤدي إلى المنازعات والعراك ، ووقعت الحروب الكثيرة بين هذه

(١) الحوادث الجامعة ص ٢٥٢ .

الفرق الاسلامية وهذا بلاه ما بعده من بلاه ، كان السبب في هدم كيان الأمة وهدم المجتمع الاسلامي . فالتمصّب للمذهب فحسب هو أساس المناظرات ، وكان سببه صمى البصيرة وظلام القلب وخمول العقل . فقد قامت الفتن بين الشافعية والحنابلة ووقمت الحروب بين الشيعة والسنة ، وكانت السلطة بدورها تنصر فريقاً على الآخر وتمفضل مذهباً على الثاني مما يزيد النار اشتعالاً .

هذا هو المجتمع الذي عاش فيه صفي الدين فكان لا بد أن يتأثر به ، وكان لا بد أن يظهر ذلك في حياته وفي شعره ، فقد نقم على هذا المجتمع ونقم على كثير مما فيه من فساد ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقاوم التيار الشديد فانساق فيه على نحو ما سنرى فيما بعد .

٤- الحياة الاقتصادية :

لم تكن الحياة الاقتصادية بأحسن حظاً من الحياة السياسية والاجتماعية ، وأقل فساداً واضطراباً منهما ، فالفساد في السياسة والمجتمع لا بد وأصل الحياة الاقتصادية في كل مظاهرها ، فليس هناك أدنى شك في أن الحياة الاقتصادية في كل بلد تتوقف على الأمن والسلم والعدل في ذلك البلد من حيث الشدة والرخاء . وليس هناك أدنى شك أيضاً في أن الحروب تجر البلاد إلى انهيار اقتصادي ؛ فتكثر المجاعات ويحل القحط فيضطر الناس إلى أكل ما لا يؤكل وعمل ما لا يعمل . والحروب التي جرت في معظم البلاد الاسلامية في هذا العصر وما سبقه من العصور حروب مدمرة لا تبق ولا تذر ، فاضطربت الأحوال الاقتصادية في سائر هذه البلاد وحلت المجاعات الخفيفة التي اضطرت بعض الناس إلى أكل أوراق الشجر ونبات الأرض وورق القصب والحلفاء وتجرع أكل لحوم الفيران والقطط وذبح الأطفال وبيع لحومهم ، وباع الفقراء

أولادهم ، وانتحر أناس كثيرون « حتى أن امرأة ألفت بنفسها إلى دجلة لأنها كانت تطلب فلم يعطها أحد شيئاً فأثرت الموت »^(١) .

ونتيجة لهذه المجاعات كانت الأسعار ترتفع ارتفاعاً فاحشاً مما لا يدع في استطاعة الناس العاديين ومتوسطي الحال شراء حفنة من طعام . (فإن الفوطي) يذكر لنا من غلاء الأسعار ما يفوق كل تصور في الأعوام : ٦٦٨ و٦٧٨ و٦٧٩ و٦٨٤ و٦٨٥ و٦٨٨ ... الخ . ويضرب الأمثال لغلاء الأسعار فيذكر في سنة (٥٦٦٨) أنه بلغ الكرم من الحنطة ١٥٠ دينار^(٢) وفي سنة (٥٦٨٤) بلغ الكرم من الحنطة ١٨٠ دينار والشعير ١٠٠ دينار ، وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم^(٣) . وفي دمشق بلغ رطل اللحم عشرة دراهم ورطل الخبز درهمين ونصف وأوقية الجبن بدرهم وكل خمس بيضات بدرهم^(٤) .

وكانت الطبيعة كانت عوناً لهذه الحروب ، فكانت تصيب الزروع والنبات بأنواع الآفات ، فتتلف المحاصيل وتزيد في غلاء الأسعار . فتارة يظهر الجراد فيأكل الغلات ويقضي حتى على خوص النخل وورق الشجر^(٥) ، وتارة تفيض الأنهار فتغرق الزرع وتتلف الضرع ، فكم مرة فاض نهر دجلة فأغرق عدة مدن ووصل الماء إلى (الجبانية) - في الصحراء - وتهدمت جدران البساتين وهلكت الأشجار وظهر بعد ذلك ذباب كثير^(٦) . وكان القرات يفعل فعل دجلة أيضاً ، فقد زاد مرة في سنة (٥٦٨٤) زيادة عظيمة ففرقت أعمال الكوفة والحلة ونهر الملك وعيسى والأنبار وهبت وذهب من

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٤٧ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٦٦ .

(٣) البداية والنهاية . مخطوط ج ٤ ورقة ١٨٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٤٩ .

(٥) الحوادث الجامعة ص ٣٨١ .

(٦) نفس المرجع ص ٤٤٢ .

الاموال شي كثير^(١) . هذا مع ملاحظة أن هذه المدن تقع في البادية التي يمكنها أن تستوعب مقادير عظيمة من المياه . ومرة كانت نهب الأعاصير الباردة القارسة فيتجمد الماء ويتلف الزرع وتموت المواشي والأغنام والطيور^(٢) . ويسقط الثلج والبرد فيميت الحيوان ويتلف النبات ، فكان يتعذر على كثير من الناس الحصول على القوت ، لندرة الغذاء وللحاجة والفاقة مع غلاء الاسعار فكان يمتثلون بكل طريق للحصول على الدرهم . حتى نسب إلى جماعة من أهل بغداد ضرب الدرهم المزيفة ، فأخذ بعضهم وضرب فأقر على ذلك وكان بين هؤلاء (نجم الدين حيدر) وهو من أعيان المتصرفين^(٣) . وكانت السلطة تضطر في كثير من الأحيان إلى إبطال النقود وتغييرها وسرطان ما تعود إليها ثم تستبدلها بمجديدة فيسبب ذلك قلقاً عند الناس واضطراباً في معاشهم . ووضع (صدر الدين) صاحب ديوان المال بتبريز سنة (٥٦٩٣) (الجاؤ) وهو العملة الورقية ، بدلاً من الدنانير والدرهم وأمر الناس أن يتعاملوا بها قسراً ، فاضطربت أحوالهم وتعذرت الأقوات عليهم فلما عرف ذلك السلطان (كيخاتو) أمر بإبطالها^(٤) . وهكذا كان يحل بالناس كل بلاء من فقر مدقع ، وجوع شنيع ومرض مريع .

ولم يكن الحكم ليصلحوا هذا الفساد ويرعوا هذا الحال ، بل على العكس من ذلك كانوا يرهقون الأمة بالضرائب الفاحشة التي تزيد عن الحد المعقول ؛ ففي سنة (٥٦٧٧) « ورد تقدم الى (علاء الدين) صاحب الديوان لاستيفاء خمسين ألف دينار من بغداد وأعمالها على وجه المساعدة ، فشرع في استيفاء ذلك من الناس بالعسف والقهر ، ثم أمر بانبات الدور في بغداد فأثبتت جميعها

(١) نفس المرجع ص ٤٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٨٤ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٩٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٧٧ .

فطالبوا أربابها بالأجرة عنها عن شهرين ، وانفرد (مجد الدين بن الأثير) باستيفاء ما قرر على الناس فأغلقت الاسواق واختفى أكثر العالم ، وطولب النساء بما قرر على رجالهن ولم يتخلص من هذا أحد حتى العلويين والقضاة المدول استوفى منهم بالقهر والمضايقة^(١) . وفي مصر كان (قطز) وغيره من المالك يضطرون إلى جمع المال فيفرضون الضرائب الجديدة على غير سند ، فكانوا يجبرون علماء الدين على الافتاء بصحة هذه الضرائب وشرعيتها . هكذا كان الحكام يرهقون الشعب في جمع المال بالمسف والقوة والعنف دون مراعاة لضعف حاله ، وقلة ماله ، وندرة غذائه . وكانت هذه الاموال تكنز وتصرف على ملذات الأمرء ومجالس لهوهم وبناء قصورهم الشاغخة وشراء الخيل والعبيد والحلي والمجوهرات . وايقع للشعب ما يقع فلن يضيرهم أي شيء ما داموا رافلين في نعيم مقيم ولهذا كانت هناك طبقتان من الناس : طبقة الأغنياء الثرين وهم قلة ، ويعملون أموالاً طائلة ويعيشون في حياة أشبه بالأحلام ، وطبقة الفقراء المعدمين وهم الأغلبية الساحقة ، ويمشون في فقر مدقع وبؤس عظيم ، فمنهم من يضطرون إلى بيع فلذات أكبادهم دفماً لعائلة الجوع والفاقة . ومن أولئك الاغنياء من يموت فيخلف الآلاف المؤلفة من الذهب والمجوهرات والخيل والعبيد فالامير (سلار المصري) خلف بمعد موته ثمانمائة ألف دينار عدا المجوهرات والحلي والخيل والسلاح^(٢) .

وتحسنت الحالة الاقتصادية في السنوات الأخيرة ، نوعاً ما ، وإن كان هذا التحسن بسيطاً ، وخصوصاً في الأيام الأولى لحكم السلطان (غازان) . فقد جاء العراق سنة (٥٦٩٦) وشمل الناس بالعدل والاحسان ولم يتعرض أحد لما جرت عليه العادة من رعي الزروع وغير ذلك وأمر للعلويين بمال كثير

(١) نفس المرجع ص ٣٩٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠ .

في النجف و كربلاء وغيرها^(١) . وفي سنة (٦٩٨ هـ) أمر أن يصفى الذهب والفضة من الغش ويبالغ في ذلك ، وأن تضرب الدراهم والدنانير بمساوية الوزن ليتعامل بها الناس عدداً . وأمر أن يعمل ذلك في جميع الممالك^(٢) . وبدأت الاصلاحات العمرانية تأخذ طريقها أيضاً . فأعيد بناء أكثر المهارات التي هدمت عند هجوم التتار . وبنيت كذلك عمائر جديدة كالأربطة والمدارس والجوامع والمساجد والمآذن وغيرها . فهدأ الناس بعض الهدوء والتفتوا إلى الزراعة واهتموا بالعمارة بعض الاهتمام . وأما التجارة فقد ازدادت حركتها شيئاً فشيئاً ، خصوصاً أن المغول يهتمون بالتجارة ، ويحافظون على الطرق التجارية ، ويرسلون الجنود لحراسة القوافل التجارية . فقد كانوا منذ أيام (جنكيزخان) يحترمون النظم الاقتصادية ويسمعون إلى توطيد العلاقات التجارية مع جيرانهم . وحرص (جنكيزخان) على حراسة القوافل التي تسير عبر بلاده ، واستمرار هذه العلاقات التجارية بينه وبين جيرانه . وأكبر دليل على هذا تلك المعاهدة التجارية التي قامت بينه وبين (علاء الدين خوارزم شاه) والتي لم يحترمها الخوارزميون فغضب جنكيزخان^(٣) . وقد سهل حكمهم اتصال شرق آسيا بغيرها تجارياً فصار التجار يتجولون في طول آسيا وعرضها يبيعون ويشتررون .

ولابد من الاشارة هنا إلى أن الحياة الاقتصادية في مصر كانت أحسن منها في أي بلد آخر ، وبخاصة في أيام (الملك الناصر محمد بن قلاوون) ، فقد نعمت البلاد برخاء اقتصادي ، وكانت الخزانة مלאى بأكداس مكدسة من المال وهذا مما تأخذه الحكومة من : الخراج وضرائب استخراج المعادن

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٩٨

(٣) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي ص ٢٥٨

والزكاة والتزكات الحشرية وضريبة الجوالي والمكوس^(١) . وما دامت هذه الضرائب تعود على الخزانة بمال وفير إذا فلا بد من وجود رفاة اقتصادي نوعاً ما ، وكانت خزائن أسراء الممالك غاصة بالأموال حتى صارت حياتهم الخاصة والعامة حافلة بكثير من ألوان البذخ والترف والنعيم ، يظهر ذلك من عنايتهم بالصيد والسباق والرماية وتربية الخيل والموسيقى والغناء ، ومن فرش منازلهم بأنفس الطنـافس والبسط وتزيين أبوابها وسقوفها بالعاج وتطعيم الأواني بالذهب^(٢) ، فالأمير (يسري بن عبدالله الصالحى) كان له دار عظيمة بين القصرين ، وكان عليه رواتب لجماعة من مماليكه ومواليه وخدمه ، وكان يرتب لبعضهم في اليوم سبعين رطلاً من اللحم وما يحتاج إليه من التوابل ، وسبعين عليقة . وكان ما يحتاج إليه في كل يوم لسايطه ولدوره ثلاثة آلاف رطل من اللحم وثلاثة آلاف عليقة^(٣) .

فحالة مصر الاقتصادية في ذلك العصر حسنة بدليل الانتماش الذي شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة فقد اهتم معظم سلاطينهم بالزراعة فعنوا بأمر مقاييس النيل ، وأمروا بإنشاء الجسور في كافة أنحاء البلاد^(٤) وارتقت كذلك بعض الصناعات في مصر وأصبحت لها شهرة عظيمة كصناعة النسيج من أقمشة وفرش وبسط . وازدهرت حركة التجارة فقد كانت تمر بمصر تجارة الهند إلى الغرب وبذلك تحسنت تجارتها وراجت أسواق صناعاتها وزادت ثروتها وصار التجار يقصدونها من جميع أنحاء العالم .

* * *

وكان الصني من هؤلاء التجار الذين قصدوا مصر ، فقد جاء إليها مرتين ، وبقي فيها زمناً غير قصير وهو تاجر ذو ثروة عظيمة كان يجوب البلاد المختلفة للتجارة .

(١) تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٢٢

(٢) تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٣٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٦ .

(٤) تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٣١ .

٥ - الحياة العلمية :

ليس هناك أدنى شك في أن الحرب أحدثت هلعاً في النفوس ، وبلبلة في الافكار ، وخملاً في العقول ، مما يجعل الحياة العقلية مضطربة إن لم تكن متدهورة . وهذا العصر الذي اصطبغ بالهول والذعر ، عصر المذابح والتدمير ، أحدث اضطراباً عنيفاً في الحياة العقلية في العالم الاسلامي كله ، فكم قتل هولاء من العلماء ، وكم أتلف من المكتبات ، وكم أحرق من الكتب ، وكم خرب من المدارس ودور العلم والجوامع ، وكم قضى على معالم المدنية والعلم والعرفان ! ولكن بالرغم من هذا كله لم يقض على الثقافة العربية الاسلامية القضاء التام . وكل ما حصل هو أن مراكز العلم انتقلت من الشرق إلى الغرب ؛ من العراق وخراسان إلى مصر والشام . فبعد أن بسط المغول نفوذهم على الأراضي الواسعة من بلاد المسلمين هاجر الكثير من العرب المسلمين إلى مصر وكان من بينهم العلماء العظام والصناع المهرة ، وكان كثير منهم يحمل معه الكتب الثمينة والمخطوطات النفيسة لكي يحافظ عليها من الحرق والغناء . وهكذا قضى على العلم والعرفان في البلاد الاسلامية التي سيطر عليها المغول . ولم يمد هناك من يشجع العلم والادب ، ويرعى العلماء والأدباء ، بل لقد قتل المغول من أهالي البلاد من كانوا نواة الحضارة الاسلامية وتركوا البلاد بين شرذمة من الأتراك لا يعرفون للحضارة طعماً^(١) .

أما مصر فقد أصبحت مركز الثقافة الاسلامية ، وكنية العلماء والادباء ، يحجون إليها من كل حدب وصوب ، لاهتمام المماليك - أو بمضهم - فيها بالعلم والأدب ورعايتهم العلماء والأدباء . وقد تكاثرت المدارس فيها وفي الشام حتى صارت تعد بالمئات ، وأهمها في القاهرة ودمشق . وأول من أنشأ

(١) الدولة الخوارزمية والمغول - حافظ حمدي ص ٢٦٦ .

المدارس في الشام السلطان (نور الدين زنكي) واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين . وتنوعت المدارس حسب أغراضها ومذاهبها ، فالتفسير والحديث ، والفقه للشافعية والحنفية ، والمالكية والحنبلية ، والطب والفلسفة والرياضيات . ونخرج في هذه المدارس الكثير من العلماء ^(١) ، فطاب العلم إذأ يجيد في المدرسة كل العلوم ؛ علوم الدين واللغة والطبيعة وغيرها . يجيد كل ذلك في المدرسة ويحصل عليه بسهولة ودون أيّ عناء ، لأن الأساتذة في المدرسة منصرفون إلى العلم والتعليم ، والطلبة منكبون على الدرس والتحصيل وحتى وسائل العيش كانت مكفولة للطلاب والأستاذ ، فكانت توقف أوقاف كثيرة للصرف على المدرسة ، وترتب للأساتذة والطلاب المرتبات الوافرة ، والجراية الدارة ، والأغذية من اللحم والحلوى والفاكهة والصابون . وكان للمدرسة أطباء وصيادلة ومكتبة ^(٢) ، وقد انسمت المكتبات واحتوت أنفس الكتب ، واقتنى السلاطين وغيرهم الكثير من الكتب المفيدة ، فأصبح من السهل الحصول على الكتب ونسخها والنقل منها . وهكذا أصبح طلب العلم سهلاً ميسوراً في مصر وكثرت مراكز العلم فيها ، فصارت في القاهرة والاسكندرية والفيوم وغيرها بعد أن كانت في بغداد وبخارى ونيسابور والري ^(٣) .

وقد تحسنت الاحوال في العراق فلم تستمر كما كانت عند ما سقطت بغداد وهوت الحضارة العباسية ، فبعد أن استقر المغول في البلاد الاسلامية استطاعوا أن يتفهموا تدريجاً كنه الحضارة التي وجدوها في هذه البلاد ، فدّطام ذلك إلى العناية بالعلماء ، وخاصة بعد أن تأسست أسرة (إلبخانات

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرحي زيدان ج ٣ ص ١١٥

(٢) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٥٨

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرحي زيدان ج ٣ ص ١١٣

المغول) في فارس، إذ تطبع أفرادها بالطابع الاسلامي، وكانوا في الوقت نفسه يرتبطون باخوانهم المغول في شرقي آسيا برابطة الدم، وأدى ذلك إلى سهولة تبادل الثقافات بين شرقي آسيا وغربها^(١).

أجل، فإن الحروب والغزوات تصحبها فترات خمول في النفوس واضطراب في العقول، ولكن هذا الاضطراب والخمول لا يلبث أن يزول، إذ أن بالتقاء الشعوب نحتك الحضارات فيؤثر بعضها في بعض، تؤثر حضارة الغالب في المغلوب، وتأخذ حضارة الغالب من حضارة المغلوب. وبعد فترة صراع بين الحضارتين تفتج حضارة جديدة مطعمة من هاتين الحضارتين تحتوي على مزايا عديدة. وبعد أن استقر المغول لم يدم ذلك الخمول العقلي والركود الفكري في البلاد الاسلامية إلا فترة محدودة، إذ أن النشاط في الميدانين العلمي والأدبي لم يلبث أن عاد بمسد أن هدأت عاصفة المغول، ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية نجت اتفاقاً من أيدي المغول وخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من الدولة الخوارزمية، ثم أن المغول أخذوا يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم، ورجعوا تدريجاً في اعتناق المدنية الاسلامية والدين الاسلامي، فبرز الكثير من العلماء والادباء بفضل تشجيع المغول^(٢). (فنصير الدين الطوسي) العالم الفلكي العظيم كانوا يحترمونه ويرعونه، وأسرة (الجويني) أسبقوا عليها أكبر الفضل فكان لها نصيب السبق في نشر العلم وبرز منها أمثال (علاء الدين عطا ملك)، وكذلك (رشيد الدين) صاحب كتاب «جامع التواريخ». وهكذا انتج هذا الاختلاط بين العرب والمسلمين وبين المغول حضارة جديدة ظهر فيها طابع الحضارة الصينية، فما لا شك فيه أن المغول تأثروا بالصينيين ونقلوا الكثير من معالم حضارتهم واقتبسوا منهم الشيء الكثير مما غير طبائعهم

(١) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي من ٢٦٨ .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

الوحشية . وهكذا استطاع المسلمون - ولو بعد حين - أن يستعيدوا بعض ما فقدوا ، وأن يعيدوا بناء بعض ما هدم المغول وأن يصلحوا ما أفسدته أيديهم ، ليعيدوا حضارتهم العظيمة ، ونهضتهم المباركة ، ولكن المسكنة الأولى بين الدول الإسلامية بقيت لمصر وحدها .

ومما لا شك فيه أن اضطراب الحياة في كل مظاهرها كان يفعل فعله في الحياة الفكرية والعلمية ، فهي مرآة تنعكس عليها شتى مظاهر الحياة المختلفة . فكانت الحياة الفكرية إذاً ، بعد تلك المذابح المخيفة والممارك الدامية والدمار المبيد ، متشعبة متضاربة . نشبت فيها المناهج واختلفت الطرق ، وتناحرت فيها الآراء واصطرعت الأفكار . فالعلماء اختلفت مناهجهم وتضاربت آراؤهم وتباينت مبادئهم ، فاشتبكوا في مجادلات عنيفة ، والتحموا في معارك فكرية حامية . وامتدت هذه المنازعات إلى جميع الفرق من دينية وعلمية وسياسية ، فكان النزاع على أشده ، كل فريق يؤيد رأيه بالحجج والبراهين . ولكن أساس هذه المجادلات لم يكن الاقناع الصحيح ، ولم يكن الجدل علمياً بحثاً مبنياً على الحقيقة وطلبها ، بل كان أساسه التمسك لفكرة معينة أو التشبث برأي خاص ، لذلك فقد هذا الجدل أهم فوائده ، فإما كان يفتجح إلا العداوات والمنازعات والمشاحنات والتفرقة بين الناس ، وصاروا فرقاً وأحزاباً ، وجرم هذا إلى الدس والوقية والمؤامرة والحديمة . ولكن قد لا تخلو هذه المنازعات والمنافسات من فائدة ، فقد ساعدت على نشر العلم والمعارف بين الناس ، لأن كل جماعة تريد أن تنشر مبادئها وعلومها وآراءها ، فترغب الناس في التعليم وتساعدهم عليه ، وقد اهتموا بعمل الموسوعات الكبيرة التي تضم أشتاتاً مختلفة من العلوم والمعارف والآداب ، فهي كتب جامعة تبحث في كل شيء : (كنهاية الأرب في فنون الأدب للنويري) ، و (صبح الأعشى للقلقشندي) ، و (مسالك الأبصار للعمري) . وكانت هذه الموسوعات

أشبه بدوائر المعارف ، يجد فيها طالب العلم والأدب كل ما يحتاج إليه .
ولا جدال في أن العلوم طرأ عليها شيء من التغيير . فبعضها قد تطور
وبعضها قد توسع ، ومنها ما ضعف الاهتمام به ، ومنها ما زادت العناية به .
ومال الكثير من الناس إلى العلوم الدينية لأن الاضطراب الذي حدث والمذامح
التي وقعت في هذا العصر دعت الناس إلى الالتجاء إلى باري الخلق مبتهلين إليه
أن ينقذهم من هذه المحن ويخلصهم من هذه الكوارث ، وتقربوا إليه
بالعبادة وترتيل القرآن والاهتمام بعلوم الدين والتعمق في التصوف ، وحتى
العلوم الأخرى أخضعوها للدين ، ولكن لا شك أن هناك من خلط حقائق
الدين وأصوله بقشور لا صلة للدين بها ، وهو منها براه .

فكانت هناك علوم التصوف والتفسير والقرآن والحديث والفقه ، وقد
ألفت فيها المجموعات الضخمة ونبغ فيها الكثير من العلماء . وكان هناك علوم
اللغة ؛ من نحو وصرف وعروض وبيان وما إلى ذلك ، وقد كتبت فيها
الكتب العظيمة ونبغ فيها كثير . وهناك العلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا
وعلوم الكلام والطب والهندسة والفلسفة . . .

وكان في الحلة نهضة علمية عظيمة بدأت منذ تأسيسها واستمرت حتى عصر
الغول . وقد حملت طوال هذه العصور مشعل الحضارة إلى جانب بغداد ،
وكانت مركزاً عظيماً للثقافة العربية الاسلامية ، خاصة لعلوم الشيعة الامامية .
وظلت جذوة العلم لا تنطفئ في الحلة بالرغم من الكوارث التي مرت بالعالم
الاسلامي ، والمحن التي حلت به . وقد ساعد على هذه النهضة عوامل
عديدة أهمها :

١ - إن الأصمَاء الزيديين الذين أسسوها كانوا محبين للعلم فشحجوا العلماء
وساعدوا على انتشار العلوم والمعارف وبذلوا الاموال الطائلة لهذا الغرض ،
فأصبحت الحلة جامعة علمية يقصدها الكثيرون من أقصى البلاد لينهلوا العلم بها .

٢ - نجاة الحلة من كواوث هولاء كو ، فسلمت الثقافة ودورها ، من مدارس ومكتبات ، من دمار محتم ، واستطاعت أن تظل تتدرج في سلم الرقي والمجد فأزدهرت في زمن انهيار كثير من مراكز العالم الاسلامية كبغداد وغيرها .

٣ - استطاع الحليون أن يقتنوا المخطوطات النادرة والكتب النفيسة والموسوعات الفريدة بعد المذابح التي أوقعتها هولاء كو بأهل بغداد ، إذ كانوا يصدرون الأطعمة إلى بغداد ويبيعونها بأثمان باهظة يشترى بها هذه الكتب ويدرسونها ، فساعدتهم كثيراً على الاطلاع على آخر ما وصل إليه العلماء من علوم وعرفان وصناعات .

٤ - سهولة اتصال الحلة ، منذ تأسيسها ، بمرأ كز العلم الأخرى بطريق الفرات - كالبصرة وغيرها - وعن طريق البر - كبغداد والنجف - فكانت تزود منها بالعلم وتبادل معها العلماء والكتب ، وكانت بينها وبين تلك المدن منافسة شديدة .

كانت هذه النهضة مزدهرة أعظم ازدهار ، وظلت ترقى في زمن المغول في شتى العلوم ، فكانت لعلوم الدين مكان مرموق واهتمام عظيم من تفسير وحديث وأصول وفقه ، وبخاصة فقه الشيعة . وكان لعلوم اللغة أيضاً منزلة عظيمة من نحو وصرف وعروض وبيان . وكان هناك اهتمام بالتاريخ وأيام العرب وأخبارهم وحروبهم ، وبالعلوم الطبيعية والفلسفية وغيرها .

وكان العلماء الذين نبغوا في هذه العلوم كثيرون ، فازدهر القرن السابع بعلماء الامامية ومؤلفي علم الكلام وغيرهم ، منهم : (الحسن بن معالي الباقلاني) وكان من أئمة العربية ، و (ابن بطريق الأسدي) وكان من المتكلمين وله مصنغات كثيرة ، و (ابن نما الربيعي) شيخ فقهاء عصره ، و (رضي الدين ابن طاووس) زعيم آل طاووس أهل العلم والتقى ، و (أبو القاسم المحقق) الذي حاز من المكانة العلمية ما لم يحزه غيره . وغيرهم كثيرون . وفي القرن الثامن نبغ منهم : (تقي الدين بن داوود) العالم النحوي المحقق الكبير ،

و (تاج الدين بن معيه الديباجي) العالم الفاضل الفقيه الحاسب ، و (العلامة الحلي جمال الدين أبو منصور) الذي طار صيته في الآفاق وأكبر علماء الامامية ، ومنهم شاعرنا (صفي الدين الحلي) الذي تأثر بهذه النهضة المباركة .



وكان في (ماردين) نهضة علمية أيضاً حين دخلها الصفي ، فمع أنها ذات حضارة عريقة إذ تقلبت على حكمها أمم مختلفة من فرس وروم وعرب وأتراك ، أبت كل أمة كثيراً من معالم حضارتها فيها . فقد كانت ملوكها كذلك يشجعون العلم ويرعون العلماء منذ القديم : (كأحمد بن مروان) وغيره . وأنشأوا فيها المدارس الكثيرة والجوامع العظيمة . ولم يدخر الأرتقيون جهداً لتشجيع العلم فرعوا العلماء وأنشأوا المدارس والمكتبات ، إذ أنشأ (حسام الدين تيمور طاش) المدرسة الحسامية ، وقد دفن فيها لحبه للعلم ، وكذلك كان (الملك المنصور) الذي عاصره صفي الدين الحلي محباً للعلم مشجعاً للعلماء بكرمهم ويعلي قدرهم ، يهتم بالمدارس والمكتبات ، وقد أكرم الصفي وأعلى من منزلته لعلمه وفضله . وكان ابنه (الملك الصالح) يترسم خطاه فكان يجالس العلماء ويقربهم إليه ، ويقضي لهم حاجاتهم فلقى منه الصفي ما لقي من أبيه من تشجيع وتقدير .

٦ - الحياة الادبية :

إذا كان العلم قد استطاع أن يجد مبعثاً له في محنته التي أصابته في هذا العصر ، فخافظ على شيء من مستواه وأبعد عنه القضاء المحتم الذي كاد يفنيه عند هجمات المغول على العالم الاسلامي ، ووجد بعض العوامل التي حفظته وصانته ، فان الأدب لم يتهدأ له مثل ذلك ، فقد انتهى عصر عشاق الأدب

من أمراء وخلفاء وغيرهم ممن كانوا يطلبون العلم ويتلذذون بسماع الشعر
ويطربون له ، وكثيراً ما ينظمون الأشعار . وبينما كان الشاعر والأديب
يشتهر بقصيدة أو حكاية واحدة أصبح السلاطين المغول اليوم يهتمون بتدوين
حسابات دولتهم ، وخط المخرج والدخل ، وتدريب الجند . وقد اهتموا
بالطب لحفظ الأبدان ، والأمزجة ، والنجوم لاختيار الأوقات^(١) . وكذلك
كان الاهتمام بالعلوم الدينية لالتجاء الناس إلى الله هرباً مما حل بهم من محن
وكوارث ، طارقت هذه العلوم واستطاعت أن تحافظ على مستواها - وإن لم
يكن ذلك المستوى الرفيع الذي نمتت به في أيام العباسيين - إذاً فلا مرمي ما
كان الاهتمام بالعلوم ، أما الأدب فلم يكن هناك من يهتم به ، ولم يكن
هناك من يرعى المشتغلين به ، وكيف يرعى الحكام الأدب والأدباء وهم
لا يعرفون العربية ؟ فمعظمهم أتراك يتكلمون التركية ويلوون أسفتهم بالعربية
فلا يستطيعون أن يلفظوا بعض ألفاظها .

وهكذا أصاب الأدب خمول وركود ، وطفى على القرائح ضعف ومهود ،
وسيطر على الأذهان عجز وخمود ، واستولى على النفوس رعب وجود . فلم
تعد دولة الأدب تلك الدولة العظيمة ، ولم يعد للشعر ذلك الميدان الواسع وتلك
الثروة الكبيرة . ولم تعد نجد من الشعراء ذلك العدد الضخم الذي تعرفه في
العصور السابقة . وإن وجد عدد منهم فلم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة التي
كانوا يستطيعون بها أن يفعلوا ما يشاؤون لأن كلمتهم مسموعة عند الخليفة
نفسه . ولم تعد تجرى عليهم تلك المعطاهات السخية والأموال الوفيرة ، التي
تقنيهم عن أي عمل للحصول على المال وتوفر لهم أكثر القوت - وبخاصة بعد
أن أوجد لهم الخليفة الناصر (ديون شعراء الديوان) ورتب لهم المرتبات
الدائمة - في حين أن شعراء اليوم لا يجدون حتى لقمة يسدون بها رمقهم إذا
اتكلوا على الشعر وحده ولم يشتغلوا بعمل آخر . اللهم إلا في مصر التي كانت

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان ج ٣ ص ١١٦

أحسن حالاً وأوفر حظاً من الأقطار العربية الأخرى ، إذ كان المالك يقربون الشعراء ويرعون الأدباء ويمنون بالشعر لكنهم صرفوم إلى التأليف في الآداب والعلوم ، وآثروا على شعرهم أناشيد الزجالين ، لأن عجزهم عن فهم العربية الفصحى حبب اليهم الزجل فأثابوا أصحابه فكثرت القول فيه وانتشر ، وصار الناس يتغنون به دون الفصحى . وكثر القول أيضاً في الموشحات لقربها إلى العامية وسهولتها على العامة .

وفي هذا العصر تولد أيضاً ضرب من الشعر اقتضاه فساد الفصحى لكثرة الأطاغم فتولدت طبقة من الشعراء المستمجة كانوا ينظمون أغراض الشعر المعروفة بليغتهم التي تخلو من الأعراب وتحتوي على كثير من الألفاظ العامية . يبتدي الشاعر في هذه القصائد بذكر اسمه ثم يستطرد إلى النسب والموضوع الذي يريد النظم فيه . وأهل المغرب يسمون هذه القصائد (الأصبغيات) نسبة إلى الأصمعي الراوية ، وأهل الشرق يسمونها (الشعر البدوي) . وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة ويسمون الغناء به (الحوراني) نسبة إلى حوران من أطراف العراق^(١) . وجدت أيضاً فنون أخرى من الشعر العامي غير (الزجل) (كالموالي) و (القوما) و (الكنان وكان) . وقد نشأت في بغداد وانتقلت إلى غيرها من البلدان خصوصاً مصر . وقد نظم صفي الدين في كل هذه الفنون الشعرية وألف كتاباً خاصاً بها سماه (العاقل الحالي والرخص الغالي في الأزجال والموالي) درس فيه فنونه وأنواعه .



ولما كان الشعر مرآة الحياة ، تنعكس عليه مظاهرها المختلفة ، فقد ظهر فيه الانحطاط الذي دب في كل مظاهر هذا العصر ، فبان الضعف فيه ، بل خرم من عليائه إلى الحضيض ، وفقد جماله ورواه وصار كالشجرة التي أظفها

(١) مقدمة ابني خلدون ص ٥١٩

الخريف حين تساقطت أوراقها الزاهية فصارت مجموعة عيدان جرداء . وفقد ذلك الروح القوي وتلك الحيوية المتدفقة ، وصار جسداً لا حياة فيه لا يهز قلباً ولا يحرك عاطفة ، فهو ليس صادراً عن طبع شمري وصدق عاطفي ، وينلب عليه التكلف والنمحل ويصطبغ بال صنعة والتقليد ، فالقصيدة عبارة عن ألفاظ مرصوفة وكلمات مرصوفة ، فلا عاطفة ولا وجدان ، ولا موسيقى ولا أي ميزة من ميزات الشعر . فكان الشعر يقال للصناعة لا لغيرها فالتجنيس والطباق والمجازات الغريبة والاستعارات المعجبية ، والأبيات الممجدة أو المهمة ، والشعر الذي يقرأ طرداً وعكساً وغير ذلك من الصناعات التي لا تحظر على بال . وكان لصفي الدين وأضرابه السهم الأوفر في مثل هذه الصناعات بمختلف أنواعها ، وكان هم الشعراء في هذا العصر التقليدي ، فكانوا يقلدون الشعراء القدامى فكثرت المعارضات للقصائد المشهورة وكثر التحميس والتشطير والتضمين والاقتباس وسرقة المعاني وما شا كل ذلك .

وأما أغراض الشعر في هذا العصر فهي نفس الأغراض المعروفة في الشعر العربي . إلا أن هناك بعض أغراض زاد الاهتمام بها والاكثر من النظم فيها ، فالمجون زاد زيادة كبيرة للضعف الأخلاقي الذي زاد في المجتمع ، والانحطاط العام الذي طغى على الحياة . فكان الشعر الماجن الخليع الذي أوغل الشعراء به في الخلاعة ، وأسرفوا في وصف الأخبار الفاحشة ، وتفنتوا في استعمال الألفاظ البذيئة التي تقشعر لها الأبدان . وكثر الغزل بالذكر وكان يمجج الدوق ويأباه الطبع السليم . وإلى جانب هذا الشعر كان شعر الزهد والتصوف فهناك طبقة مالت إلى التعمد وفزعت إلى الله تشكو اليه ليدفع عنها الكرب ويرفع البلاء العظيم وكانت وسيلتها التنسك والزهد والمباداة فكثير شعر التصوف الذي يعبى به هؤلاء عما يحسون به ويفكرون فيه . وكثير كذلك مدح الرسول وآل البيت وأغنى الشعراء في ذكر القصص التي دعتهم إلى نظم هذه القصائد . واخترع صفي الدين (البديعية) في مدح الرسول . وبجانب ذلك

كانت الأغراض المعروفة من مدح وهجاء وغزل ورناء ونحوه وحماسة ...
وأما المعاني فكانت سطحية أكثرها قديم مسروق من معاني الشعراء
المتقدمين . فحول القرائح قطع عليهم الابتكار والتجديد في المعاني ، فكانوا
ينقبون عن شعر من سبقهم فإذا وقعوا على معنى طريف تزاخروا عليه يقلدونه
فيأتي تقليدهم مسحاً مشوهاً لا روح فيه . ولما كانوا يتعجبون أنفسهم في
الصناعة البديعية ، كانت معانيهم تخدم تلك الصناعة .

وأما الألفاظ فكانت في منتهى الضعف والركاكة ، فأصبح الشعر غاية
في الاسفاف ، وكثر فيه اللفظ العامي والشبيه بالعامي ، فلم يعد اللفظ يعبر
عن المعاني التي يحسها الشاعر وإنما يكمل الصناعة أيضاً .

هكذا كان حال الشعر في هذا العصر ، لكن ... يجب أن لا ننسى أن
جذوته لم تنطفي بل ظل بصيص منها متقدماً لينقل الروح الشعري إلى أجيال
تادمة تقوم بالنهضة الأدبية الشعرية كما يجب . فلا يمكن أن يضيع أدب أمة
لها ما للأمة العربية من تراث خالد ، ولها ماضٍ حافل بمئات الأطوار الشائخة
من الأدباء والشعراء . فكان في كل بلد عدد ضئيل من الشعراء المجيدين
الذين كانوا هم الشعلة التي أضاءت والنور الذي سطع في عالم الأدب والشعر .
وكان من هؤلاء شاعرنا (صفي الدين) الذي ظل في شعره شيء من فصاحة
اللغة ورشاقة الأسلوب وجمال المعنى وحلاوة التعبير .

ولم يكن النثر بأحسن حالاً من الشعر ، فكلاهما دب في الضعف ونخره
الفساد ، وكلاهما رزى بما جملة ينوء بأثقال جسام وكلاهما عديم فرسانه
المجلىين . وربما كان النثر أوفر حظاً من الشعر من حيث كثرة المتطفلين الذين
داسوا حرمة وأهانوا كرامته فدنسوا أنوفهم فيما ليس لهم فيه ناقة ولا جمل .
صحيح إن الذين تطفلوا على الشعر - وهو منهم براء - كثيرون ولكن الذين
تطفلوا على النثر أكثر ، فقد اقتحم ميدانه كل من هب ودب لسهولته
وخلوه من شروط الوزن والقافية وغيرها مما يشترط في الشعر . وخر من عليائه

ذلك النثر الجميل الذي كان يفخر به الكتاب ، كمبدئ الحميد الكاتب وابن المقفع... حتى القاضي الفاضل ، وجاء مكانه كلام أشبه باللفظ ، تختلط فيه المعجزة والوطانة ويمتاز بالركاكة والتفكك ويمتلي صناعة بديمية ، ولا يكاد يخلو من السجع الذي يريد كاتبوه أن يحلوه به أو يقربوه من الشعر . وكان محشواً بأبيات الشعر للاستعانة بها على تجميل الأسلوب ، دون جدوى . وكانت أنواع النثر هي : إنشاء الترميم ، وإنشاء المصنفين ، والخطابة . والجميع سواء في التدهور والضعف والأخطا .

وكان في (الحلة) نهضة أدبية امتدت جذورها منذ تأسيسها ، وساعد على ازدهارها عوامل عديدة منها :

(أولاً) أن الأسماء الزيديين الذين أسسوها كانوا يحبون الأدب ويكرمون الأدباء والشعراء ويمجزلون لهم العطاء ، وقد شاركوا مشاركة فعلية في النهضة الأدبية فكان الكثير منهم شعراء وأدباء . وكانوا يعقدون النوادي الأدبية ، ويستمعون إلى قصائد الشعراء وينقدون ما يستحق النقد . (ثانياً) إن بيئة الحلة عربية خالصة لأنها قريبة من البادية موطن الفصحى الأولى ، ولأن الزيديين عرب أقحاح فهم من بني أسد .

(ثالثاً) لأن الحلة تمتاز بجمال مناظرها الخلابة ، وسحر طبيعتها الفاتنة ، وهذا مما ينشط القرائح ويرهف الاحساس ويمعمق الشعور ويدفع الانسان دفعا إلى التعبير عما يحس بشعر رقيق جميل .

وقد ساءت هذه النهضة الأدبية حين نجت الحلة في هجمات المغول من الدمار والحرب فظلت النهضة سائرة في طريق التقدم والرقى ، وظلت شملة الأدب ساطعة تكشف الظلام . وقد شملت النهضة هذه كل فنون الأدب وأنواعه . وكان هناك كثير من الادباء والشعراء وعلى رأسهم صفي الدين ،

فقد ولد بهذه البيعة المعبدة بمطر الأدب الزكي ، فنبغ في الشعر وصار شاعر
عصره على الاطلاق .

• • •

وفي (ماردين) كان الملوك يعملون للنهوض بالأدب ، فكانوا يرمون
الادباء ويشجعون الشعراء ويمجزون لهم العطاء ويقربونهم اليهم . كما فعل ذلك
الملك المنصور مع صفي الدين ، إذ آواه وأكرم وقادته وأحسن ضيافته . وكان
الملك الصالح ابنه يجالس الأُدباء والشعراء ويحفظ الشعر وينقده ، وله ذوق
في اختيار أجود الشعر وقد سار مع الصفي سيرة أبيه فكان يجله ويقره .



الباب الأول

سيرته من شهره

لئن نلت حدى صروف النوائب فقد أخلصت سبكي بنار التجارب
وفي الأدب الباقي الذي قد وهبني جزاء ، من الأموال ، عن كل ذاهب
هكم ضاية أدرسعتها غير جاهد وكم رتبة قد تتها غير طالب

1871

Handwritten Title

The first part of the book is devoted to the history of the country from the time of the first settlement to the present day. It is a very interesting and valuable work, and one which every student of the history of the country should read.

الفصل الأول

حياته

سأظل كل صبيحة في مهمه وأبيت كل عشية في منزل
وأسير فرداً في البلاد وانني من حشد جيش عزائمي في جفيل
أجفو النيار فأت ركبت وضمني سرج المظلم قلت : هذا منزلي

١ - نسبه ومولده ونشأته :

صفي الدين سنبسي طائي ، وطبي قبيلة عربية تنتهي إلى قحطان في اليمن ،
فقد كانت تنزل الجوف من أرض اليمن وهاجرت بعد خروج الأزد عند سيل
العرم . وساروا إلى الحجاز واستوطنوا الجبلين ، وكان رئيسهم يومذاك
(أسامة بن لؤي بن العوث بن طيء) . وقيل بل هاجر طيء نفسه عند سيل
العرم ومعه أهله وسار حتى دخل أرض الحجاز ، وظل يوغل فيها حتى
استوطن الجبلين ، إذ نزلوا (فيد) و (سميراء) بجوار بني أسد ، ثم غلبهم
علي (أجأ) و (سلمى) ، وهما جبلان ، فاستقروا بهما ^(١) . ثم اتسعت طيء
وكثرت كثرة عظيمة وانتشرت في البلاد . وكانت لها موافق عظيمة في
الفتوح الاسلامية في الشام والعراق ، لذلك تفرقت شاماً وعراقاً وحجازاً .
وفي الحرب بين الامام علي (ع) ومعاوية كانت كثرتهم مع علي
- كثير منهم أنصار معتدلون وقليل منهم شيعة متعصبون - وكانت
قلتهم مع معاوية . . . ثم كان قسم منهم مع الخوارج فيما بعد . إذاً كان

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ .

أبناء طيء منقسمين على أنفسهم في الرأي ، ويمتل ذلك كثرتهم العظيمة وهمم
تقيد أبنائهم برأي أطربهم وأنسابهم إذا كانوا يرون بينهم خلافاً في البدأ
والمقيدة . ولما جاء العباسيون واستندوا في دعوتهم إلى إعادة الخلافة إلى
آل النبي (ص) ، استمالوا الطائيين فكانوا يساعدونهم كثيراً ويدعون لهم .
ثم اعتمدوا عليهم فيما بعد في حماية الثغور .

والطائيون أبطال شجمان أشداء ، فحين جاء (زيد الخليل) إلى النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) مبعوثاً من قومه عام الوفود ، قال لعمر بن الخطاب:
أما بنو حية فلو كنا وملوك غيرنا . . . وم القادة والحماة الذاذة . فسأله عمر
ما تركت لمن بقي من طيء شيئاً ، فقال : بلى والله ، أما بنو نمل وبنو بهان
وجرم فقوارس الغدوة وطلاعو النجدة ^(١) .

والطائيون قوم كرماء يجودون بكل ما يملكون وأعز ما يملكون ،
ويكفيمهم كرمياً أن منهم (حاتم الطائي) . وكان في طيء شعراء كثيرون ،
وفي كتاب الحماسة لأبي تمام أسماء كثيرة جداً منهم . ويكفي أن يكون منهم :
(حاتم الطائي) في الجاهلية ، و (الطرماح) في العصر الأموي ، و (أبو تمام)
و (البحثري) في عصر العباسيين .

و (سنبس) فرع من فروع طيء ، ونفذ من أنفاذها ، له ما لطيء من
نخار ومجد وعز وسؤدد ، وقد انتشر هذا الفرع في العراق كما انتشر في مصر
منهم كثيرون . وكان في سنبس شعراء منهم : (محمد السنبسي) الذي كان
شاعر الزبيديين في الحلة في أيام (الأمير دبيس) .

وصفي الدين من سنبس ، ورث عن أجداده الشجاعة والاقدام وورث
الكرم والفضل ، وورث الأدب والشعر . فليس ذلك بمجديد عليه أو غريب
عنه ، وإنما هو متأصل في أعماق نفسه لأنه عند آبائه الأولين أصيل :
وإن أشبهتهم في الفخار خلأتي وفعلني فهذا الراح من ذلك الكرم

(١) الأغاني لأبي الفرج ج ١٦ ص ٤٩

فأصني بصرح بذلك في شعره ، ويعرف أنه وارثه عن أجداده . لذلك
رأيناه لا يفخر بنفسه فحسب وإنما يفخر بنفسه وبقومه معاً :

إنما مفخري بقومي ونفمي وقتاتي وصاري وجوادي

معشر أصبحت فضائلهم في الأرض تُتلى بألسن الحساد

ويظهر لنا أن أم صني الدين طائفة سبسية أيضاً لأننا نجده يقول :

فكيف ولم ينسب زعيم لسبس إلى المجد إلا كان خالي أو عمي

فأدام السبسيون أممامه وأخواله فأمه وأبوه سبسيان . وليس هذا بغريب ،
فالعرب يحبون الزواج من أقرابهم ليحفظوا دمهم فقيماً دون أن يختلط
بدم أجنبي .

وقد ولد الصفي يوم الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة سبع وسبعين
وسمائه للهجرة النبوية الشريفة (٦٧٧) الموافق السادس والعشرين من (آب)
- أغسطس - سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ميلادية (١٢٢٨) . في بيت
من البيوت الكريمة في الحلة .

وهذا التاريخ هو الذي أجمع عليه كل من ترجم له وكتب عنه من المتقدمين
والتأخرين ، كجمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي في النجوم الزاهرة
والمنهل الصافي ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات وأعيان العصر ،
وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن حجر العسقلاني في الدرر
السكامة وغيرهم . إلا أن جمال الدين بن تغري بردي بنقل في كتابه المنهل
الصافي رواية أخرى عن (البرزالي) ، أنه ولد سنة ثمان وسبعين وسمائه .
ولم يذكرها غيره ، ولم يشر إليها أحد ، ولهذا لن نستطيع أن نأخذ بها ،
وورجحنا سنة سبع وسبعين وسمائه لاتفاق الآراء عليها .

واسمه عبدالعزيز بن سرايا بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي المز
ابن سرايا بن باقي بن عبدالله بن العريض السنبسي الطائي . وأما كنيته فأبو الفضل
وأما لقبه فصفي الدين ، وقد كان استعمال الألقاب شائعاً في ذلك العصر
خصوصاً ما يضاف إلى الدين كشمس الدين . ويلقب كذلك بالحلي نسبة إلى
مدينة الحلة التي أنجبته ، فكان ذلك اعترافاً بحجميل البلد عليه ، ونحراً للبلد
الذي أنجب أعظم شعراء عصره .

• • •

نشأ الصفي في مدينة الفيحاء الزاهرة ، وفي جوها العربي الصرف وطبيعتها
الساحرة ، وبين أهلها الكرام الأعداء ترعرع . وكانت نشأته نشأة مترفة ،
لأنه ابن قوم هم أكبر أعيان الحلة فربوه تربية ترف ونعيم . وكانت حياته
حياة هناء وهدوء بال وطمأنينة نفس . وكان محبوباً بين الناس ، عزيزاً بين
أقرانه ، وكثير خلانه وأصدقائه حتى رأى ذلك أمراً طبيعياً فقال :

ومن يك مثلي كامل النفس يفتدي قليلاً معاديه كثير المصاحب
وكان يلهو مع أقرانه لهو أولاد الأشراف ، فكان يخرج معهم إلى
الصيد ليمتع نفسه بنزهة بريئة أو رحلة مسلية :

فقم فقد تم لنا طيب الهنا والدهر قد من علينا بالمني
والعيش قد رقت حواشيه لنا ومسمدي شرح الشباب والمني
فهو غني موفور الغنى ، شاب مملوء حيوية وصحة ، فلم يلهو هذا اللهو
ولم لا يسري عن نفسه ؟ وإلى ذلك كله فهو يعود نفسه ، بهذه الرحلات ،
على شطف العيش وخشونة الحياة ليصبح رجلاً يمكنه أن يعتمد على نفسه
حين تقسو الظروف ، وليتدرب على مبادئ تنفعه عند خوض الماع ،
كالرمية وإصابة الهدف وركوب الخيل ومطاردة وحش الفلاة ، لأن عصره
يتطلب من الرجل أن يكون هكذا وأكثير لما اصطبغ به من الفتن والقتل
والاضطرابات . فأتقن الفروسية - وإن كان أولاد الأشراف يتعلمونها على

كل حال - وأصبح فارساً مقداماً ، وبرع في ركوب الخيل أي براعة ،
وصار يشار إليه بالبنان في الشجاعة والبطولة ، حتى كان يود أن يظل طوال
حياته لابساً الدرع والزرذ ، لباس الحرب والقتال :

ومسرودة من نسج داود نثرة كلعغ غدير مأوه غير ذائب
وأسمر مهزوز الماطف ذابل وأبيض مسنون الغارين قاضب

وعندما كبر الصفي واشتد ساعده ، واتسعت مداركه ، وغدا رجلاً يمكنه
أن يعتمد على نفسه ، بدأ يجرب حظه في معمران الحياة ويخوض غمرات
أعمالها فاشتغل بالتجارة ، وصار يجوب البلاد متنقلاً من بلد إلى بلد آخر ،
يبيع ويشترى ، يربح أو يخسر . واستفاد من هذه الرحلات في اتساع الأفق ،
وعمق التفكير ، وكثرة التجارب ، ووفرة المال ، فأقتنى الخدم والماليك ،
وملك الدور والقصور .

وتزوج صفي الدين ، إلا أنه ليس لدينا ما يوضح هذا الزواج ، كيف كان
ومتى تم ؟ ومن هي التي تزوج بها ؟ . . . أكبر الظن أن سبب ذلك محافظة
أهلها وأهله ، فهم عرب يعطون التقاليد العربية ما توجب ، ومسلمون
يحافظون على تعاليم الاسلام ، فلا يمكن أن يترك الصفي مثل هذه الأمور ،
التي تُعتبر سرّاً عائلياً ، مشاعة للجميع . ولا نعرف كذلك ما رزقه الله من
أولاد ، إلا أننا وجدناه يرثي ابناً له في سنة (٢٧٦ هـ) في قصيدة رثى بها
ابني عمه وأخاه وصديقه ومملوكه معاً :

أفي الست والعشرين أفقد ستة جبلاً غدت من عاصف الموت كالعن
فقدت ابن عمي وابن عمي وصاحبي وأكبر غلماني ، بها ، وأخي وابني
ولكن كم كان عمر هذا الولد وما اسمه ، وهل كان له أخوة وأخوات وأبن
كانوا ؟ كل هذا لا نجد ما يدل عليه أو يوضحه !

نشأ الصفي في جو شاعري ساحر ، وبيئة أدبية علمية ، فرق إحساسه ورهف شعوره ، وتهذب طبعه ، وجاشت عاطفته ، فأحب الشعر وهو صبي لم يتجاوز السابعة من عمره ، وحفظ الكثير من شعر الفحول ، كاصري القيس ، والنابغة ، وزهير ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، والمتنبي وغيرهم . وفي السنة السابعة أو بعدها بقليل قال شعراً حسناً وقد صرح بهذا في مقدمة ديوانه :

« وبمد فاني كنت قبل أن أشبّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعي الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنىً ولفظاً » (١) .
فهو ينظم الشعر ولم يزل صبيّاً لم يدرك معنى الشوق ولم يعرف دواعيه بعد . وكان يحبه حباً جماً حتى قال :

وإني لمفرى بالقوافي ونظمها ويبلغ بي حدّ المرور بليغها
وأطيب أوقاتي من الدهر ليلة تربع القوافي خاطري وأريغها
فما صرّني إلا كلام أسيفه بسمع داعٍ أو معانٍ أصوغها

وقدرني القاضي (تاج الدين بن وشاح الحلبي) الذي توفي في سنة (٥٦٩٠ هـ) بقصيدة عظيمة وكان سنه يومذاك لا يزيد على ثلاثة عشر طاماً ومطلع هذه القصيدة :

لو أفادتنا العزائم حالا لم نجد حسن العزاء محالا
كيف يولي العزم صبراً جميلاً حين وارى الترب ذاك الجمالا
ولكن شعره هذا لم يكن إلا في أغراض خاصة كالجماسة والزناء والوصف والنزل ، أما غير ذلك فهو يتعفف عنه ، ويرتفع عن النظم فيه .

٢ - في الامصار الاسلامية :

كان لأسرة الصفي الرئاسة في الحلة ، وكان خاله (صفي الدين بن حمزة بن محاسن) (صدرأ) فيها ، وكان ينافسه على هذا المنصب كثير من وجوه الناس ، فكثرت حساده وتمدد أعداء الأسرة . وحين اختل النظام واضطرب الأمن في العراق في أواخر أيام السلطان (غازان) استطاع آل أبي الفضل أن يقتلوا الصدر (صفي الدين عبدالرحمن بن حمزة بن محاسن) غدرأ بمسجده إشفاء لحسدهم .

وكان هذا العمل نازلة كبيرة حلت بآل الصفي ، وهم الأئمة الكرام الذين لا يرضون المذلة ، ويلتجئ اليهم كل خائف ، ويحمون كل طريد ، فصاروا يتحينون الفرص للإيقاع بآل أبي الفضل . وصار الصفي يترقب اليوم الذي يثار فيه ظلاله . وجعل يمرض أخواله وأقاربه على النهوض بأخذ نارهم : لا تترك النار من قوم مرادهم إخفاء ذكر لنا في الناس منتشر وظل الصفي ينفخ بوق الحرب ويضرم نار القتال ، للأخذ بالنار محرضاً أقاربه وأنسابه ، لسكنه يمج صوته ولم يجبه أحد ، حتى الدين كان معهم في أيامهم المدلهمه . فلذستمع إليه يخاطب أحد أصدقائه قائلاً :

وعدت جميلاً وأخلفته وذلك بالحر لا يجمل
وقلت بأنك لي ناصر إذا قابل الجحفل الجحفل
وكم قد نصرتك في معرك تحطم فيه القنا الدبيل
وكان أقاربه أول من أخلف الوعد فلم يقدموا له شيئاً من العون ، فيئس منهم وقال ظلاله مشيراً إلى ذلك :

قلوا لديك فأخطأوا لما دعوت فأبطأوا
وتبرعوا حتى تصول فحين صلت تبرأوا

دعهم فا كل الأشدة للشدائد نخبأ
فلديك منا فتية عن نأرها لا تفتأ

فألصني بحرض خاله على خوض الحرب بأهله الأقربين دون الالتجاء إلى
الأنساب والأصهار ، وهو يخبره أن في أقاربه الأدينين فتية لا تترك الثأراً بدأ .
وأخيراً وقعت الواقعة إذ جاء اليوم الموعود ، وكان يوماً له ما بعده ،
فقد اشتبكوا في القتال فطحنت الحرب الفرسان طحناً ، وتحطمت السيوف
بأعضاء الرجال ، وسالت الدماء غزيرة . تلك هي (وقعة الزوراء) التي وقعت
في أرض قفراء واسعة قرب بغداد ، وعند قبر (عبید الله بن محمد بن عمر
العلوي) الذي يذكره الصفي بقوله :

وسائلي العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر (عبید الله) أيدينا
وقد خاضها الصفي فأبلى بلاءً حسناً ، وأبدى من البطولات ما يشهد بها
الأعداء قبل الأصدقاء ، وقتل من أعدائه الفرسان الشجعان . قال في ذلك :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجافينا؟
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد دنا الأعداي كما كانوا يدينونا
بضمير ما ربطناها مسومة إلا لنغزو بها من بات يغزونا
.....

ولكن الصفي بعد هذا كله أصبح مطالباً بدماء كثيرة وثأراً لا ينتهي ، فلم
يجد بدأ من الرحيل عن العراق ، فقد كثر أعداؤه وصاروا يتربصون به
الدوائر للفتك به ، وليتهم يلقونه في ساحة حرب وميدان جلال ، لكنهم
يريدون قتله غدراً كما قتلوا خاله من قبل . فاضطر إلى مغادرة وطنه سنة
(٥٧٠ هـ) إلى (ماردين) ولسان حاله يقول :

كل الذين غشوا الوقيعة قتلوا ما فاز منهم سالماً إلا أنا
ليس الفرار علي طاراً بعدما شهدوا ببأسي يوم مشتبك القنا

إن كنتُ أول من نأى عن أرضهم قد كنت يوم الروع أول من دنا
أبعدت عن أرض العراق ركائي علماً بأن الحزم نعم المقتنى

وسار الصفي في رحلة طويلة شاقة ، يقطع الفيافي والقفار ينقل من بادية إلى أخرى ، ويمر بوادي تلو الآخر ، وحيداً فريداً ليس معه إلا فرسه وسيفه وهو يصور لنا رحلته خير تصوير بقوله :

شفها السير واقتحام البوادي ونزولي في كل يوم بوادي
ومقبلي ظل المطية والتر ب فراشي وساعداها وسادي
وضجيجي ماضي المضارب غضب أصلحته القيون من عهد عاد
أبيض أخضر الحديدية مما شقّ قدماً مرائر الأجساد
وقيصي درع كأنّ عراها حبك النمل أو عيون الجراد
ونديمي لفظي وفكري أنيسي وسروري مأني وصبري زادي
ودليلي حسن التوم في البيد لبادي الأعلام والأطواد
وإذا ما هوى الظلام فكّم لي من نجوم الظلام في الليل هادي
وتنقل في هذه الرحلة من بلد إلى آخر ، ولكنه كان يحث السير ويسرع الخطى ، لأن له وجهة يقصدها ، فهو لا يقف في البلد الذي يمرّ به إلا ليستريح ويريح مطيته ويتزود بشيء من الزاد ثم يواصل السير من جديد :
جبت البلاد ولست متخذاً بها سبكناً ولم أرض الثريا موطننا
حتى أنخت (ماردين) مطيتي فهناك قال لها الزمان : لك الهنا
فهو يقصد (ماردين) ، ليحتمي بكنف الملوك الأرتقيين ، فهم معشر يشتردهم أزره ويأمن من شر الزمان :

ولكنّ لي في (ماردين) معاشرأ شددت بهم ، لما حلتُ بها ، أزري
ملوك إذا ألقى الزمان حباله جعلتهم في كل نائبة ذخري
ودخل الصفي (ماردين) فاستقبله أهلها أكرم استقبال ، وتلقاه ملكها

(المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) أعظم لقاء ، فقال بخاطبه في ذلك :
لاقيتنا ملق الكريم لضيفه وضممتنا ضم الكمي لضيفه
وجعلت ربك المؤمن كعبة هي رحلة لشتائه ولضيفه
ولنستمع إلى الصفي بصف رحلته إلى (ماردین) ودخوله إياها في مقدمة
ديوانه :

« تم جرت في العراق حروب ومحن ، وطالت خطوب وإحن ، أوجبت
بمدي عن عريني ، وهجر أهلي وخديني . فلما أحسنت إليّ مساوات الزمان ،
وأرضاني سحق الحدثان ، بحط رحالي بفناء الملوك بني الملوك ، كهف الغني
والصعلوك ، نخر الأواخر والأوائل ، ملوك ديار بكر بن وائل ، الأرتق
راتق فتق الدين ، جاري كسر الاسلام والمسلمين

فقيدتي عندهم أنعم هن قيود الأمل السامح
ووكلت فكري بمدهي لهم مكارم المنصور والصالح

فقد ثبتوا بالاحسان قدي ، وصانوا عن بني الزمان وجهي ودي ، حمدت
لقصدهم مطايا الآمال . . . « فهو يحدثنا كيف أتجه إليهم ، ويصور لنا
إكرامهم له واستقبالهم إياه أعظم استقبال ، فاطمأن في أرضهم ، وارتاح
في حمام ، وتخلص من الهموم التي كانت تملأ نفسه ، فكتب لأهله في الحلة
ساعة وصوله :

ألا بلّغ ، هديت ، سراً قومي بحلة بابل عند الورود
ألا لا تشغلوا قلباً لبمدي فاني كل يوم في مزيد
لأني قد حلت حمي ملوك ربوع عبيدهم كهف الطريد
فن يك نازلاً بحمي كليب فاني قد نزلت حمي الأسود

ولعل سؤالاً هاماً يثار هنا ، هو : لماذا اختار الصفي ماردین دون غيرها

من بلاد المسلمين ؟

تري أنوفق في الاجابة عنه ؟

لاشك أن هناك أسباباً كثيرة جعلت صني الدين يختار ماردين دار هجرة
ومحط رحال ولا يفكر في غيرها وهي :

أولاً - كانت ماردين تتمتع بحياة هادئة هدوءاً شاملاً بالنسبة إلى البلدان
العربية والأقطار الاسلامية - على الأقل - وخصوصاً في عهد الملك المنصور
الذي قال عنه صاحب (تاريخ ماردين) : « كان صاحب شوكة وسلطان ...
يرى في زمنه الشاة والذيب ، وينمى أوطانه كل غريب ، وأصبحت ماردين
به عامرة ، والأسواق كثيرة وافرة ، والأسعار رخيصة متكاثرة » (١) .
فهذا الوصف وإن كان فيه مبالغه لا تقبل إلا أنه دليل أكيد على الهدوء
والاستقرار والرفاه الذي كانت تتمتع به ماردين ، فلم لا يتجه الصني إلى هذا
البلد البعيد عن الحلة فينعم فيه بالهدوء والاستقرار والأمان ؟ .

ثانياً - كان في هذا البلد بعض بطون طيء المنتشرين في أرض الجزيرة
أيضاً ، فلم لا يقصدهم الصني ليحتسب بهم ، والعرب يحمون المستجير وإن
كان غريباً ، فما بالك بآبن عم لهم ؟ .

ثالثاً - كان بين الحلة وماردين صلات قوية وروابط متينة منذ عهد
الأسراء المزيديين ، وازدادت هذه الروابط قوة بالمصاهرة التي تمت بين
(ديس بن صدقة) أمير الحلة (ونجم الدين إيلغازي) ، إذ تزوج ديس
الأميرة (كوهرخان) ابنة إيلغازي . وكانت هناك حادثة تشبه حادثة صني
الدين ، فقد التجأ الأمير (ديس بن صدقة) إلى الملك إيلغازي عند ما دارت
عليه الدوائر في حروبه مع جيوش الخليفة العباسي (المسترشد) ولم يجد بداً
من الهرب بجلده إلى ماردين . وهكذا أعاد صني الدين نفس الدور بعد قرنين
أو أكثر من الزمان ، والتاريخ يعيد نفسه .

* * *

(١) تاريخ ماردين لعبد السلام المارديني ص ١٢٥ .

لقي صفي الدين في مارددين من الحفاوة ما لم يكن يحلم به ، فقال في ذلك :
وزرت ملوكاً كنت أسمع باسمهم فينهضني شوقي ويقعدني أمني
فلما تلاقينا وقد برح الخفا رأيت مقلتي أضعاف ما سمعت أذني
أجل ، فقد كان يسمع بهؤلاء الملوك من آل أرتق ، ويروي الأحاديث
الطوال عن كرمهم وجودهم وأخلاقهم فكان يتمنى زيارتهم ، حتى إذا اضطر
إلى ذلك ودخل حمام رأى منهم أكثر مما سمع فارتاح عندهم وهداً روعه
واطمان قلبه ، وصار يتمتع بحياة ناعمة ، فيها الهدوء والسكينة وفيها
الاحترام والاجلال ، حتى تبدل خوفه أمناً ، وجوعه شبعاً :

به تناسيت ما لاقيت من تعب ولذة الشبع تنسي شدة السغب
بادرته وعقاب الهم يطردني واليوم قد طاد كالعنقاء في الهرب
ويظهر لنا من شعر الصفي أن الأرتقيين قد رتبوا له (مرتباً) ظل يجري
عليه أمداً طويلاً ، ورأى أحد نواب (الملك الصالح) أن يقطع عن الصفي
هذا المرتب فمات به بقصيدة منها :

عذرتك حين حلت وأنت بحر لأن البحر في مددٍ وجزر
فإن أكُ قد أسأت لك التقاضي فلا يخفى على مولاي عذري
بأنني لا يني بالخرج كيمي ولست أضيع بالتقتير صمري
فالصفي برينا أنه يصرف أكثر مما يكسب من عمله في التجارة ، وقد اعتاد
هذا فأصبح طبيعة فيه . وهو لا يستطيع التقتير ، فرتب له الأرتقيون
مالاً يستعين به على قضاء حاجاته وموازنة مصروفاته .

وقد حركت هذه المعاملة الطيبة نفس الصفي ، فانبثقت عاطفته نحو الأرتقيين
وقال فيهم غرر الشعر ودرر القصيد . ولما كان قد آلى على نفسه ألا يمدح
أحداً منها يكن عظيماً ، فقد أصبح اليوم يقول إنه سيقف شعره - مديحه -
على (الملك المنصور) وابنه (الملك الصالح) ولن يمدح غيرها . وقد نظم في

مدح الملك المنصور ديوان شعر سماه (درر النحور في مدائح الملك المنصور)
وهو تسع وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء .

ويظهر أن هذا العام - ٧٠١هـ - وهو العام الذي قدم فيه الصفي إلى ماردين -
أغزر أعوامه إنتاجاً في الشعر ، فقد نظم فيه كثيراً من القصائد الطوال
والمقطوعات القصار ، إذ كانت طائفته متدفقة كالسيل المنهر . وأرسل
شعراً كثيراً إلى أهله وأقاربه وأصدقائه في الحلة وفي العراق يصف لهم حاله
ويشتاق إليهم .

وكان الملك المنصور يصحب صفي الدين في كل رحلاته ونزهاته ، ليكون
معه دائماً ، يطرب سمعه بأغانيه المذبة ويطرفه بنوادره الظريفة ، وكان
يصحبه كذلك في حروبه لينشد أشعاره الحماسية يلهب بها عاطفة الجنود
ويشجهم على القتال ، ويصف المعركة بعد أن يتم النصر فيخلده بشعر رائع
رصين ؛ فحين ذهب المنصور على رأس جيش لفتح قلعة أربل سنة (٧٠٢هـ)
كان الصفي معه ، وبعد أن تم فتحها أنشد الصفي قصيدته التي مطلعها :

لا تخش يا ربع الحبيب همودا فلقد قد أخذت على المهاد همودا
وكان شعره يلاقي بالاعجاب والاكرام ، فيسري على الألسنة ، ويصبح
مله الأسماع ، وينشده القاصي والداني ، فأصبحت له شهرة عظيمة وذاع
اسمه في البلدان ، وطار صيته في الآفاق ، وصار الملوك يخطبون وده ويطلبون
صداقته ، ويتمنون مديحه ليخلد ذكركم بقصيده الخالد العظيم . فإذا ما جاءهم
أكرموه وأدنوه إليهم حتى يصبح واحداً منهم ، فيعيش عزيز الجانب كبير
المنزلة :

إذا وافيت يوماً ربع ملك لي المربع فيه والصفابا
تلاحظني الملوك بعين عتر وتكرمني وتحسن بي الوصايا
أجاورهم كأنني بين أهلي وكل من صراتهم سرايا
ولم يكن احتفاء الناس به وإكرامهم له بأقل من احتفاء الملوك وإكرامهم ،

فقد أحسنوا تقديره وزادوا في إعترازه ، فكان يرى نفسه وكأنه بين أهله وإخوانه ، تخفف ذلك عليه ألم الفراق ، وأنساه الهموم السابقة والمحن الماضية . ولسكنه كان يحنُّ إلى وطنه بين الحين والحين ، فلا يمكن أن ينسى ذلك الوطن الذي ولد فيه وترعرع ، ورباه على الترف والنعيم والعز والفخار ، فكان يرسل الزفرات الحارة والنفثات المؤلمة والأنات المؤثرة :

فارت زوراء العراق وإن لي قلباً أظم بربعه المألوف
فلا تئين عن العراق أعنتي وأطيل في تلك الديار وقوفي
فيها بدور في خلال مضارب وشموس دجن من وراء سجوف
.....

وكان للسني - بطبيعة الحال - بيت في ماردين ، وقد وصف هذا البيت بقصيدة يدعوها أحد أصحابه لزيارته في البيت قائلاً :

ونحن بمنزل لا نقص فيه رحيب الربع مرتفع البناء
وفي داري بخاري وخيش أعداء للمصيف وللشتاء
فهذا فيه (شاذروان) نار وهذا فيه (شاذروان) ماء
.....

فهذه الدار من الدور الفخمة التي يسكنها الأمراء والأعيان ، فهي مرتفعة البناء شاهقة العلو ، وهي كاملة من جميع الوجوه ، فيها كل ما يحتاج إليه المرء من حاجات ووسائل ، وهي معدة إعداداً خاصاً بحيث تلائم جميع الفصول ، فلصيف مكان فيه ما يلطف الجو ويبرد الهواء ويكسر من حدة الحر من نافورات مائية وأحواض وما شاكلها . وللشتاء مكان فيه ما يساعد على التدفئة وطرد البرد ومنع الرياح القارسة من التغلغل في المسكان ، ففيه مواقد نارية وشبايبك زجاجية تمنع الهواء والبرد وتدخل أشعة الشمس

الدافئة ، ولا بد أن يكون مثل هذا البيت مفروشاً بأغلى الطنافس ومؤثناً بأحسن الأثاث .

وقد وصف الصفي بيته هذا في قصيدة أخرى بنفس هذه الصفات وكان يستدعي صديقاً آخر لزيارته في بيته ومطلع هذه القصيدة :

فزرنا إن مجلسنا أنيق يكاد يعيد منظره الشبابا

يقابله بخاري تلظى فتحسب حر آب منه آبا

له تاج يريك النار تجلي ونظر للدخان بها احتجابا

هذا هو البيت الذي كان يعيش فيه صفي الدين في ماردين .

وحين هدا الصفي وذهب خوفه لم يجد بدأ من العمل لكسب قوته ، فهو لا يرضى أن يعيش طالة على غيره ، ونفسه الأبية تأنف أن يكتفي بما يصل إليه من مال من الملوك والأمرء ، قلّ أو كثر ، فلا بد إذاً من العمل . ورأى أن يعود إلى عمله المحبب ، وهو التجارة ، فعاد بحبوب الأقطار ويرحل إلى البلدان المختلفة وينقل البضائع من مكان إلى مكان ، فتمت ثروته وأصبح ذا غنى وفير . وقد داعبه مرة الملك الصالح بأنه يجب جمع المال لكونه تاجراً وجمع المال من طبائع التجار فأجابه شعراً :

مملوكك اليوم أبو حبة مجتهد في خسة النفس

يزاحم الحمال في قوته ويجمع الفلوس على الفلوس

وقد أثرت التجارة في نفسه وتفكيره ، وصار يفكر كما يفكر التاجر عند عقد صفقة تجارية ، يزن الأمر بيمينان دقيق مقارناً بين الربح والخسارة ، وأكثر الربح وأقل الخسارة . استمع إليه يقول :

تقول لي العمياء إذ زرت ربمه رويدك كم في الارض تشق وتكدح؟

إذا كنت ترضى أن تعد بتاجر هلم ففيه تاجر المدح يربح

وقد علمته التجارة أن يفتهم الفرص التي تواتيه ، فهي لن تعود ثانية :

فانتهاز فرصة الزمان فليس المرء من جور صرفه في أمان

وكان كثير التردد على (حماة) لانهصاله بصاحبها (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل أيوب) ، وقد كان يكرمه ويمزه وبجمله ، ويقدم له الكثير من الهدايا والتحف . وكان الصفي يشكره على إنعامه لكنه لا يمدحه كمدحه للأرتقيين . أهدى إليه مرة تحفاً كثيرة ، وقدم له كسوات البيت ومهامه فشكره بقصيدة مطلعها .

جزاك الله عن حسنائك خيراً وكان لك المهيمن خير راعي
وعند وفاة (الملك المؤيد) كان الصفي في حماة ، فحضر موته وورثه
بقصيدة نحتاً نونية ابن زيدون المشهورة :

كان الزمان بليقياً كم يميننا وحادث الدهر بالتفريق يثنيها
فعندما صدقت فيكم أمانينا «أضحى التناهي بديلاً من تدانينا»
« وناب عن طيب لقيانا نجافينا »

وتقلد السلطة بعد (الملك المؤيد) ابنه (الأفضل) ، فهنأه الصفي بقصيدة عصاه :
طانده في الحب أعوانه وخانه في الود إخوانه
وقد سلك الأفضل سلوك أبيه في احترام الصفي وإكرامه وإرسال الهدايا
إليه . أرسل إليه مرة تحفاً وهدايا إلى (ماردين) فشكره الصفي بقصيدة
أرسلها إليه وأهداه معها مملوكاً تركياً وقاشاً من نسج (ماردين) .

وقد استطاع صفي الدين أخيراً أن يدخل العراق ، ولكن يظهر أن
دخوله العراق لم يشمل الحلة ، فلم يدخلها ، وقد كان حذراً كل الحذر ، فهو
لا يمكث في العراق طويلاً إذ سرعان ما يغادره إلى (ماردين) أو غيرها خوفاً
من الأعداء المتربصين له . وبالرغم من قصر الوقت الذي كان يمضيه في العراق

كان يرسل إلى الملوك الأرتقيين القصائد الحسان من إهناك . فهذه قصيدة أرسلها إلى (الملك الصالح) بمدحه فيها :

ما بين سيفك والجفون مواعد فيفي إذا خبرت أني راقد
وفي إحدى زيارات الصفي بغداد جاءها (الملك المنصور) ، وكاد الصفي بطير
فرحاً ومدحه بقصيدة بدأها بقوله :

كيف الضلال وصبح وجهك مشرق وشذاك في الأكوان مسك يعبق
وتشاء الظروف أن يموت (الملك المنصور) في (ماردين) سنة (٧١٢ هـ) بينما
الصفي في بغداد ، فإكاد يسمع نعيه حتى أسرع إلى (ماردين) لحضور
العزاء ، وقد أعد قصيدة عصاه يرثيه بها مطلعها :

يا بدوراً نضي تحت التراب وجبالاً تمر مر السحاب
إلا أنه حين وصل (ماردين) كان العزاء قد انفض وعاد أولاد المنصور إلى
مجالس الأُنس والطرب ، فحضر الصفي أحد هذه المجالس وأنشد قصيدة بدأها
بوصف الخمر ورثي بها الملك الراحل :

أدرها بأمن لا يغبرك الوهم وزف على الحلاس ما خلف الكرم



وجاء (الملك الصالح) إفتنهج نهج أبيه في احترام صفي وإكرامه وتقديره
حق قدره ، بل لقد زاد على أبيه في ذلك ، فصار بحله أعظم إجلال وصار
الصفي يلازمه دائماً ويقضي معه النهار ومعظم الليل ، ويشاوكه في مجالس
الأُنس والشراب ، ويخرج معه إلى الصيد ، ويعتذر إليه عندما يطول عنه
غيابه . وحين يغادر الصفي (ماردين) في رحلاته التجارية يشتاق أحدها
للآخر فيرسل الصفي قصائده مبيناً هذا الشوق ومعبراً عن تلك اللمفة للقاءه .
أرسل إليه من دمشق هذه القصيدة :

أعد ، إذا طرقت مغناك ، تاجرأ فان إبت ظنونني شريكك في الملك

وهذا البيت وحده كافٍ لتصوير ما كان يتمتع به (ابن سرايا) من حب وتقدير وإجلال عند (الملك الصالح) .

وكان صفى الدين يحسن مجالسة الملوك ، فهو ابن حسب تليد ومجد أصيل ، يعرف كيف يعاشر الملوك والأمرءاء ، وكيف يقضي معهم الأوقات ، فلا يملونه ولا يضجرون منه ، لأنه يعرف كيف يتحدث إليهم فيدعومهم إلى الانصات ، ويحسن الاستماع حين يتحدثون . وهو شجيد اختيار العبارات التي تدل على احترامه لهم وإجلاله إياهم .

وقد أئزم الصفى نفسه ، مدة شهر ، حضور مجلس (الملك الصالح) ووصفه ، حين يجيم ظلام الليل ويضاء المجلس بالشموع ، قال في ليلة :

أهلاً بها كالقضب في كئبانها جعلت شواظ النار من تيجانها
شهب إذا جلت الظلام جيوشها جلبت جيوش الصبح قبل أوانها
.....

زهر حكمت خد الحبيب وإنما تحكي فؤاد الصب في خفقانها
لهبت وقد رأت الظلام ولم تكن تالله لاهية لضعف جناها
.....

وفي ليلة أخرى :

أهلاً بشهب في سماء المجلس هتكت أشمتها حجاب الهندس
زهر إذا أرخى الظلام ستوره فعلت بها كصحيفة المتلئس
هيف القدود تريك بهجة منظر أبهى لديك من الجواري الكئس
.....

* * *

وكان يحرص الملك الصالح على قتال المغول ويستنهضه لحربهم ، وهو يرى أنهم مغتصبون للبلاد الاسلامية ، وأنهم غزاة ظالمون ، لذا يجب مكافحتهم وطردهم وتخليص البلاد من شرهم :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال الملا من قدّم الحذرا

ومن أراد العلاء عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكه وطرا
.....
يا أيها الملك الباني لدولته ذكر أطوى ذكر أهل الأرض وانقشرا
كانت عداك لها دست فقد صدعت حصاة جدك ذاك الدست فانكسرا
فادفع إذا غدروا سوط العذاب بهم يظلُّ بخشاك صرفُ الدهر إن غدرا
وارعب قلوب العدى تنصر بجرهم إن النبي بفضل الرعب قد نصرا
.....

ولقد استطاع الصفي بحكم أعماله التجارية أن يزور أكثر البلاد العربية ،
فرأى لزماً عليه أن يزور (الحجاز الشريف) ، فهو مسلم شديد الإيمان
باسلامه يقـدس دينه ويحترم تعاليمه ، وهو غني موفور المال ، والاسلام
يوجب على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً . فأعد الصفي المدة
لهذا الحج سنة (٥٧٢٣) وسار ميمماً شطر الحجاز . فودع ماردين وداعاً
مؤثراً ، وودع ملكها الصالح وداعاً حاراً ، وقد تألم كثيراً لهذا الفراق
بالرغم من أنه كان يرحل كثيراً طوال العام ، فسكأنه كان يحس من أعماق
نفسه أنه سيتأخر في هذه الرحلة طويلاً ، وأن السفر سيمتد به إلى أمدير
قصير . وحين وصل (مكة) ودخل الكعبة الشريفة وقف خاشعاً لله وأنشد :
يا ربّ إني دخلت بيتك والداخل بيت الكريم في حسيبه
لا يخشني سخطه عليه ولا يحذر من مكره ولا غضبه
وحين دخل ضريح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقف فيه وأنشد طالباً
الشفاعة :

بكم يهتدي يا نبي الهدى وليّ إلى حبّكم يلتسب
به يكسب الأجر في بعته ويخلص من هول ما يكتسب
وقد أمّ نحوك مستشفعاً إلى الله مما إليه نسب

وحين إنتهى من مناسك الحج واستعد لمغادرة الأرض الطاهرة أرسل
قصيدة إلى الملك الصالح :

أني ليطربني المذول فأنتني فيظنُّ أني عن هواكم أنثني
ونلاحظ أن الصفي لم يذكر في هذه القصيدة شيئاً من مناسك الحج
وشعائره في حين أنه ذكر ذلك في القصيدة التي هنا بها قاضي القضاة (بماردين)
عند عودته من الحج سنة (٥٧٢٥) إذ قال :

فقصدت البيت الحرام فأقصيت بسهم الردى قلوب العداة
ولكم قد حرمت ، في يوم أحرمت ، لذيذ السكرى عيون البغاة
ثم لبيت منعماً حين لبيت ندا من دعائك للمكرمات
وسميت السعي الخنيف وكم قد جزت في المكرمات سمي السعاة
ورميت الجمار في كبد الأعداء لما رميت بالجرات

.....

وكأنه لم يرد أن يفخر بهذا على الملك الصالح الذي لم تكتب له حجة البيت
الحرام في ذلك العام . ونلاحظ كذلك أن الصفي لم يحدد تاريخ هذه الرحلة ،
متى بدأت ، وفي أي يوم انتهت . وليس هناك سوى ذكر العام الذي نظمت
فيه هذه القصيدة وهو (٥٧٢٣) وغادر الصفي الحجاز ، ولكنه لم يتجه
إلى العراق ولا إلى (ماردين) ولكنه يم صوب مصر .

كانت مصر منذ أقدم العصور قبلة الشعراء والأدباء ، ومقصد طلاب المال
والجاه ، فكان كثير من الشعراء يحجون إليها ويمشون في ربوعها زمناً
يطول أو يقصر ...

ففي العصر الأموي وفد إليها : (كثير عزة) ، و (جميل بتينة) و
(عبيد الله بن قيس الرقيات) .

وفي العصر العباسي الأول جاءها : (أبونواس) ، و (دعبل الخزاعي) ،

و (ابراهيم بن العباس بن الأحنف) ، و (ابن المولى) ، و (ربيعة الرقي) ،
و (أبو تمام الطائي) .

وفي العصر العباسي الثاني ورد لها : (المتفني) و (الناشيء الأكبر)
- أبو العباس محمد بن شرشير - و (الناشيء الأصغر) - أبو الفضل سوار
ابن شراعة - .

ولم يكن نصيب الحلة معدوماً في قاصدي مصر من الأدباء ، فقد أوفدت
منها بعض أجلاتهم في مختلف العصور (كراجيع الحلبي) . وفي القرن السابع
جاء إلى مصر من أدباء الحلة : (محمد بن علي بن الفضل الحلبي مذهب الدين
الطخمي) ، الذي ولد بالحلة وفيها تعلم وثقف ثم رحل إلى مصر فعمل كاتباً
بالديوان ثم مات بها . و (ابن بطريق الحلبي) وغيره .

إذاً فهناك اتصال أدبي بين الحلة ومصر قبل أن يجيء الصفي ، فليس الصفي
بداية هذا الاتصال وإنما هو إحدى حلقاته .

وحين دخل صفي الدين مصر لقيه فيها العلماء والأدباء باحترام وإكبار .
قال الصفدي : « . . . واجتمع بالقاضي فسيح الدين وبأثير الدين ومشايخ
ذلك العصر ، ولما دخلت بعده وجدتهم يثنون عليه »^(١) . وقد كان للصفي
في مصر أصدقاؤه أعزاء من الأدباء والعلماء والقضاة ورجال الدولة منهم :
(صلاح الدين الصفدي) العلامة الفاضل والأديب المؤرخ ، والشاعر المبدع
(جمال الدين بن نباتة المصري) ، وقاضي القضاة (علاء الدين بن الأثير) ،
وكان يحله ويحترمه ويحب شعره حباً عظيماً ، وهو الذي قدمه إلى السلطان
(الملك الناصر محمد بن قلاوون) .

وحين دخل الصفي إلى هذا السلطان العظيم ، وكان السلطان قد سمع بمنزلة
الصفي العظيمة عند الأرتقيين واحترامهم له ، وسمع بعلمه وأدبه وفضله ،

(١) أعيان العصر وأعيان النصر للصفدي . مخطوط ج ٣ ورقة ٣١٠

وروي شيئاً من شعره ، أكرمه وزاد في إكرامه وأجله وأعظم من إجلاله .
وهنا يدخل الصفي طوراً جديداً من حياته وحياته شعره ، فقد اضطر إلى
الحنث بأليته التي أقسم بها أن لا يمدح سوى الملك المنصور وابنه الملك الصالح ،
وها هو اليوم يرى لقاء الملك الناصر له واسباغه عليه أكبر الفضل وأوفر النعم ،
حتى استلب عاطفته واستولى على قياده فأوجب عليه مدحه . يقول في مقدمة
ديوانه : « . . . قذف بي خوف بلادي إلى الديار المصرية ، وأهملتُ للمثول
في الحضرة الشريفة المملوكية الناصرية ، وشملني من الانعام ما طأجاني به ابتداءً
ولم أملك له خيراً ، ألزمتني المروءة مكافأة تلك الحقوق ، ورأيت كفرانها
كالمعقوق ، وأن تكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين ، فنظمت
في معاليه ، ما طاب لفظه ومعانيه . . . »

فاستقبال الناصر لصفي الدين هذا الاستقبال اللائق بالأدباء الكبار والعلماء
المتأزين لا شك مما يثلج صدر الصفي ، فقد كان الناصر أعظم سلاطين المسلمين
وملوكمهم في ذلك العصر لأنه سلطان مصر زعيمة البلاد الاسلامية ، ومحط آمال
المسلمين ومهوى أفئدتهم . فهي مركز الخلافة الاسلامية - وإن كانت
الخلافة إسمية يومذاك - وحامية الدين ، وراعية العلم والأدب ، ومهجر
العلماء والأدباء . وذلك مما اضطر الصفي إلى مدح الملك الناصر مهما تكن
الظروف التي تحول دون مدحه . وقد وازن الصفي بين كفتين موازنة دقيقة ،
الأولى : تكفير الأليّة التي توجب عليه أن لا يمدح غير الأرتقيين ، والثانية :
كفران النعمة العظيمة التي أسبغها عليه الملك الناصر ، فرأى أن الثانية عقوق
وأبي عقوق ، وجحود أعظم الجحود ، وأما الأولى فهي أهون خطراً وأقل
شراً ، فمدح الناصر بالقصائد العظيمة . وكانت أولى هذه القصائد معارضته
لبائية المتنبي التي يمدح بها (علي بن منصور الحاجب) ومطلعها :

بأي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

ولست قصيدة الصفي بأقل من قصيدة المتنبي جودة وجمالاً ، وقد بدأها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا
ويظهر أن الصفي ، بالرغم من أن المدة التي أقام أثنائها في مصر ليست طويلة بحيث يمكنه أن يقوم بكل ما يصبو إليه ، استطاع أن يوطد صلته بالملك الناصر فأصبح ملازماً له ، يرافقه في تنقلاته ورحلاته . فقد ذهب معه إلى ميدان مصر لحضور اللعب بالكرة وأنشد مقطوعة مدح بها الملك الناصر ووصف اللعب قائلاً :

ملك يروض فوق طرف فأرع كرة (بجوكان) حكاها ضرابا
فكأن بدرأ في سماء راكباً برقاً يزحزح يالهلال شهابا
وذهب معه إلى (كسر الخليج) فدحه بقصيدة مطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حلاً فواضلها على الكتابان

ورأى الملك الناصر جمال شعر الصفي وروعة قصائده ، فطلب منه أن يجمع شعره في ديوان ليكن أن يطلع عليه من أحب ذلك ، فلم يسع الصفي إلا أن يجيب طلب الملك الذي أكرمه واحتق به حفاوة بالغة ، بل اعتبر هذا لفتة كريمة منه إلى الصفي وشعره . فلولا حب الناصر للصفي وشعره لما اهتم به إلى هذا الحد . ولم يسع الصفي كذلك إلا أن يقدم مدامحه للملك الناصر على غيرها من المدائح ، مجاملة لهذا السلطان الذي جمع الديوان بإشارة منه ، وتم تدوينه في بلاطه . ولنستمع إلى الصفي نفسه يتحدث عن ذلك : « ... أشار رئيس وزرائه ، وزعيم كتاب إنشائه عن إشارته العالية أن أجمع له أجزاء من جد شمري وهزله ، ورقيق لفظي وجزله ، وأن أبوه أين تبويب فأجبت بالسمع والطاعة .. واقتضى الأدب أن أسم الكتاب بوسمه ، وأشرف باب المدح بتقديم لقبه الشريف واسمه » .

ومع كل هذا الاكرام الذي لقيه الصفي من المصريين حكومة وشعباً ،

فانه لم ينس الأرتقيين بل كان يفكر فيهم ليل نهار لم يغيبوا عن مخيلته لحظة واحدة ، ولم يرحوا ذهنه برهة قصيرة . وكيف ينسى الذين التجأ اليهم فأووه وأكرموه وحافظوا عليه من غوائل الزمان ؟ فكان يرسل اليهم القصائد وهو في مصر . يقول للملك الصالح :

أجرد كي أجرد سيف مدحي فينبو عن سواك به لساني
وأنظم مدح غيرك والقوافي تعضُّ عليّ أطراف البنات
وأظهر حيرة في بسط عذري وأخفي ما يحن لكم جناني
فإن أفعل تألمت المعالي وإن أنكل تظلمت المعاني

قالصفي يصور حاله عندما يريد مدح غير الملك الصالح ، فلا يستطيع أن يفعل ذلك لأن مديحه يجب أن يقتصر عليه ، وتتدفق المعاني في مدح فضائل الملك الصالح وذكر أخلاقه ، وهذا الشعر صادق كل الصدق لأن حب الصالح كان قد سيطر على نفسه ونحّم في هواه ، فهو في موقف حرج لأنه ليس يدري أيمدح أم يسكت . ويمدح الصالح أم غيره ؟ ومصداقاً لهذا القول نرى أن مدح الصفي للملك الناصر قليل جداً إذا قورن بمدحه الملك الصالح .



وغازر الصفي مصر عائداً إلى ماردين ، وقد قضى في أرض الكنانة أوقافاً سعيدة ، فظل يحفظ عنها ذكريات حلوة ، ويذكر لها كل فضل .
ويجب أن نذكر هنا أن معظم الشعراء والأدباء الذين وردوا مصر لم يخرجوا منها كما يجب ، أي لم يخرجوا كما جاؤا ، بل خرجوا وقد فسدت علاقاتهم بمن جاؤا مصر من أجلهم ، وهجوا هؤلاء الذين جاؤا ليمدحهم .
(فدعبل الخزاعي) الذي جاء مصر طمعاً في نوال أحد أقاربه ، وهو (المطلب بن عبدالله الخزاعي) ، وكان والي مصر ، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

أبمد مصر وبمد مطلب ترجو الغنى ؟ إن ذا من المعجب

إن كانوا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب
فولاه المطلب إقليم (أسوان) فكث به أياماً ثم غضب وهجا المطلب فقال :
أطلب أنت مستعذب حمياً الأفاقي ومستقبل
وعاديت قوماً فما ضرهم وشرفت قوماً فلم ينبلوا
وكذلك كان (أبو نواس) ، فقد جاء لمدح (الخصيب) ، ومدحه بعدة قصائد ،
لكنه هجاه أخيراً ورماه بالبخل . وهذا أيضاً حال (المتني) مع (كافور
الاشيدي) إذ مدحه بفرر الشعر ثم هجاه حين لم ينل منه ما كان يأمل ،
واضطر إلى مغادرة مصر سرّاً هرباً منه وهو ينشد :

عيداً بأية حالٍ عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

غير أن موقف الصفي يختلف عن مواقف هؤلاء الشعراء ، فقد خرج من
مصر معزاً مكرماً ، خرج والكل يتمنى أن يظل في مصر ، والكل يرجو
أن يعود إليها . وهو نفسه يتمنى أن يبقى في أرض الكنانة ، ويرجو أن
يعود إليها مرات . ولعل أهم الأسباب التي دعت هؤلاء الشعراء إلى فعل
ما فعلوا ، أنهم وفدوا إلى مصر للحصول على المال أو غيره من الآمال فهدحوا
غير صادقين ، ولما خاب ظنهم ، أو حصلوا على أقل مما كانوا يأملون ظهرت
الحقيقة سافرة ، واضطروا إلى إخراج ما في نفوسهم ، وانساقوا بالغضب
مع هوامم فقالوا شططاً ، وهجوا من كانوا قبل أيام يكيلون عليه المديح .
أما الصفي فلم يكن محتاجاً إلى مال أو جاه ، فهو غني موفور الغنى ، مشهور
ذائع الصيت ، وهو جليس ملوك ونديم أمراء يحترمونه ويقدرونه حق قدره
فلم يجيء مصر لطلب مال أو جاه وإنما جاء لزيارتها وزيارة أصدقائه فيها .

وقد زار الصفي مصر مرة ثانية (فصلاح الدين الصفي) يقول في
(الوافي بالوفيات) وفي (أعيان مصر) : إن الصفي ورد إلى مصر مرتين .
لكنه لم يحدد تاريخ الزيارتين أو تاريخ واحدة منهما ، ولم يذكر المدة بينها ،
ولم يذكر كذلك تاريخ عودة الصفي إلى ماردين بعد أن غادر مصر للمرة

الأولى أو للمرة الثانية . ولكنه ، وغيره من المؤرخين ، يقول إنه بعد أن انتهى الصفي من أداء فريضة الحج عرج على مصر . وبهذا يكون قد دخل مصر لأول مرة سنة (٧٢٣ هـ) . غير أن هناك من يقول إن صفي الدين دخل الديار المصرية سنة (٧٢٦ هـ) ولعل هذا تاريخ الزيارة الثانية ، إذ أن الصفي حين رأى إكرام (الملك الناصر محمد بن قلاوون) له واحترام الناس إياه واهتمامهم بشعره ، عاد إلى مصر من جديد .. خصوصاً وهو تاجر يتنقل من بلد إلى آخر ، وكافت مصر في ذلك الوقت تتمتع برخاء اقتصادي وهدوء وسلام ، ولعل المرة الثانية هي التي جمع الصفي فيها ديوانه إذ أن هذا هو المقول .

صفاته وأخلاقه وطباعه :

لم أستطع إطلاقاً أن أعرف صورة الصفي ، حتى ولو بشكل تقريبي بالرغم من كثرة بحثي عن هذه الصورة بين ثنايا شعره الذي تحدث فيه عن نفسه ، وبين الأسطر التي كتبت عن سيرته . اللهم إلا ذلك البصيص البعيد الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ، والذي جاء في كتاب (مجالس المؤمنين للعرشي) وهو أن الفيروز ابادي قال : « اجتمعت سنة (٧٤٧ هـ) بالأديب الشاعر صفي الدين الحلبي بمدينة بغداد فرأيت شيخاً كبيراً ، ومن يرى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشعر الذي هو كالدرّ في الأصداف . « وهذا الخبر لا يفيدنا شيئاً على الإطلاق بل يزيد المسألة تعقيداً . فهو غير واضح المعالم ولا يشير إلى شيء ملموس . فلم لا يظن أنه الذي ينظم الشعر العظيم ؟ أهو قبيح النظر ؟ لا أظن ذلك . . . أهو هزيل الجسم ؟ لا أعتقد ذلك ؟ لأنه فارس عظيم وبطل مفوار . . . فلم إذا ؟ أغلب الظن أنه كان قد كبر وصار شيخاً

ضعيفاً ، وربما كان متهدماً . فقد قال (الفيروز ابادي) إنه التقى به سنة (١٧٤٧هـ) .
وقد ولد الصفي سنة (٦٧٧ هـ) فيكون قد بلغ من العمر يومذاك سبعين سنة .
فلا عجب إن كان ضعيفاً هزيباً وقد بدت الشيخوخة فيه بأجلى صورها .
وحتى لو كانت الصفي قبيح الشكل ضعيف البنية ، فهل للشكل دخل في
الموهبة والفن ؟

* * *

أما أخلاقه فقد امتلاً شعره بما يوضحها أحسن توضيح ، ويبينها أجلى
بيان . وإلى هذا كله فقد كتب الذين ترجموا له مشيرين إلى أخلاقه موضحين
ما يتمتع به من صفات عالية .

فقد كان الصفي يتمتع بأكرم الصفات وأعظم السجايا ، ولا عجب فهو ابن
قوم كرام ذوي مجد عريق ، وربيب بلد يمتاز بكرم الخلق وحسن الصفات .
فكان إنساناً نبيلاً لا يمكن أن يعتدي على أحد ، وهو صاحب البيت المشهور :
إننا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
وهو بمد هذا يقول :

فقل للأعادي : ما انتنيت لسبكم ولا طاش ، في ظني ، لغدركم سهمي
ولهذا كان يعجب أن يكون له أعداء :
وَمَنْ يَكُ مُثْلِي كَامِلِ النَّفْسِ يَفْتَدِي قَلِيلاً مِمَّا يَدِيهِ كَثِيرَ الْمَصَاحِبِ
فَاللْعَدَى دَبَّتْ أَرَاقِمُ كَيْدِهِمْ إِلَيَّ وَمَا دَبَّتْ إِلَيْهِمْ عَقَابِي ؟
وإنسانيته هذه جعلته يلي دعوة كل داع حتى إذا داه إلى اقتحام
الموت ، استمع إليه يقول :

لما دعاني للثزال أقاربي لباهم مني لسان المنصل
وأبيت من أني أعيش بعزم وأكون عنهم في الحروب بمعزل
فعمدا قتل خاله غدرأ كان أول مجيب لداعي النار ، لاحقاق الحق وإزهاق
الباطل .

وقد جعلته هذه الانسانية مخلصاً للصديق ، مخلصاً للقريب ، مخلصاً لمن يؤدي له عملاً ، كبير أو صغير ، فهو لا ينسى ذلك ، ويحاول أن يرد الجميل بأكثر منه . فالملك المنصور صاحب ماردین الذي آواه ، كان عنده بمنزلة لا تعد لها منزلة . ظل يحفظ جميله طوال حياته ، ولم يرَ ما يجازيه به أحسن من أن يقف شعره عليه وعلى أولاده . يقول مبيناً هذا الاخلاص :

مولاي سمعاً من وليك مدحة عن صدق ودّي في علاكم تنطق
أنا عبد أنعمك القديم وداده وسوای في أقواله يتملق
عبد مقيم بالعراق ومدحُه فيكم يغرب ناراً ويشرق
وهو في غاية الاخلاص لأصدقائه جميعاً ، لا ينسام حتى في ضيقه وشدته ؛
فحين غادر العراق إلى ماردین ظلّ على اتصال بجميع أصدقائه في العراق ،
يكتب لهم بين الحين والحين ، ويتسلم منهم الرسائل ، ويسأل عن أخبارهم
وأحوالهم ، ويمتاب من ينقطع عن زيارته من إخوانه :

لا والذي جعل المودة مانعي عن أن أقابل سيدي بجفائه
ما حلّت الأيام موثق جبه عندي ولا حالت عهود وفائه
ودليل قلبي قلبه فوداده كوداده وصفائه كصفائه
وكان الصفي يتمتع بشجاعة نادرة ، ولا عجب فهو حلي والحلة عرب
الأسود وموطن الأشبال ، اشتهرت بالشجاعة والنجدة والاقدام . فكان
الصفي من الشجعان المدودين ، قال عنه الصفيدي : « وهو من الشجعان
الأبطال قُتل خاله فأدرك نأره ، وفيه آثار الجراحة . » فهذا دون شك
وسام البطولة ورمز الشجاعة . وقد أبلى في معركة الزوراء بلاه عظيمًا ،
وأبدى من ضروب الشجاعة والمهارة في القتال والحزم والعزم ما يبينه قوله :
قل ليالي : ويك ما شئت اصنمي بمدي وللأيام ما شئت افعلي
لا تسمعن بأن أصرت مسلماً وإذا سمعت بأن قُتلت فموت
ما الاعتذار وصاري في طاتي إن لم يكن من دون أمري مقتلي

وهذه الشجاعة جعلته لا يصانع في حياته حتى في الحرب وفي غمرة القتال :
هناك نخبات الكباش منهم بضربة فرقتُ بها بين الحشا والتراب
لدى وقعة لا يقرع السمع بينها بغير انتداب الشوس أو نذب نادب
فهو لا يصانع ولا يخادع وإنما يهجم على أقوى القوم فيضربه ضربة تقضي
عليه . بعلمته شجاعته الحزم والعزم فكان لا مطلب له إلا العلي . يقول :
قليل إلى غير اكتساب العلي نهضي ومستبعد في غير ذيل التقي ركضي
فكيف ولي عزم إذا ما امتطيته تيقنت أن الأرض أجمع في قبضي
على أن لي عزماً إذا رمتُ مطلباً رأيت السما أدنى إلي من الأرض
فنهوضه لا كتساب العلي فحسب . وعزمه الماضي يمتطيه فيقرب له السماء
ويجمع له الأرض فتصبح كلها في قبضته :

وكان الصفي يتحلى ، مع الشجاعة ، بمزة النفس والاباء يقول في ذلك :
سمت بي إلى العلياء نفس أبيض ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب
أو يقول :

أبي لا يقيم بأرض ذل ولا يدنو إلى طرق الدنيا
وهذا الاباء هو الذي دفعه إلى ترك وطنه الحبيب ، ومغادرة أهله
وأصحابه والرحيل إلى ماردین ، فهو إذاً يحشمه أشد المصاعب لدفع الضيم :
ذاك أني لا تقبل الضيم نفسي ولو اني افترشت شوك القتاد
وربما غالى كثيراً في الاباء فرأى أن يعف عن كل سؤال حتى السؤال عن
الطريق :

ولقد أسير على الضلال ولم أقل : أين الطريق ؟ وان كرهت ضلالي
وأطاف تسأل الدليل ترفماً عن أن يفوه في بلفظ سؤال
وكان الصفي كريماً ، ولا غرو فالحلة بلد الأجواد الكرام ، بلد صدقة
وديبس . وهو ابن طي قوم (حاتم الطائي) الذي اشتهر بكرمه كما لم يشتهر
أحد . وآباؤه وأجداده كرام مشهورون . وهو إلى ذلك كله موفور الغنى

كثير النعم ، فكان يجود على الغريب والقريب :
 وإن نوالى في الملمات واصل أباعد أهل الحمى قبل الأقارب
 وجوده بلا من . يقول في ذلك :
 أي رب قد عودتني منك نعمة أجود بها للوافدين بلا من
 فأقسم ما زالت عطايك حمة ونعمك ، لا خيبت ذا الظن بالمن

* * *

وكان من طبع الصفي الميل إلى اللهو ، ولا عجب فقد كان يعيش عيشة
 المترفين من أبناء الأمراء والأشراف ، فكان يخرج للصيد ويمارس الفروسية
 وألعابها ، ويلعب شتى الألعاب المسلية كالشطرنج والنرد . وكان في ماردن
 يعيش مع الملوك نديماً وجليساً لهم ، فشاركهم في شرب الخمر ، ووصفها
 أجمل وصف .

كان الصفي يهتم بالصيد منذ صباه ، وظل كذلك طوال حياته ففي صباه
 كان يخرج مع أقرانه لصيد الطير والحيوانات المختلفة في ضواحي الحلة ، وفي
 ماردن كان يلازم الملوك والأمراء في رحلاتهم للصيد . ويصف ذلك
 في شعره :

لم أنس في ذوب شليل برزقي بين ثقات من رماة الحلة
 ويبين صفات الصيادين وما يجب أن يتمتعوا به من أخلاق وميزات
 في قوله :

من كل مقبول المقال صادق قد قبض القوس وللنفس بسط
 يقدمنا فيها قديم حاذق لا كسل يشينه ولا قنط
 بحكمك فينا حكم داود فلا ينظر فينا خارجاً عما شرط
 فيجب أن يكون كل منهم حاذقاً نشيطاً ، ولا يشوبه قنوط أو تردد أو
 فتور يقبض قوسه ويبسط نفسه .

وكان الصفي يصف الطير وغيره من حيوانات الصيد ، ويعرف طبائعها

وطاداتها ، وصف النعام وصيدته في قصيدة صور لنا فيها يوماً قضاءه في هذه
القضية الجميلة :

ورب يوم أدكن المقام ممتزج الضياء بالظلام
سرنا به لقنص الآرام والصبح قد طوح بالثمام
عن لنا سرب من النعام مشرفة الأعناق كالأعلام
فاغرة الأفواه للبيام كأينق فرت من الزمام
وحش على مثنى من الأقدام تحجم في الحرب عن الاحجام
أراقم قد قرن للخصام خين هم السرب بانهمزام
إلى آخر القصيدة إذ يصف ضخامتها وطول رقبتها ، إلى غير ذلك . ويصف
البازي والصيد به فيقول :

غليظ خط الجوجو المنكب ذي عنق خصب ورأس أحذب
قصير عظم الساق ثبت الركب قليل ريش الصفحتين أرب
فامي الجناحين قصير الذنب عيونه مثل الجمان المذهب

.....
وواضح أنه يصف البازي وصفاً دقيقاً : شكله العام ، فهو أشهب منتصب
القامة طالي الكتفين . ويصف أعضائه واحداً بعد الآخر ، فالساق قصير ،
والركبة نبتة ، وهو قليل الريش في الجانبين كثيفه في الجناحين . قصير
الذنب عيونه مثل اللؤلؤ المذهب . ويصف الصقر بنفس صفات البازي .
ويرسم لنا صورة جميلة للفهد فبرينا أنه أرقط بارز الجبين أفطس الأنف الخ .

طارضته في منتهى السفحين بأرقط مخطط الأذنين
ناتي الجبين ، أهرت الشدقين أفطس سبط الشعر صافي العين
ينظر في الليل بجمرتين ذي كحل سال من العينين

.....
ويجيد كذلك وصف كلاب الصيد برشاقتها وسرعتها وصفاتها التي تتميز بها :

وتبعاً لمهارة الصفي في الصيد أصبح عارفاً بآلاته جميعها ، يعرف إحصائياتها ومميزاتها وصناعاتها فيصف البندق وكيف يبرق في الفضاء بسرعة خاطفة ، والقوس ويشبهه بالهلال ؟

ولم يفارق حب الصيد صفي الدين بعد شبابه ، فقد ظل مغرمًا به في ماردن وفي كل بلد بعد أن كبر ، فكان يخرج للصيد مع الملوك والسلاطين ، مع المنصور والصالح ، مع الناصر والمؤيد ، ويصف هذه الرحلات بشعر جميل ، فحين خرج مع (الملك المنصور) للصيد بالبندق في ضواحي ماردن سنة (٥٧٠١ هـ) نظم قصيدة طويلة يصف بها هذه الرحلة بدأها بقوله :

دارت على الراح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر
ونبه الورق نسيمُ الفجر ففردت فوق الغصون الخضر
تغني عن العود وصوت الزمر

وحين خرج للصيد في ضواحي (حماة) مع (الملك المؤيد) سنة (٥٧٤٠ هـ) نظم قصيدة يصف الصيد ويهنيء المؤيد بعيد الفطر :

قم بي فقد ساعدنا صرف القدر وجاء طيب عيشنا على قدر
فكم علا قدر امري وما قدر فأرضع بنا دراً الهنا إن تلق در
فالشهم من حاز السرور إن قدر

• • •

وكان يلعب الترد والشطرنج ويجيدهما اجادة تامة ، بحكم كونه جليس ملوك ورفيق أمراء أولاً ، وبحكم كونه من أبناء الطبقة الراقية ثانياً . وقد صور لنا قصة صراحتته لأحد الغلمان في لعبة الترد وهزيمة الغلام في النهاية :

لاعبته بالترد ثم وبيننا رهن قد ارتضت النفوس بقصده

.....

وهناك قصيدة أخرى يصف فيها قصة كاملة مشابهة لهذه القصة ، فقد لعب

الشطرنج مع غلام كان قد اتفق معه على رهان ، وكان الغلام هو الذي اقترح اللعب :

وغزال غالزته بعد بين ألفت بينه المدام وبيني
قال لي مازحاً وقد طغت الرا ح وجال التضربح في الخدين :
قد مللنا فهايت نلعب بالشطرنج كبا أرح قلبي وعيني
قلت : سمعاً وطاعة لك مولا ي ولكن لعبنا في رهين
.....

فالصفي هو الذي اشترط الرهان ووافق الغلام ، وبدأ اللعب بتقسيم الجيشين . وهو يصف اللعب وكيف كان يصول ويجول ، بحكم الخطط ويدير خير إدارة ، وكأنه قائد محنك يخوض معركة رهيبية ، حتى انتصر فاستحق الرهان ، لكنه عفا عن الغلام عندما بكى وطلب أن يعفيه والعفو من شيم الكرام . وفي أزجال الصفي قصة مشابهة لهذه القصة .

وأما مجالس الخمر التي كان يحضرها مع الملوك والأمراء فكان يصفها وصفاً دقيقاً ، فهل كان الصفي يشرب الخمر أم كان يقول هذا الوصف محاكاة للشعراء الآخرين ؟ في الحقيقة ، إن أول ما يتبادر الى الذهن أن الصفي لا يمكن أن يشرب الخمر لأنه رجل فاضل وشيخ جليل ، درس علوم الدين وتفقه فيها ، وكانت أسرته من أكرم الأسر ، تتمتع بسمعة حسنة ومنزلة محترمة . فكيف يأتي الصفي هذه المحرمات ؟

إن الذي يبحث في الأسباب الخفية والعلل الداخلية ، يستطيع أن يعرف أن الصفي كان يشربها فعلاً ، فقد انتشرت في هذا العصر انتشاراً كبيراً ، فكان الصفي واحداً من هؤلاء الذين جرفهم تيار المجتمع ، واضطروا الى السير مع تياره الجارف . أضف الى ذلك أن حضوره مجالس الملوك ومنادمته لهم في ماردن وحماة والقاهرة مما يضطره الى شرب الخمر أيضاً فهو مجبر على أن

يصنع ما يصنعون ويأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون ، وإلا فكيف
يرضون به جليساً إن كان يمتنع عن فعل ما يفعلون ترفماً منه أو ابتعاداً عنه
لأنه دنية في نظره ؟

إذا فالصفي يشرب الخمر فعلاً ، وقد بين ذلك في شعره ، وصرح به
في أكثر من موضع :

يقولون لي جهلاً: متى تترك الطلي؟ فقلت: إذا ما عاد من فوته أمس
وكيف أطراحي للدمام وفعلها جلي على الأَبصار ليس به لبس
لكن .. ألم يكن للنشأة الدينية أي أثر في هذا ؟

أجل ، لقد ظهرت آثار هذه النشأة فعلاً ، وكانت توجه تفكيره
وإحساسه توجيهاً خاصاً ، وكانت هناك ومضات تلمع أحياناً في شعره تدل
على ذلك ، فكان يذكر أسباب تحريم الخمر ويقول إنها محملة إذا شربت بقلة
واعتدال :

وأعجب أن السكر في كل ملة حرام وإن أمسى اليها عجباً
وتكثر منها المسلمون بسكرها وترك نفعاً في القليل مجرباً
وإن نظروا يوماً لبيبي - أمداويًا بها الهمم قالوا : نافلاً متطيباً
فالقيل منها - عنده - حلال ، لأنه يعتبره دواءً للهموم والدواء حلال .
وهو يوجب لماذا يكثر منها الناس ، ويسخرون ممن يشرب منها القليل ،
ويرمون به بالبخل ؟! ويحللها أيضاً بالمزج لأنه يرى أن المزج يفقدها خصائصها ،
لذلك كان لا يشربها إلا ممزوجة بالماء :

جَرَدَ الزجُّ عليها سيفه عندما سَلَّت على الليل ظباها
وإلى ذلك كله فهو يتشبه بمدح القرآن للخمر ويتعلق به أشد التعلق
فيقول :

جاء نص الكتاب بالنفع فيها لو خلت من مآثم الشبهات
مشيراً لقوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع

لناس . « فهو إذا يشرب الخمر . ولكن بعد أن يحلل شربه لها ، وبعد أن يبين فائدتها ومنافع شربها . وقد رأيناها لا يشربها في رمضان لأنه محرّم ذلك إذ يقول :

قلت : شهر الصيام قد جاء والشر ب ، ولو في دجاء ، عندي حرام
فنشأته الدينية لم تحتف حتى في مثل هذه الأحوال ، ورأيناها يعالج
المشكلة علاج رجل دين ، غير أنه كان يحرم ويحلل كما تتطلب منه الظروف
ويتبع هذا التحليل والتحريم .

وكان يشرب الخمر بجميع أنواعها فنراه تارة يصفها بالبياض ، وتارة يصفها
بالصفرة كالذهب ، وتارة يصفها بالحمرة كالباقوت ، وتارة يقول انه
النيبذ . . . وهكذا .

وهو لا يشربها في مكان واحد وإنما يشربها في كل مكان ، مع الملوك في
مجالسهم ، وفي بيته ، وفي الحانات وغير ذلك . فكان ينادم الملوك ويسامرهم
ويتحدث إليهم أحاديث الأديب واسع الاطلاع على نوادر المتقدمين من
الظرفاء والأدباء والمجان ، ويقرأ وصف الخمر ومجالسها . وكان يصف هذه
المجالس وصفاً جميلاً دقيقاً ، فيذكر الخمر الممتعة والطعام الجيد والفاكهة
الذيذة والزهور الجميلة وغير ذلك مما يجب أن يتوفر في المجلس كالندمان
والمغنين والمغنيات . ويمدد شروط الندمان وشروط الشرب وانعقاد المجالس
وغير ذلك .

وربما جمع في المجلس بين الحشيش والخمر أو كما يقول بين الخضراء والحمراء :
في نشوة الخضراء والحمراء أمن من السوداء والصفراء
فالحشيش كان منتشرأ في ذلك العصر ، ومعروف أنه يدعو إلى الخمول
والسكسل ، ومعروف أن الخمر تبعث في النفس النشاط والقوة ، خصوصاً إذا

شربت باعتدال فهو يجمع بينها ليفوز بمفعوليهما معاً . وربما استغنى عن
الخمر بالحشيش فهو يقول :

في الكيس لا في الكاس لي قهوة من ذوقها أسكر أو شمتها
لم ينه نصُّ الذكر عنها ولا أجمع في الشرع على ذمها
فعدم تحريمها نصاً هو الذي يدفعه إلى شربها بدل الخمر التي يعترف بأنها
محرمة فيحتمل لتحليلها .

غير أن الصفي حين كبر وانهمك في مشاغل الحياة الكثيرة ، وانقطع عن
الملوك ومجالسهم ، بادر إلى ترك الخمر . ولم تك هذه التوبة بنت ساعتها
- على ما يظهر من شعره - وإنما جاءت بعد مقدمات ومحاولات ؛ فقد بدت
منه هفوة في أحد المجالس فهمم " بالتوبة لكنه عدل عن هذا الرأي . وظل
يفكر في التوبة طويلاً حتى تاب أخيراً . وحضر مرة مجلساً من مجالس
أصدقائه فأجبروه على شربها فأثرت فيه وآذته وبدرت منه غلظة مع أحدهم ،
فاعتذر إليه قائلاً :

ضعف رأسي وقسلة الايمان أوجبا ما رأيت من هذيان
والجنون الفحش الذي صرت منه خارجاً من طبيعة الانسان
فبحقي أموت يا مالك الرق وأنتي عن المدام عناني
فهو الآن تائب حقاً ، لأنه يرى أن شرب الخمر كفر ، وأن فيه خروجاً
عن طبيعة الانسان . وقد صمم على تركها حتى المات .. وقد فعل .

٤ - وفاته :

عاد الصفي من مصر الى ماردين . لكنه لم يطل المقام إذ لم يلبث أن
غادرها إلى العراق . ولا نعرف الوقت الذي قضاه في ماردين حتى ولا على

وجه التقريب . وأقام في العراق فلم ينس الأرتقيين وفضلهم فكان يرسل إليهم
القصيد بين الحين والحين ، يحنُّ إلى ربوعهم ، ويتشوق إلى مجالسهم ،
ويصوب إلى أيامهم ، ويمدح أولئك الملوك الذين أكرموه . أرسل إلى الملك
الصالح يقول :

ما هبَّت الریح إلا هزُّني الطرب إذ كان للقلب في سر الصبا أرب
.....
وكم قصدت بلاداً كي أمراً بكم وأنتم القصد لا مصر ولا حلب
وكم قطعت إليكم ظهر مقفرة لا تسحب الدليل في أرجائها السحب
حتى وصلت إلى نفس مؤيَّدة منها النهى واللهي والمجد يكتسب
.....

ويظهر لنا أن عودته للعراق لم تكن نهائية ، أو أنه حين جاء العراق لم يستقر
فيه تمام الاستقرار ، فكان يرحل بين الحين والآخر إلى ماردين وغيرها من
البلاد . فهناك قصائد قالها في السنوات الأخيرة من حياته وهو في ماردين .
لكن هذا الاستقرار ظهر في أيامه الأخيرة بجلاء ووضوح إذ أدركه الموت
وهو في بغداد . فقد كبر وضعف جسمه وتدهورت صحته وأصيب بألم
المفاصل ، وقد أشار إلى ذلك في شعره :

ألم المفاصل قد أسأت وليس لي أبدأ على تلك الاساءة مسعد
كما يقول أيضاً معتذراً عن زيارة صديق له :

قد أقعدتني عنكم مفاصل وإن أقامت في انقطاعي عذري
مات الصفي سنة خمسين بعد المائة السابعة للهجرة (٧٥٠) المصادف سنة
تسع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف للميلاد (١٣٤٩) . فارتفعت تلك الروح
الزكية إلى بارئها ، ووقف ذلك القلب الكبير ، وسكت ذيك النغم العذب
الذي طالما ملأ الدنيا وشغل الأسماع . مات في بغداد ، ودفن فيها ، وكان
الأقذار أرادت أن يدفن في ثرى وطنه الحبيب الذي اضطر للتغرب عنه مدة

من الزمن غير قصيرة فحزن عليه الصديق وغير الصديق ، وتألم له القريب
والبعيد ، وسرى الحزن في البلاد الاسلامية كلها من أجله لأنه القيثار الذي
طالما نفى بأعجاب العرب ومفاخر المسلمين .

والمعجب أننا - اليوم - لا نعرف له قبراً ، مع عظم المركز الذي كان
يتمتع به ، ولعله اندثر في ذلك العصر الذي تدهور فيه كل شيء . ولكن
الأمعج من هذا والأؤكد أن تاريخ وفاته لم يكن مضبوطاً مؤكداً ، فبالرغم
من تأثر البلاد الاسلامية لوفاته لم تضبط هذه الوفاة باليوم والشهر . فلا نعرف
إلا أنه مات في سنة (٥٧٥٠ هـ) . ولكن هذا هتّين يسير إذا عرفنا كذلك
أن المؤرخين والمترجمين له اختلفوا أيضاً في السنة التي توفي فيها ، فبالرغم من
أن أكثرهم حددها بسنة خمسين وسبعمائة هجرية نجد صاحب (النجوم الزاهرة)
يقول إنه توفي سنة (٥٧٤٩ هـ)^(١) ، غير أنه عاد في كتابه (المنهل الصافي)
فجعلها عام (٥٧٥٢ هـ) . أما صاحبه (صلاح الدين الصفدي) فقد قال في
(أعيان العصر) : توفي الصفي سنة (٥٧٥١ هـ) تخميناً . وهكذا ترى الخلاف
في تحديد هذه السنة أيضاً . غير أننا نرجح سنة (٥٧٥٠ هـ) لانفاق أكثر
المؤرخين عليها . ومنهم زين الدين حبيب^(٢) ، وهو قريب عهد من الصفي إذ
توفي سنة ٥٨٠٨ هـ .

(١) والامعج أن ناشر كتاب (العاقل الحالي) وهو (ولهم هو نرباخ) يفضل رواية
عام (٥٧٤٩ هـ) بالرغم من أنها لم ترد الا في (النجوم الزاهرة) ولكنه يعود فيذكر
الروايات الأخرى ، كما يذكر تاريخ أحد معاصري الصفي لوفاته بقوله : « الجنة مأوى الصفي »
ومجموعها بحساب الجمل (٧٥٢) .

(٢) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٧١

الفصل الثاني

ثقافته وعقيدته

١ - ثقافته :

ما كنت أعلم ، والبلاغة صنعتي ، أن البديع بحسن وجهك يعلم

بكم يهتدي يا بني الهدى ولي الى حبيكم ينتسب
به يكسب الأجر في بعته ويخلص من هول ما يكسب

بدأ تعليم الصفي بدراسة علوم الدين ، كما هي العادة لذلك العصر في جميع البلاد الاسلامية ، فقرأ القرآن وحفظه ، وعرف معانيه ودرس تفسيره ، وقد تلقى أيضاً مبادئ العربية من قراءة وكتابة . ثم درس النحو والصرف والبيان والعروض . وتعلم علوم الدين من فقه وأصول وحديث . وقرأ التاريخ وأخبار العرب وأيامهم وغير ذلك من العلوم التي كانت في عصره . ولاكن ، وللأسف ، لم نستطع أن نعرف أساتذته في هذه العلوم ، ولم نعرف حتى اسم واحد منهم . ولم يرو جميع الذين ترجموا له وكتبوا عنه كيف تلقى هذه العلوم وعلى من تلقاها ، وإنما قالوا : « ولما بلغ الحلم اشتغل بالعربية والأدب وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها »^(١) . ولم نجد في شعره ما يوضح ذلك ، إذ لم يذكر فيه واحداً من أساتذته . وعلى كل حال ، فنحن نعلم أن الحلة كانت تزخر بكثير من العلماء والأدباء والشعراء في عصره ، فكان من الهين

(١) الدرر الكامنة - ابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٣٦٩

اليسير عليه أن يتلقى ما يلذ له من العلوم ، وأل ينهل ما يطيب له من الآداب .
وكانت الكتب متوفرة والمسكتبات منتشرة حافلة بكل نفيس فريد من كتب
العلم والأدب ومن دواوين الشعر ، فكان يستطيع أن يقرأ ما يريد بسهولة .
وقد مال الصفي إلى دراسة الأدب واللغة وعلومها المختلفة ، فبرع فيها أي
براعة . وكان ذكياً بارع الذكاء ، فطناً حاد الفطنة ، قوي الذاكرة سريع
الحفظ ، حاضر البديهة ظريف النكتة . فنبتغ أي نبوغ حتى صار أ كبر
شعراء عصره ، كما قال عنه (صلاح الدين الصفدي) وغيره .

واستطاع الصفي أن يتقن ثقافة قرآنية حقة ، فقد ظل القرآن مصوراً
في ذهنه راسخاً في فكره ، حتى ظهرت معالم هذه الثقافة في شعره واضحة ،
فتراه تارة يضمن الآيات القرآنية أو بعض أجزائها ، كقوله :

رقت إلى الصب طول الأصل راقية فقلت: «قد جئت ياموسى على قدر»
وكما يقول :

سكنت مقر عقولهم وتمكنت فعدت «توسوس في صدور الناس»
وأما قوله :

شاد في ذروة الملاه دياراً «وجنى الجنتين منهن» دان
والجواد السمع الذي «مرج البحرين من راحتيه يلتقيان»
فواضح أنه يضمن بعض آيات من سورة الرحمن .

وضمن قوله تعالى في سورة المص: «والمصر إن الانسان لني
خسر» قائلاً :

فإن كان عصر الأنس منكم قد اختفى فوالمصر إنى بعد ذلك في خسر
وهناك كثير من ألفاظ القرآن وعباراته استعملها الصفي في شعره كتصغير
الحمد وغيره . يقول :

(تبت يدا) من تاب عن رشف الطلا والكأس متقد كخد فتاة

ويقول أيضاً :

فلوح لي قريضك بافتخار وعجب جاء عن (نصمير خد) أويقول :

سارت بنا تطوي القفار فعندما (آلست نارك) قلت للركب: امكثوا والصفي يشير كثيراً إلى قصص الأنبياء التي وردت في القرآن ، فالنبي إبراهيم (عليه السلام) وقصة نجاته من نار عمرو يشير إليها في قوله :

قلت عند الأياب : يا نار برداً وسلاماً كوني لابراهيم

ويشير إلى قصة موسى وفرعون والسحرة بقوله :

ظننت جبال السحر ما قد أتوا به وتلك عصا موسى لها تتلقف وأما قصة النبي يونس ونجاته من الفرق بواسطة الحوت فيقول بصددتها :
هدى قلبي من كان يونس قلبي إذ نبذناه في العراء سقيماً وقد يجمع قصصاً وأخباراً كثيرة عن الأنبياء في قصيدة واحدة كقوله :

أنبأتنا الأنباء من سالف الدهر وعدت لنا القرون القروما
وحكت كيف أصبحت فتية الكهف وقوداً وكيف حلوا الرقيما
وبماذا تجنبت نار (عمرو د) خليل الآله إبراهيم
وغداة امتحان يونس بالنو ن وقد كان في الفعالم مقبياً
ونشكى يعقوب إذ ذهب عيناه من حزنه وكان كظيماً
والتناجي بالطور إذ كلم الرح من موسى نبيته تكليماً
ودناه المسيح إذ نعث الميت من رمسه وكان رمياً

فترى هنا قصة أهل الكهف ، وقصة حرق سيدنا إبراهيم (سلام الله عليه) ،
ونجاة يونس (عليه السلام) ، وقصة يوسف بن يعقوب ، وحزن أبيه من
أجله ، ومناجاة موسى ربه بالطور ، وإحياء عيسى للميت أمام قومه . . .

وبعد أن درس القرآن ووطأ وحفظه تلقى علوم الدين من فقه وحديث وأصول وغير ذلك . ولم تظهر آثار هذه الدراسة في شعره كما ظهر أثر القرآن . وإنما هناك إشارات بسيطة وتماير قليلة من تعبيرات الفقه ، ليس فيها شيء من الفقه الشيعي الامامي الذي لا بد أنه تلقاه في الحلة التي كانت يومذاك منبعاً لهذا العلم ، وكعبة لقاصديه ، وإنما هي من الفقه العام ، فهو يشير إلى القياس في قوله :

يناسب يوسف الصديق حسناً ووصفاً في قياس ذوي العموم
أو في قوله :

يا سميّ الذي له خبت النار وكانت له سلاماً وبرداً
لم عكست القياس في نار قلبي فأذا ما ذكرت تزداد وقدأ
وعبارات الفقهاء تتمكس في شعره فتراه يقول :

جميلكم كان في رقتي لكم سبباً « لا يوجد الحكم حتى يوجد السبب »
أو يقول :

طبع الأنام على الخلاف وجوده في الناس « مسألة بغير خلاف »
ومن ذلك قوله :

شرطي بأن حشاشتي رقتي لكم « والشرط، في كل المذاهب، أملك »
ويقول :

واقترضنا منها الدموع فقالت : « كل قرض يجزئ نفعاً حرام »
ففي هذه الآيات وفي غيرها كثير من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم مثل :
« لا يوجد الحكم حتى يوجد السبب » و « مسألة بغير خلاف » و « الشرط
في كل المذاهب أملك » و « كل قرض يجزئ نفعاً حرام » فهو لا شك قد تنقف
ثقافة فقهية ، وتأثر بها فصار يسهل عليه أن يستشهد بمباراتها ، ولكن لم
يظهر الأثر الذي كنا نرجوه في شعر الصفي ، فقد كان يجب أن يظهر في
وضوح أثر الفقه الشيعي الذي كانت الحلة مركزاً له في ذلك العصر .

وتظهر ثقافته التاريخية في شعره أيضاً ، فنراه يحدِّد مواقف بعض الخلفاء العباسيين ويمدِّد أسباب نجاح بعضهم وفشل البعض الآخر في الحكم ، يقول :
بالبطش تمُّ الملك (لابن سراجل) وتأخر (ابن زبيدة) المتقدِّم
وعنت (المعتصم) الرقاب بيأسه ودها العباد بليته (المستعصم)
فابن سراجل وهو (الخليفة المأمون بن الرشيد) ، استطاع أن يستولي على الخلافة وينزعها من يد أخيه (الأمين) بالقوة والبطش ولولاها لما تمَّ له ذلك .
في حين أن الأمين كان ضعيفاً ليناً فأفلت الزمام من يده ، وفقد الخلافة وقتل شرَّ قتل . وكان الخليفة للمعتصم قوي الشكيمة شديد البأس لذلك أطاعه الجميع وخضعوا له . وكان المعتصم سياسياً بارعاً يعرف كيف يسلس القيادة فيستميل الناس جميعاً له .

وهو يكثر من ذكر أيام العرب والتمثيل بها وبأسبابها ، وما أنتج بعضها من بطولات ، وما جرَّ بعضها الآخر من ويلات ، وحروب الاسلام وكيف كان الهدى يقاتل الضلال ، والايقان يحارب الشرك ويتغلب عليه ، فيستشهد بمحرب البسوس وبدر وحنين والجلل وعمورية . . .

وترى بيننا وبين الملاحى وكؤوس المدام (حرب البسوس)
أو يقول :

أنت بدر التمام فأجعل لنا بينك عهداً وبينه (حرب بدر)
أو يقول :

لقد فلتت جموع العاشقين به في وقعة الظبي لافي (وقعة الجمل)
أو يقول :

ورأوك معتصم العزائم فأختشوا بك (يوم عمورية) المشهودا
أو يقول :

ومجلى الكروب عن سيد الرسل بيادر وخيبر وحنين
ونلس أثر التشيع في ذكره هذه الوقائع والحروب . فهو حين يذكر

موقعة الجمل لا ينسى ما فعله فيها الامام علي حين فلّ جموع القوم وحصد رؤوسهم وردّهم مدحورين . ولا ينسى كذلك مواقف الامام علي في موقعة بدر وخيبر وحنين ، التي ضرب بها أروع الأمثال للبطولة والتضحية والاخلاص للدين القويم والمبدأ العظيم .

ونجد له اطلاعاً واسعاً في أعلام التاريخ من تاريخ عربي وإسلامي ، وغيره من تواريخ الأمم . فيذكر (بلقيس) ملكة (سبأ) وما اشتهرت به من جمال فيقول :

رشاً من جاذر الترك لكنّ حاز إرث الجمال من (بلقيس)

ومثله قوله في كسرى وقيصر :

بكأس لها أشخاص (كسرى وقيصر) وقد أهدقت من حولها الروم والفرس
وكقوله في الخنساء وأخيها صخر ، والزباء ووزيرها قصير :

فإن تسكن (الخنساء) إني (صخرها) وإن تسكن (الزباء) إني (قصيرها)
ويقول :

إن كان زهوة (كسرى) بالألوف فكم وهبت من عدد بالألف مجذور
وكان بالجوسق (النعمان) تاه فكم من جوسق لك بالشقين معمور
في كل مستصعب الأرجاء ممتنع تبنى القناطر فيه بالقناطير
لو مرّ (عاد بن شداد) بجنته أقام يقرع فيها سنّ مغرور

وهو مثقف ثقافة حقة في علوم العربية وآدابها ، واطلاعه على كل شيء فيها واسع ، ولا نزاع في ذلك . ويكفي أن نعرف أنه حين أراد نظم القصيدة البدئية قرأ سبعين كتاباً في البديع ، وقد ذكر ذلك معاصروه ، كما ذكره هو في شرح البدئية . وقد ألف كتاباً عظيماً درس فيه الأجزاء ، يعتبر المرجع الوحيد في هذا الفن .

ودرس النحو والصرف والبديع وتاريخ الأدب والشعر وغير ذلك من

علوم العربية ، وتظهر آثار هذه العلوم كلها في شعره ، فمن يقرأ له :
يا جاعلي خبري بالهجر مبتدأ لا عطف فيكم ولا لي منكم بدل
رفعت حالي ورفع الحال ممتنع ، اليكم ، وهو للتمييز يحتمل
لا يشك في أنه مثقف ثقافة نحوية جيدة . فهو يذكر الخبر والمبتدأ ،
والمعطف والبدل ، ويذكر الحال وامتناع رفعه ، والتمييز واحتمال ذلك فيه .
ويذكر أن الاسم مصروف وممتنع عن الصرف في قوله :
والماء ما بين مصروف وممتنع والظل ما بين ممدود ومقصود
في روضة نصبت أغصانها وغدا ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير
ونرى أنه يذكر إشارات من علم العروض ، فيشير إلى دوائره ورموزه
وتفصيلاته يقول :

ذوي بيوت في المجد سالمة كل أفاعيلهن منزنة
ويقول مشيراً إلى بعض أبحر الشعر :

حبيبي (وافر) والشوق مني (طويل) والجوى عندي (مديد)
وهو يضمن الكثير من أمثال العرب كما في قوله :

لا يبلغ السؤال إلا بعد مؤلمة ولا تتم النتي إلا لمن صبرا
فهو يضمن المثل القائل « من صبر ظفر » وحين يقول :

وأغزر الناس عقلاً من إذا نظرت عيناه أمراً غدا بالغير معتبرا
يضمن المثل المشهور « العاقل من أتعظ بغيره » :

فطبق الأرضين حتى بلغ السيل الزبي
فيضمن المثل العربي « بلغ السيل الزبي » .

وأما الأدب العربي فهو ميدان الصفي ، لأنه أحد فرسان هذه الحلبة
المجلين ، لذلك كان كثير الاطلاع على هذا الأدب ، كثير الحفظ لما فيه من
غرر الشعر وفريد القصيد ، واسع المعرفة بأخبار الشعراء وأحوالهم وما

يشتبهون به ويتصفون . فكان يشير إلى أعلام الشعر العربي ، كل في ميدانه .

حين يأتي ذكر الهوى والعشق يقول :

فليس (جميل) في الهوى و (كثير) و (عروة العذري) و (ابن ذريح)

بأعرف مني في الملاح توسماً ولا جنحوا للمشق بعض جنوجي

وعند الحزن يأتي بالخفساء :

أيا صخر الجنان أدمت نوحى فما أنا فيك (خفساء) الرجال

وإذا ذكر الأدب جاء بالمبرِّد قائلاً :

سماحة تخفض قدر حاتم وأدب يهزأ (بالمبرد)

ويعرف غير هؤلاء من أطواد الأدب والشعر العربي المشهورين ، وكيف

لا وهو قد قرأ الشعر والأدب وتأثر به وأحب الكثير منه حفظه ، وصار

يقتبس معانيه ويضمن بعض أبياته في شعره ، ضمن قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من نصب نمته ومن نخطي يمتهم فيهم^(١)

فقال :

فأنت إلا « خبط عشواء من نصب نمته ومن نخطي يمتهم فيهم »

وقال الصفي أيضاً :

فمكن قائلاً قول السموهول تائهاً بقولك عجباً وهو منك قليل :

« وتسكر إن شئنا على الناس قوهم ولا يسكرون القول حين نقول »

وواضح أن البيت الثاني لسموهول ، وقد أشار الصفي في البيت الأول إلى

ذلك . وأما قول صفي الدين :

إذا بدا معناه قال الورى : « كم ترك الأول للآخر »

فالشرطة الثانية لأبي تمام الطائي في بيته :

يقول من تفرع أسماعه « كم ترك الأول للآخر »^(٢)

(١) ديوان زهير ص ٢٩ - طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٤ .

(٢) ديوان أبي تمام ص ١٤٣ .

وقال :

إذا ما فعلت الخير ضوعف شرهم « وكل إناء بالذي فيه ينضح »
وهذه الشطرة الأخيرة من شعر (الحيص بيص) يرثي بها الامام الحسين
ابن علي (رضي الله عنه) في بيته :

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح (١)
ولما كان قد قرأ دواوين الشعراء المتقدمين وحفظ الكثير من شعرهم ،
فقد ظل متأثراً بالكثير من معانيهم ، ثم اقتبس الكثير من هذه المعاني في
شعره ، قال يمدح الملك الصالح :

أخفى الملوك تجلييه لأنهم شهب إذا بزغت شمس الضحى نرحت
ولا شك أن هذا المعنى مأخوذ من قول النابغة الذبياني :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب (٢)
وقد أخذ معنى قول الفرزدق في (علي بن الحسين) :

ما قال (لا) قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه (نعم)
فقال :

(نعم) أسأله جواباً لم يصل يوماً إلى (لن) ولا (لا)
ويقول كذلك :

كالصل يظهر لينا عند ملامسه حتى يصادف في الأعضاء تسكيننا
يطوي لنا الغدر في نصح يشير به ويمزج العم في شهد ويسقيننا
فتراه يضمن قول الشاعر :

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب
وهو إلى ذلك كله قد خمس الكثير من قصائد الشعراء المتقدمين ، مما كان
يحمس إحساساً عميقاً أنها تعبر عما في نفسه أصدق تعبير ، وأوضح ما يجيش

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ٥٧ . مطبعة السعادة .

في صدره أحسن توضيح ، نفخس أبيات الحماسة المنسوبة إلى (قطري بن
الفجاءة) التي مطلعها :

أقول لها وقد طارت شعاعاً : من الأبطال ويحك لا تراعي
فقال :

ولما مدت الأعداء باعا وراع النفس كرم سرايا
برزت وقد حمرت لها القناتا (أقول لها وقد طارت شعاعاً)
(من الأبطال ويحك لا تراعي)

ونفس قصيدة السموهول الحماسية التي يقول فيها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
فقال :

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رجب لديه وعرضه
ولم يبيل سربال الدجى فيه ركضه (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه)
(فكل رداء يرتديه جميل)

.....



وليست هذه فقط هي ثقافة الصفي ، ففي شعره ما يدل على أن له إلماماً
حسناً بعلم الجغرافية وعلم الفلك فهو يعرف أن القمر يستمد الضياء من الشمس
وأنه حين يعتمد عنها يكون بدرأً وحين يقترب منها يدخل في المحاق فهو إذاً
يعرف أوجه القمر :

حالي وحالك كالهلال وشحمه مذ أ كسبته النور في إشراقه
فاذا نأى عنها حظى بكجاله وإذا دنا منها رمي بمحاقه
ويذكر سبب كسوف الشمس فيقول :
مثل قول الشمس المنيرة للبد ر بلفظ العتاب والاشفاق :
أنا أ كسبتك الضياء وأ كلت لك النور ليلـة الاشراق

وإذا ما دنوت بالقرب مني نلت مني الكسوف حال التلاقي
ويذكر الكواكب السيارة وغيرها من النجوم في قوله :

وكان المشتري ذو أمل نال حظاً ومن البدر ارتشا
وحكى المريح في صنمته قد محبوب بلحظ خدشا
وسهيل مثل قلب خافق ممكن الرعب به فارتشا
وبنات النمش سرب نافر هام ذعراً ومن النسر اختشا
والثريا سبعة قد أشبهت شكل لحيان بنحت نقشا

ففي هذه الأبيات يصف (المشتري) و (المريح) و (بنات النمش) و (الثريا) كلاً بوصفه الخاص وميزاته التي ينفرد بها ... ويعرف أن الثريا لا يمكن أن تدرك سهيلاً فيقول :

أتمنى العراق في أرض حرّاً ن وهل تُدرك الثريا سهيلاً ؟!

وقد يكون الصفي يعرف اللغة الفارسية - أو شيئاً منها - لأنه كان يظهر في شعره بعض الآثار اليسيرة التي تدل على ذلك ، ولكن ليس هذا فقط فهو لا يؤكد معرفته للفارسية ، فربما تأثر من هنا أو من هناك ، وإنما هناك شيء آخر أهم منه ، وهو أن الصفي نظم قصيدة طويلة تبلغ خمسة وسبعين بيتاً خلط فيها بين اللغة الساسانية الفارسية واللغة العربية وقد جمع فيها غرائب الساسانيين الفرس وحيلهم ونواديرهم وفنونهم ، ومطلعها :

بتبريخ أدصاتي وترببيخ مشتاتي غدت سائر الأخشان والفرس نخشاني

ولا يمكن أن ينظم الصفي مثل هذه القصيدة إلا إذا كان ذا معرفة تامة باللغة الفارسية الساسانية وألفاظها ومفرداتها ، وإطلاع واسع على حيل الشحاذين الساسانيين ، وهم من الفرس ، في السكدية وما شابهها . ولا نستبعد أن يكون قد تعلم الفارسية من كثرة تجواله وتطوافه للتجارة . فقد اختلط بأناس

كثيرين من مختلف الأجناس ، وقديماً قالوا : « سافر ففي الأسفار سبع فوائد » ولم لا يكون تعلم اللغات الأجنبية من هذه الفوائد السبع ؟ وبخاصة إذا علمنا تقدير الصفي للغات الأجنبية وحثه على تعلمها ، واعترافه بمزاياها .
استمع إليه يقول :

بقدر لغات المرء يكثر نفعه فتلك له ، عند الملعات ، أعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهداً فكل لسان ، في الحقيقة ، إنسان !
ولكن ، للأسف ، لم نجد غير هذا الدليل مما يؤكد لنا معرفة الصفي
بالفارسية وإن كان ، على كل حال ، دليلاً حسناً .

فثقافة الصفي متعددة النواحي متشعبة الفروع ، فيها علوم الدين وعلوم
اللغة والأدب ، وفيها التاريخ والجغرافية ، وفيها اللغة الأجنبية . وقد
ساعدته هذه الثقافة الواسعة الغزيرة على إنتاج آثار علمية كثيرة ، مؤلفاته
كثيرة متنوعة منها الشعرية ومنها النثرية ، فأما الشعرية فهي : ديوانه ،
ودرر النحور ، والبديعية . وأما مؤلفاته الأخرى فهي :

١ - الأغلاطي ، أو أغلاطي : وهو مجمع للأغلاط اللغوية التي يقع
فيها الكتاب والأدب ، توجد منه نسخة مخطوطة في (الاسكوريال) ،
وقد صورت الجامعة العربية نسخة على هذا المخطوط موجودة في مكتبتها .

٢ - وصف الصيد بالبندق : وهو كتاب يصف فيه صيد الطير بالبندق ،
ولهذا الكتاب قيمة تاريخية كبيرة لأن هذا النوع من الصيد قد بطل استعماله
الآن . وقد سماه الصفي (الخدمة الجليلة) وتوجد منه نسخة مخطوطة في
(برلين) برقم ٥٥٣٧ .

٣ - المعامل الحالي : ويعتبر هذا الكتاب المرجع الأول والأخير في
دراسة الفنون المختلفة للشعر العامي من زجل وموالي وغيره ، فقد درسها
الصفي دراسة وافية مبيناً أنواعها وخصائص كل نوع وأوزانه وعمله . وذكر

أمثلة شعرية لسكل نوع . وتوجد نسخة في مكتبة جامعة القاهرة رقمها ٢٢٩٦٥ أدب^(١) ، ونسخة في ميونخ برقم (٥٢٨) .

٤ - كتاب (الأوزان المستحدثة) كالدوييت توجد منه نسخة خطية في عمان رقم ٥٥٤٢ .

٥ - رسالة الدار والفار : منه نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني ٦٢٤ ف ٨ .

٦ - ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء .

٧ - الدر النفيس في أجناس التجنيس ، القاهرة ٢٩٦ .

٢ - عقيدته الإسلامية :

كان الصفي مسلماً يفخر باسلامه ، ولا عجب لقد كان آباؤه وأجداده من المدافعين عن حمى الاسلام ، ومن نشره في مختلف البلاد في الفتوحات العظيمة التي اندفعوا فيها يحاربون الشرك في بلاد كسرى وقبصر ، ويقاتلون

(١) لا بد لي أن أشير هنا أنني كنت أرغب في نشر هذا الكتاب الثمين ، ولهذا قمت بنسخ كثير من صفحاته حين رجعت الى نسخة جامعة القاهرة وهي نسخة جيدة واضحة الخط . . ولكن أحد المستشرقين سبقني الى ذلك قبل طبع مجي عن صفي الدين نفسه فوجب علي أن أتوه عن طبعته هذه .

لقد نشر هذا الكتاب بمجم العلوم والآداب - لجنة الاستشراق - في ألمانيا ، وقد حققه المستشرق (ولهم هو زياخ) والحق انه قد بذل جهداً عظيماً يحمده عليه ، اذ قابل بين ثلاث نسخ موجودة في (استانبول) و (مونشن) و (منشستر) ولم يكتف بهذا ، فقد جاء العراق ليستمع الى اللغة العامية ويعرف الشيء الكثير مما قد يشكل عليه . وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة فرانز ورشتاينم وبسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ طبعاً أيقاً جيلاً على ورق صقيل وعدد صفحاته ٢١٤ صفحة ، واطافة الى هذا ما يقرب من هذا العدد الترجمة الألمانية التي أجهد المؤلف نفسه بهذا . وفي الكتاب عدة لوحات زكرفرافية تصور بعض صفحات المخطوطات المختلفة .

بقوة صادقة وعزم أكيد . وقد ولد الصفي في مدينة إسلامية صرفة ، أسسها
أمرء مسلمون لا يغيرون هلي شي قدر غيرتهم على الاسلام ، ولا يمتزون
بشيء مثل اعتزازهم بدينهم ، ولا يتغلغل في أعماق نفوسهم شي كما يتغلغل
الايمان القويم ، فكانت الحلة حصناً من حصون الاسلام القوية ، ومشعلاً
من مشاعل العلوم الاسلامية الوفاة .

وحيث ولد الصفي ورأى العلوم الدينية تلقن للأطفال والصبيان لم يجد بدأ
من تلقيا وتفهما ، فأقبل عليها ملتها ، فقويت عقيدته وتغلغل إيمانه في
أعماق روحه ودفن نفسه . حتى رأيناه يمدح بمدوحه بالتدين والايمان والتقوى
والورع ومحافة الله والذب عن حياض الاسلام . قال يمدح الملك المنصور :

ضبع لدين الله منذ علا الاسلام آمنه من الخفض
ضبطت أمور المسلمين به ضبطاً به أمنت من النقص
وقال يمدح الملك الصالح :

رعت أمور المسلمين بهمة رأيت بها مستقبل الأمر ماضيا
وقال يمدح الملك الناصر محمد :

قد عز دين محمد بسعيه وسما بنصرته على الأديان

وحيث كتب إلى قاضي قضاة ماردين (شمس الدين عبد الله بن المهذب) مهتماً
أياه بالحج لم يفس أن يصفه بالايمان والتقوى . قال واصفاً إياه بالصائم المصلي :

كم صيام قرنته بقيام وصلاته وصلتها بصلات

وحيث هنا الملك الصالح بالدار التي عمرها في (ماردين) ، لم يغب عن باله
تدينه فلم ينس أن يذكره بأن الدار يجب أن تشيد على التقوى والايمان ،
لكي لا تكون داراً للدنيا فحسب وإنما يجب أن تكون داراً للآخرة
أيضاً فيقول :

وتسأها مشيدة الأركان

هكذا إن بنى المنازل باني

.....

.....

كل من أسس البناء على تقوى إلهه السماء والرضوان
فليشد قبله البناء كما قد شيدته مناقب السلطان
المليك الذي يرى المن أشراً كما بوصف المهيمن المنان
ذلك لأنه لا يهاب شيئاً ولا يخاف أحداً إلا الله العزيز القدير الذي خلقه
وصوره فأحسن صورته إذ يقول :

لا تسكن خائفاً سوى الله شيئاً إنها من شواهد التوحيد

وكان الصفي يحرّض السلاطين والملوك والأمراء على حرب المغول وجهادهم
ويستنهضهم لطردهم من البلاد الإسلامية وتخليص المسلمين منهم ، وكان يصفهم
بالشرك والكفر ، ويرى أنهم أصل البلاء الذي حل بالمسلمين ، وأساس المحن
التي افتابتهم . وانهم هم الذين انتهكوا حرمة الدين فسببوا هذا التدهور
والأنحطاط . وقد منعه تدينه وشعوره باعتدائهم على الاسلام أن يتصل بهم
وأن يمدحهم . وها هو يشكو إلى الرسول الكريم ما يلقاه المسلمون منهم :

إليك رسول الله أشكو جرائماً يوازي الجبال الراسيات صغيرها

كبائر لو تبلى الجبال بحملها لدكت ونادى بالعبور ثبورها

ولولا تدين الصفي وقوة إيمانه لما تحرّج من شرب الخمر حين اضطرته ظروفه
أن يشربها في بلاط الأرتقيين ، فصار يَحْتال على شربها بالتحليل فيرى أن
الاعتدال في شربها يحللها لأنها تعتبر دواء ، وأن مزجها بالماء يحللها لأنها تفقد
خواصها . وكان لا يشربها في رمضان حتى في المساء .

قلت : شهر الصيام قد جاء والشرب ولو في دجاء - عندي - حرام

وربما تاب إلى رشده وعاد إلى هاتف ضميره الحي اليقظ الذي يفيض بإيمان
قوي بالاسلام ، واعتقاد صادق بتعاليمه ، فأعترف بأن شرب الخمر حرام وأن
الخمر رجس من عمل الشيطان :

فأسقني القهوة التي قيل عنها : إنها من شرائط الشيطان

ويقول حين يهيم بشرب الخمر ، مضمناً قول (الطغرائي) :

« فهل تعين على غيِّ همت به ؟ »

وربما قال إنه ما شربها إلا لوثوقه بأن الله يغفر الذنوب جميعاً :

لا نخف مع رجاء ربك ذنباً إنه يغفر الذنوب جميعاً
ويقول :

ونقّ أن ربّ العرش جل جلاله غفور رحيم للسرائر مدرك
وما كان من ذنب لديك فأنه سيفغره إلا به حين يشرك
ولولا شعوره الديني وإيمانه القوي ، لما تاب عن شرب الخمر :

فبحقي أموت يا مالك الرقّ وأنتي عن المدام عنائي
وتدبّين الصفي هو الذي دفعه إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول
الكريم ، وهناك وفف بين يدي بارئه يدعو قائلاً :

يارب إني دخلت بيتك والداخل بيت الكريم في حسبه
.....

ونستطيع أن نلمس إيمان الصفي بالاسلام وتمصبه له وتعلقه به من مدائح
الكثيرة للنبي الكريم فهو يقول :

غدت تتقاضانا المسير لأنها إلى نحو خير المرسلين مسيرها
ترضّ الحصاصوقالمن سبح الحصا لديّه وحيّاً بالسلام بعيرها
إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دطاها بشيرها
محمد خير المرسلين بأسرها وأولها في الفضل وهو أخيرها

فتراه يصف الرسول الأمين بالصفات التي يمتاز بها كل مسلم حق الاسلام ،
فهو سيد الرسل وخير المبعوثين بالحق والهدى ، وأول الأنبياء فضلاً وآخرهم
وخاتمهم بمنّا . وذكر كل مناقبه وفضائله وعلاماته . فحين ولد خمدت نار فارس
وتزلزل ايوان كسرى وعرش قيصر :

خمدت لفضل ولادك النيران وانشقّ من فرح بك الايوان

وتزول النادي وأوجس خيفة من هول رؤياه (أنوشروان)
فتأول الرؤيا (سطيح) وبشّرت بظهورك الرهبان والكهان
فوضعت لله المهيمن ساجداً واستبشرت بظهورك الأكوان
فرأت قصور الشام (آمنة) وقد وضعتك لا تخفى لها أركان
ولو انني وفيت وصفك حقه فني الكلام وخانت الأوزان
فعليك من رب السماء سلامه والفضل والبركات والرضوان
أفليست هذه عقيدة المسلم المؤمن ايماناً راسخاً بدينه المعترف بفيه ؟

٣ - تشيعه :

كان المسلمون في هذا العصر قد انقسموا إلى فرق ومذاهب مختلفة ، فهناك الشيعة وأهل السنة ، وهناك المعتزلة والخوارج . . . وكان لكل فرقة فقه خاص وعلماء مجتهدون في فقههم ، ألفوا الكتب الطوال وكانت لهم الحجج والبراهين على صحة آرائهم ، وكانوا يخالفون الفرق الأخرى الرأي ، فيجادلونهم ويردون على آرائهم ، وربما كفروا غيرهم وجردوهم من الاسلام ، فوقعت بسبب ذلك الحروب الكثيرة بين المسلمين . . . قالى أي فرقة مال الصني ؟ .. وأي مذهب اعتقد ؟

كان الصني شيعياً إمامياً لاشك في ذلك ؟ وقد قال عنه هذا معظم الذين ترجموا له ، فقد قال (صلاح الصفدي) : « . . . انه كان شيعياً ، وليس هذا الأمر في الحلة بدهياً » . ورأى الجميع مثل رأي الصفدي ، إلا أن (ابن حجر العسقلاني) لم يرض بذلك . فقد قال : « . . . وكان يتهم بالرفض وفي شعره ما يشر به ، وكان مع ذلك يتنصل بلسان ، وهو في أشعاره موجود » .

وابن حجر هنا يعني بالرفض التشيع بصورة طامة ، فهو لا يفرق بين مذاهب الشيعة المختلفة ، لا يفرق بين الشيعة الامامية والغلاة الرافضة وغيرهم . والدليل على ذلك ، أنه قال معتمداً على شعر الصفي ، ولا نجد في شعر الصفي أي غلو ولا أي تعصب لمذهبه ، كما وجد عند غيره من الشعراء الذين كانوا يتعصبون تعصباً أعمى دون تعقل ، ويؤمنون بخرافات لا أساس لها من الصحة ، والمذهب الشيعي منها براء ، وربما كان منهم من يؤله (علياً) إلى غير ذلك مما لا يرضى به (علي) نفسه . ونجد أن آثار التشيع التي ظهرت في شعر الصفي معتدلة كلها ليس فيها أي حرج ، وليس هناك أي داعٍ للتنصل عنها . وما دام ابن حجر قد اعتمد على ما في شعر الصفي (لاتهامه) بالرفض والغلو ، فإننا نعتد على شعره أيضاً لنقول إنه ما كان مغالياً وإنما كان شيعياً إمامياً . فالمذهب الشيعي لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى في شيء من صميم الدين ، فهي متفقة كلها على أساس الدين ومبادئه العامة وأركانه ، ولا تختلف في صلب الدين . فكما تستمد تعاليمها من الشجرة الحمديدية الطيبة ، وكل ما هنالك من خلاف ، فهو في المسائل الفرعية فحسب . كالخلاف بين الحنفية والشافعية ، أو بين المالكية والحنبلية . اللهم إلا الخلاف في مسألة الخلافة والامامة ، فالامامية يقولون بامامة (علي بن أبي طالب) (رضي الله عنه) بعد النبي نصاً ظاهراً وتعييناً صادفاً من غير تعريض بالوصف بل بالإشارة إليه بالعين . ولا يرون شيئاً أهم في الدين من تعيين الامام حتى لا يفارق النبي أمته دون أن يكون لها أمير يوحد كلمتها ويدير سياستها ، فلا تذهب مذاهب شتى ويتفشى فيها الخلاف^(١) . وليس هنا مجال البحث في ذلك أو التوسع فيه ، وإنما نريد أن نشير إلى أن المذهب الشيعي لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى إلى درجة الاعتقاد بأرب الشيعي المذهب خبيت الاعتقاد ، وأن من تشيع قيل إنه يتهم بذلك ، وأن هذه التهمة

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٢٢

يجب أن تنفي عن الرجال الفضلاء - كما يقول بعض الباحثين - وقد جاء الاسم من التشيع لآل البيت - وخاصة الامام علي بن أبي طالب - وجبههم جميعاً ، وهل حب آل البيت جريمة يتهم بها المرء ؟

ولم لا يكون الصفي شيعياً وقد ولد في الحلة ؟ وكانت الحلة مركزاً لعلماء الشيعة وموطناً لمدارس الفقه الامامي ، ومنبعاً لعلومهم ومعارفهم ؟ فكانت المنار الذي أضاء العالم الاسلامي ومنق سجع الظلام الدامس الذي ادلم عليهم في هذه الفترة من الزمان . وخرجت منها المؤلفات العظيمة تحمل بين طياتها أقوم المناهج وأوضح السبل في أمور الدين والدنيا . كيف لا وإن الذين أسسوا الحلة ، وهم الأمراء المزيديون ، كانوا من الشيعة الامامية المتمصبين ، المشهورين بحبهم لعلي وآل علي ، المعتقدين اعتقاداً راسخاً أنهم أحق الناس بامامة الناس ؟ لأنهم أهل العلم والفضل والتقوى والورع . فنذ القديم ، قبل أن يستوطنوا الحلة ويتخذوها عاصمة لهم ، وقد كانوا قرب البصرة ، استطاع أميرهم (أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي) أن يسعى لدى الخليفة العباسي سنة (٣٩٨ هـ) لارجاع (الشيخ المفيد) فقيه الشيعة الامامية في بغداد ، حين أخرجه الخليفة من بغداد بعد الفتنة التي وقعت بين الشيعة والسنة ، ولم يسع الحكومة إذذاك إلا أن نجيب طلب الأمير المزيدي ، وتعيد الفقيه الشيعي إلى مكانه ومكانته .

وحين أراد السلطان المغولي (محمد خدابنده) - خربنده - أن يعرف حقيقة المذهب الشيعي أشار عليه أحد أصحابه أن يرسل إلى أهل الحلة ليعيشوا إليه بعالم من علمائهم يبسط له مبادئ هذا المذهب . فأرسلوا العلامة الحلي (جمال الدين أبو منصور) فاستطاع أن يحبب إليه المذهب الشيعي فاعتقده وتمصب له ، وتشيع معه جمع غفير من أقاربه وأصحابه^(١) .

وهذا الشاعر عبدالرحمن السكناني المتوفى سنة (٦٢٩ هـ) يقول في (راجح الحلبي الأسدي) :

يقولون لي ما بال حظك ناقصاً لدى راجح رب السماحة والفضل
فقلت لهم : إني سميُّ ابن ملجم وذلك إسم لا يقول به حلبي^(١)
ومعروف أن (ابن ملجم) هو الخارجي الذي قتل الامام علياً (رضي الله
عنه) فهل هناك أحسن من هذا الدليل على تشيع الحلبيين ؟

وظلت الحجة على عقيدتها ومذهبها الشيعي الامامي حتى اليوم . يتعالى على
مآذنها اسم علي بعد ذكر النبي الكريم ، ويتردد على منابرها ذكر آل البيت
الكرام ، وتتل في محافلها مناقبهم الكريمة وتذكر مواقفهم المحيية في الدفاع
عن الاسلام ، كذكر واقعة الطف التي استشهد فيها مع الامام (الحسين بن
علي) أهل بيته الأتجاف في سبيل الحق والعدالة والحرية والواجب .

فالصفي الذي ولد في هذه البيئة لا بد أن يتأثر بها ، ولا بد أن يعتنق
مذهبها ، وفوق هذا كله فقبيلته كانت علوية منذ القديم ، منذ الخلاف بين
علي ومعاوية - الكثير منهم أنصار معتدلون ، والقليل منهم شيعة متعصبون -
وهل يذهب العربي إلا مذهب الذين انحدر من صلبهم ، وهل يتبع إلا سنتهم ؟
خاصة إذا كانت مما يرضي الله ويرضي الرسول ، وماذا يرضي الرسول أكثر
من حب آل بيته الكرام رعاة الدين وحفظة تراثه المجيد ؟

فالصفي يقول مبيناً حبه لآل البيت مخاطباً النبي (ﷺ) :

وآلك الفرر السلائي بها عرفت سبل الرشاد فكانت مهتدى الفرق
ويقول :

يا عترة المختار يا من بهم أرجو نجاتي من عذاب أليم
حديث حيي لكم سائر وسرودي في هواكم مقيم

(١) فوات الوفيات لابن شاعر الكندي ج ١ ص ٢٥٧ .

قد فزت كل الفوز إذ لم يزل صراط ديني بكم مستقيم
فرأى أني الله بعرفانكم فقد أنى الله بقلب سليم
وهل بعد هذا التصريح بتشيعه وميله إلى آل البيت من برهان ؟ فهو
يرى أن دينه مستقيم بحجه لآل البيت ، وأنه سيق ربه بقلب سليم لأنه
يعرف فضلهم .

وقد رد على قصيدة ابن المعتز العباسي التي قالها في العلويين بحجج قوية لا
تصدر إلا عن إيمان عميق واعتقاد راسخ . وخطب الصفي في هذه القصيدة
العباسيين قائلاً :

بكم باهل المصطفى أم بهم فرد المداة بأوصابها
يشير إلى المباهلة التي جرت بين الرسول (ﷺ) وبين بعض أحبار
النصارى ، وقد خرج النبي ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين ، فرد كيد
خصومه إلى محورهم فولوا مدبرين .

فالصفي إذاً شيعي إمامي ، وقد ظهرت آثار تشيعه في شعره . فكان
يصرح بحبه للإمام علي فيقول :

توالّ علياً وأبناءه تفرّ في المعاد وأهواله
إمام له عقد (يوم الغدير) بنصّ النبي وأقواله
له في التشهد بعد الصلاة مقام يجبر عن حاله
فهل بعد ذكر آل السهاه وذكر النبي سوى آل ؟
فجلى أنه يصرح بأن ذكر علي وآل علي في الصلاة فرض واجب ، ويرى
أن حب علي واجب على كل مسلم ومسلمة .

والشيمة يقولون : « لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار » والصفي
يعتقد بهذا اعتقاداً جازماً وإلا لما قال :

وانثنى باكياً يقبل كفه يهوى طوراً على القدمين

قائلاً : إن عفوت قبيل كما فيه - وما شاع عنك في الخلفين
إن في رتبة الفتوة أصلاً لك يُعزى إلى (أبي الحسين)
وكذلك نرى في شعره اقتباساً للأحاديث الشريفة التي تروى في فضائل
الامام علي وعلمه . قال مخاطباً الرسول :

مدينة علم وابن عمك بابها - فن غير ذلك الباب لم يؤت سورها
فراه يشير بهذا البيت إلى الحديث الذي قاله الرسول : « أنا مدينة العلم
وعلي بابها . . . »

ويرى الامامية أن النبي أوصى لعلي من بعده فهو وصيّه وخليفته وهذه
الوصية كانت في مواضع شتى ، منها التصريح ومنها التعريض ، وأما تصريحه ؛
فبإيمته علياً في (غدير خم) بعد أن نزل عليه : « يا أيها الرسول بلغ ما
أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت الرسالة » إذ قال : « من كنت
مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وواد من عاداه وانصر من نصره
واخذل من خذله وأدر الحق حيث دار » . وقد قام عمر بن الخطاب فهناً
قائلاً : « طوبى لك يا علي أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة^(١) » . يقول
الصفي في هذا :

إمام له عقد (يوم الغدير) بنصّ النبي وأقواله
ويقول أيضاً :

وأخيك في يوم الغدير وقد بدا نور الهدى وتآخت الاخوان
ويقول :

صاحب النصّ والأدلة والاجماع في المشرقين والمغربين
واختيار الرسول لعلي وصياً له كان بأمر الله ووحى من عنده :
فوالله ما اختار الآله محمداً حبيباً وبين العالمين له مثل
كذلك ما اختار النبي لنفسه علياً وصياً وهو لا يفتنه بعلم

(١) الملل والنحل لشمس التاني ج ١ ص ١٢٢ .

وصيره دون الأنام أخاً له وصنوا وفيهم من له دونه الفضل
وشاهد عقل المرء حسن اختياره فما بال من يختاره الله والرسول ؟
ووصفه بالصفات التي يرتفع بها عن منزلة الناس جميعاً ، ويأتي بمنزلة بعد
منزلة الرسول ، فنزهه عن كل خطأ ، ووصفه بكل وصف عظيم ، ناظماً
كلام (ابن عباس) في الامام علي :

جُمِعَتْ في صفاتك الأضداد فلهذا عزت لك الأنداد
زاهد حاكم ، عليم شجاع ناسك فأنك ، فقير جواد
شيم ما جُمِعَ في بشر قط ولا حاز مثلن العباد
خلق ينجل النسيم من اللطف وبأس يذوب منه الجاد
.....

ويرى الشيعة أن الله قد عصم آل البيت من الخطأ ، إذ قال عز من قائل :
« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ولا يرون
معنى لهذا التطهير غير العصمة عن الخطأ ، ويقولون إنها نزلت في علي وفاطمة
والحسن والحسين فحسب ، أي ليس في غير بيت علي . وقد قال الصفي في
هذا المعنى :

إنما الله عنكم أذهب الرجس فردت بغيظها الأضداد
ورأى الصفي مرة رجلاً سمي الخلق يدعي أنه علوي ، فغضب لذلك أشد
الغضب وقال ساخراً منه :

قال النبي مقال صدق لم يزل يجري على الأسماع والأفواه
من غاب عنكم أصله ففعاله تنبيكم عن أصله المتناهي
وسفرت عن أفعال سوء أصبحت بين الأنام قليلة الأشباه
وتقول إنك من سلالة حيدر أفأنت أصدق أم رسول الله ؟
فراه يدافع عن كرامة أهل البيت وحسن خلقهم وكرم أصلهم ويثبت

عصمتهم .

ومن عقائد الصفي الشيعية ، شفاعة آل البيت لمحببيهم عند الله واستجابته
سبحانه لهذه الشفاعة :

يا عترة المختار يا من بهم يفوز عبد بنو الاكم
أعراف في الحشر بجي لسكم إذ يُعرَف الناس بسيامهم
لهذا كان مدحه للرسول وآل بيته من باب الداء وطلب الشفاعة في يوم
الحشر . يقول :

أشكو اليك ذنوب نفس هفوها طبع عليه رُكِبَ الانسانُ
فاشفع لعبد شاناه عصيانه إن العبيد يشينها العصيان
فلك الشفاعة في محبكم إذا نُصِبَ الصراطُ وُعُلِقَ الميزان
فلقد تعرض للاجازة طامعاً في أن يكون جزاءه الغفرانُ
ويقول :

وبين يدي نجواي قدمت مدحة قضى خاطري ألا يخيب خطيرها
أجرني أجرني واجزني أجر مدحتي ببرد إذا ما النار شب سمرها
والصفي حين يريد أن يعلي قدر انسان ويحمله يصفه بأنه علوي ، فحين رثي
السيد النقيب (غياث الدين عبدالكريم) قال :

وتخطو إلى عبدالكريم خطوبه ويطلب منا اليوم غفران ذنبه
سليل النبي المصطفى وابن عمه ونجـل الوصي الهاشمي لصلبه
وقال في رثاء السيد (النقيب مجد الدين أبي الفوارس) :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد وأيدي المنايا لا يطاق لها ردُّ
سليل صفي المصطفى وابن سبطه لقد طاب منه الأم والأب والجَدُّ

ويجب أن نلاحظ أن الصفي كان معتدلاً في تشييمه منصفاً في اعتقاده ،
فهو ليس مغالِباً ولا متعصباً تعصباً أعمى ، شأنه في ذلك شأن عقلاء الشيعة
الدين يسرون على مبادئ المذهب الحققة دون أن يدخلوا فيها التعصب

والخرافات ، ودون أن يرموا غيرهم من المذاهب الاسلامية الاخرى بالكفر
والخروج عن الدين ، فكان الصفي يحب الصحابة جميعاً ويقدرهم حق قدرهم
إذ يقول فيهم :

ولأني لآل المصطفى عقد مذهبي وقلبي من حب الصحابة مفعم
وما أنا ممن يستجيز بحبهم مسبة أقوام عليهم تقدموا
فهو موال لآل البيت ، يحب الصحابة ، ولكنه لا يستجيز بحبهم مسبة
أحد ، فيذهب بهذا مذهب الشيعة الحق ، الذي لا يرضى بلعنة أحد من
المسلمين . فقد روي عن الامام جعفر الصادق (رض) الفقيه الأول للشيعة
الامامية أنه نهى عن سب الخلفاء وغيرهم من الصحابة فقال الشاعر الشيعي في
هذا المعنى :

فلا تستبوا (عمرأ) كلاً ولا (عثمان) والذي تولى أولاً (١)

.....

وكان الصفي يقول في الصحابة أيضاً :

قيل لي : تعشق الصحابة طراً أم تفردت منهم بفريق ؟

فوصفت الجميع وصفاً إذا ضوء ع أزرى بكل مسك سحق

قيل : هذي الصفات والكل كالدر ياق يشفي من كل داء وثيق

قال من؟ قيل ، فقلت : إلى الأربع لاسيما إلى الفاروق

ورأينا الصفي لا يظهر أثر فقه الشيعة في شعره ، بينما ظهرت آثار

دراسته الفقه الاسلامي ، فقد ذكر القياس وغيره من اصطلاحات الفقهاء

وتعبيراتهم المختلفة . وربما كان للسنوات الطوال التي قضاها في ماردين مع

أناس ليسوا من الشيعة ، أثر في ذلك فجعله يرى أن جميع المذاهب سواء

وأن الاعتقاد في القلب ، وأن الدين لله وحده .

وربما كان أثر ذلك أصدق وأعمق فرأينا الصفي يعزف عن أم ما يمتاز به

(١) أي الخليفة أبو بكر الصديق .

شمره الشيعه وهو رثاه (الحسين بن علي) وأصحابه الأبطال شهداء الطف ،
والتفجع عليهم ، والتغني ببطولاتهم الغذة ومواقفهم المجيدة وتصوير مآساتهم
الفاجمة أعظم مآسي التاريخ الاسلامي في شعرهم ، فلم نجد لهذا في شعره أي
أثر ، بالرغم من أنه كان يقول الشعر في شهر (محرم) بل وقد رثى من توفي
في يوم عاشوراء ، كرتائه للسيد الشريف حماد الدين ناصر بن محمد الدلقندي
وقد توفي يوم عاشوراء من عام (٧٤٦ هـ) فقال :

اليوم زعزع ركن الدين وانهدما فحق للخلق أن تذري الدموع دما
... الى أن يقول :

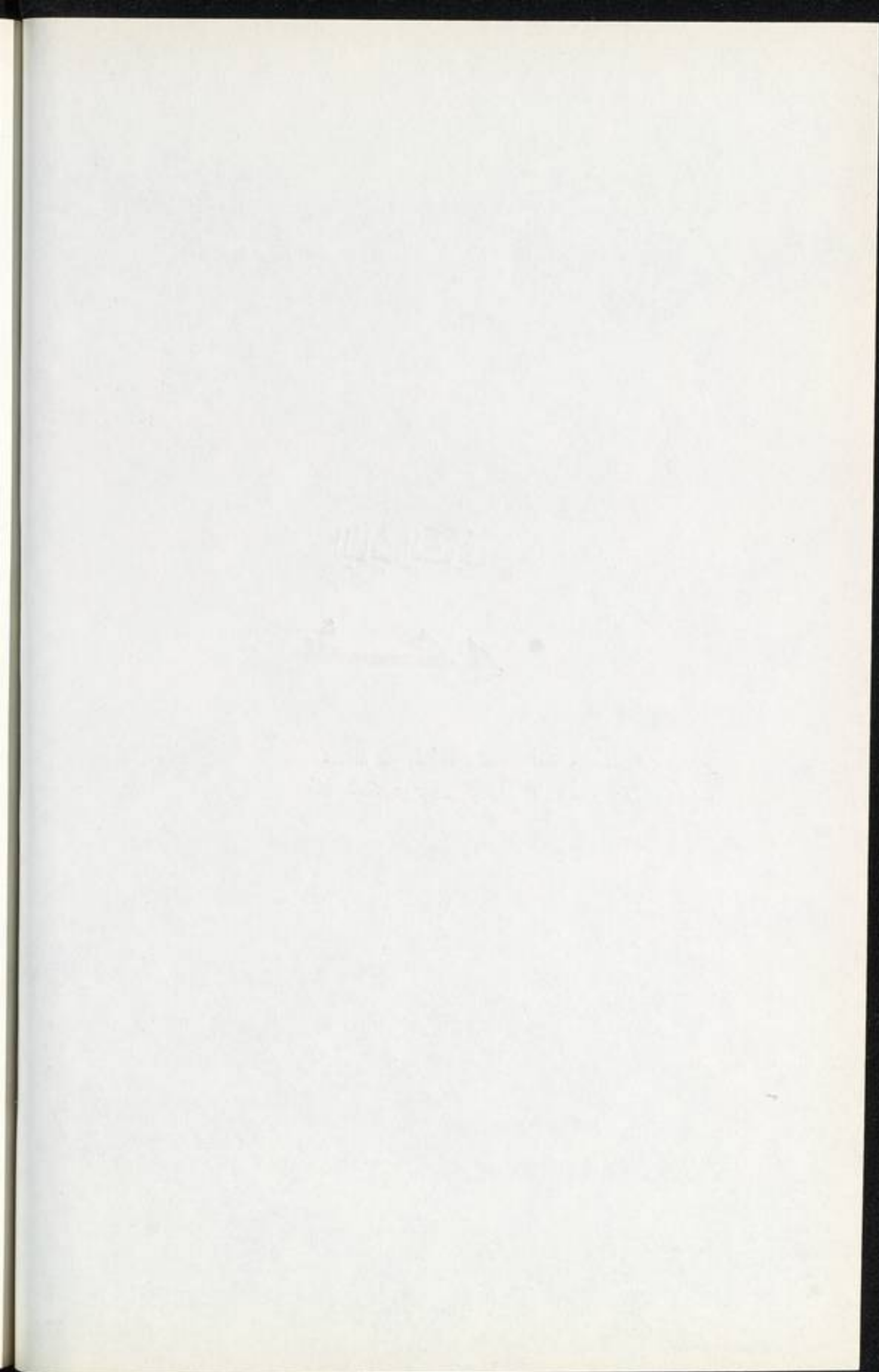
يا ابن الأئمة والقوم الذين سموا على الأنام فكانوا للهدى علما
مثواك في يوم عاشورا بخبرنا بقرب أصلك من آباءك الكرما
وخلقت السبط يا ابن السبط حن له فيوم مصرعه من بيننا اخترما
فهو يتألم للحفيد ، ولا يرثي الجد الشهيد !!



الباب الثاني



صفت الفريش ولم أقله تكلفاً
أبكار أمكاري تزف كواعباً
لكنه طبع لدي عزيز
لا كاهتار تزف وهي عجوز



الفصل الأول

آثاره الشعرية

أهدي قلائد أشعار فرائدها در نهضت به من أبحر عمق
نظمتها بك ديواناً أرف به مدائحاً في السوى عليك لم ترق
لم أقتنع بالقواني في أواخرها حتى لزمتم أواليها فلم تقمق

١ - الديوان :

جمع الصفي ديوانه بنفسه في القاهرة ، في بلاط الملك (الناصر محمد بن قلاوون) وقد رتبته حسب موضوعاته فجعله في اثني عشر باباً :

الباب الأول : في فصلين - الأول في الفخر والحماسة ، والثاني في التحريض على الرياسة .

والباب الثاني : في فصلين - الأول في المديح ، والثاني في الشكر والتهاني .

والباب الثالث : في فصلين - الأول في الطرديات ، والثاني في الوصف .

والباب الرابع : في فصلين - الأول في الاخوانيات ، والثاني في صدور المراسلات .

والباب الخامس : في فصلين - الأول في المراني ، والثاني في التعازي .

والباب السادس : في فصلين - الأول في الغزل أبو الفسيب ، والثاني في طرائف التشبيب .

والباب السابع : في ثلاثة فصول - الأول في الحمريات ، والثاني في الدعوة إلى الشرب ، والثالث في الزهريات .

والباب الثامن : في ثلاثة فصول - الأول في الشكوى والعتاب ، والثاني في تقاضي الوعود ، والثالث في تقاضي أجوبة الكتب .

والباب التاسع : في ثلاثة فصول - الأول في الهدايا ، والثاني في أحوال شتى ، والثالث في الاستعطاف والاستغفار .

والباب العاشر : في ثلاثة فصول - الأول في العويص ، والثاني في الألغاز ، والثالث في تقييد ضوابط العلوم والفنون .

والباب الحادي عشر : في ثلاثة فصول - الأول في الملح المستطرفة ، والثاني في الأهاجي ، والثالث في الاحماض والمجون .

والباب الثاني عشر : في ثلاثة فصول - الأول في الأدب والحكم ، والثاني في الزهديات ، والثالث في نوادر مختلفات .

وقدم صفي الدين هذا الديوان بمقدمة أولها : « الحمد لله الذي علم الانسان البيان ومن عليه ، والصلاة على نبيه محمد الذي مدح الشعر ودعا لناظمه وإليه ، وعلى آله أهل البيت خزنة علمه الأمانة على ما لديه ، وعلى خير صحبه القافية أثره المجاهدين بين يديه . . . الخ » .

وقد بين الصفي في هذه المقدمة شيئاً من الحوادث التي مرت به في حياته ، وافتتانه بالشعر منذ صباه وانجابه ببعض الأغراض وتركه البعض الآخر وجمعه الديوان وتدوينه . . . إلى آخر ما هنالك .

وطبع هذا الديوان مرتين ، الأولى في دمشق سنة (٥١٣٩٠ - ١٨٣٣ م) والثانية في بيروت سنة (١٨٩٣ م) .

وعدد صفحات الطبعة الأولى (٥٧٢) صفحة في كل صفحة (٢٣) بيتاً أما الطبعة الثانية فعدد صفحاتها (٥٢٨) صفحة في كل صفحة (٢٤) بيتاً . وقد ضمت طبعة دمشق كل أبواب الشعر حتى الاحماض والمجون ، لكن ناشرها أبي إلا أن يؤخر فصل الاحماض والمجون إلى آخر الديوان وقد أشار إلى ذلك في موضعه . بينما حذف هذا الفصل في طبعة بيروت . وأضيف إلى

الديوان في الطبعتين « ديوان درر النحور في مدائح الملك المنصور »
- القصائد الأرتقيات - والسكافية البدعية ، وبعض رسائل الصفي إلى
السلطين وبعض إخوانه وأصدقائه^(١) .

وكل من هاتين الطبعتين رديئة ، فالديوان مليء بالأخطاء والتحريف
والتصحيف والزيادة والنقص ، مما يجعل الأوزان مكسورة والمعاني غير صحيحة
وهناك كثير من الأبيات انقلب معناها إلى عكسه .

والصفي نفسه يصرح بأن هذا الديوان لا يضم شعره كله إذ يقول في
مقدمته : « واستحضرت ما حضرني حسب الاستطاعة ، واخترت منه ما يجب
ويبتغي » فغنى هذا أنه قد نسي بعض هذا الشعر ، وأنه ترك البعض الآخر
منه متعمداً . ولكن لا ريب في أن هذا الشعر المتروك لا أهمية له ، ولا ريب
أنه ليس كثيراً بحيث يؤثر فقده في الأحكام التي تستنبط من دراسة الديوان .
ولا شك أن الصفي قد نظم الكثير من الشعر بعد أن جمع ديوانه سنة (١٧٢٦هـ)
تقريباً ، وقد ضمت هذه القصائد أو بعضها - إن لم تكن كلها - إلى الديوان .
فإننا نجد فيه قصائد ظاهراً بعد هذا التاريخ ، فهناك قصيدة في مدح الملك الصالح
أرسلها إليه من دمشق سنة (١٧٢٧هـ) مطلعها :

إذا لم تعني في علاك المدائح فن أين لي عذر عن البعد واضح

(١) وقد طبع مرة أخرى في النجف الأشرف سنة ١٩٥٦ م (سنة ١٣٧٥هـ) في
المطبعة العلمية . وعدد صفحات هذه الطبعة (٥٥٢) صفحة ، وهذه الطبعة - كما بقاها -
ملائي بالأغلاط المختلفة . وبالرغم من أن الناشر قد كتب في أول صفحة من الديوان وفي
مكان بارز : « قوبلت على عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة » إلا أنه يخيل لي أن هذه الطبعة
اعتمدت على طبعة دمشق ليس إلا ، فقد شابهتها مشابهة تامة في كل شيء ، في التنسيق
والترتيب ووضع (البدعية) و (القصائد الأرتقية) وتأخير فصل (الأحاديث والمجون) . .
وحتى الملاحظات الثلاث التي في طبعة دمشق حول الغرض من تأخير فصل المجون كتبت
لمحرف الواحد وبأمانة تامة في هذه الطبعة ، مما يدل دلالة أكيدة أن المنعول عليه الأول
والأخير هو طبعة دمشق لا غير .

وقصيدة أخرى في مدحه أيضاً سنة (٥٧٣٠ هـ) بدأها بقوله :

أيامك العصر الذي شاع فضله وبابن ملوك العرب والمعجم والترك
ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى سنة (٥٧٣٩ هـ) مطلعها :

زُرُوجَ الماءِ بابتة العنقود فأجملت في قلائدٍ وعقود
وهناك موشحة بهنته فيها بالعيد سنة (٥٧٤١ هـ) :

لما شدت الورق على الأغصان بين الورق

ورثي للملك الناصر عند وفاته سنة (٥٧٤٢ هـ) بقصيدته التي مطلعها :

وفي لي فيك الدمع إذ خاني الصبر وأنجد فيك النظم إذ خاني النثر
وله في رثاء الأمير (حماد الدين ناصر بن محمد الدلقندي) الذي توفي سنة
(٥٧٤٦ هـ) قصيدة يبدأها بقوله :

اليوم زعزع ركن الدين وانهدما فحق للخلق أن تذري الدموع دما
وهذا الديوان غزير الشعر متشعب المواضيع يستحق العناية والاهتمام والدرس
والتحقيق .



وفي دار السكتب المصرية أربع نسخ خطية من ديوان الصفي :

اللسخة الأولى : تحت رقم (٥٣٥) أدب . وأضم (٢٤٤) ورقية أي
(٤٨٨) صفحة في كل صفحة ٢١ بيتاً طول الورقة ٢٢ سم ، وعرضها ١٦ سم .
طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٨ سم وعرضه ١١ سم . وأوراق هذا
المخطوط بيضاء سميكه في حالة جيدة . قد كتبت عناوينه بالحبر الأحمر . وهو
مكتوب بقلم معتاد بخط (عبداللطيف محمد) ، قد فرغ من كتابته في ١٤
ذي الحجة سنة (١٢٨٤ هـ) . وليس فيها تعليقات على الهوامش إلا نادراً .
وقد أضيفت إليها القصيدة البديعية .

وأما اللسخة الثانية : فرقها (١٢٦٩) أدب وتشتمل على (٣٣٦) ورقة
أي (٦٧٢) صفحة ، في كل صفحة ١٥ بيتاً . طول الصفحة ٢٠ سم ،

وعرضها ١٣ سم . طول الجزء المكتوب ١٦ سم وعرضه ٩ سم . وورق هذا المخطوط أصفر صقيل حالته جيدة ، ولم يضاف إليه السكاتب السكافية البدئية ، وعليه شرح ألفاظ القصيدة الساسانية . مكتوب بخط قديم معتاد . الصفحة الأولى منه مزخرفة . كتبت العناوين بالحرير الأحمر . وفي الهوامش تعليقات وتصحيحات وشروح .

وأما النسخة الثالثة فرقها (١٣٩٩) أدب وعدد أوراقها (٢٨٣) ورقة أي (٣٦٦) صفحة ، في كل صفحة ٢١ بيتاً ، طول الورقة ١٩ سم ، وعرضها ١١ سم . طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٥ سم وعرضه ٧ر٥ سم . ورق هذه النسخة أصفر قاتم سميك قديم ، فيه الكثير من التلف والترقيق . لكن الناقص من الكتابة قليل جداً . وليس فيها تعليقات على الهوامش إلا نادراً جداً . ولم يضاف السكاتب إليها القصيدة البدئية . وقد شرح ألفاظ القصيدة الساسانية . كتبت عناوينها بالمداد الأحمر . ولم يذكر تاريخ كتابة هذا المخطوط أو الفراغ من ذلك ، ولعله من المخطوطات القديمة .

أما النسخة الرابعة : فنحت رقم (٥٠٩٥) أدب وتضم (١٩٨) ورقة أي (٣٩٦) صفحة ، في كل صفحة ١٣ بيتاً طول الصفحة ٢٤ر٥ سم وعرضها ١٨ سم . طول الجزء المكتوب منها ١٧ر٥ سم وعرضه ١٢ سم . ورقها أصفر سميك في حالة جيدة . كتبت بخط نسخ بقلم معتاد قديم مشكول بالحركات وعناوينها مكتوبة كلها بالمداد الأزرق . في الصفحة الثانية بياض وبها ترقيق قليل . تناقل هذه النسخة كثير من الناس كتبوا أسماءم عليها . فيها نقص كثير في المقطوعات والقصائد كالمقطوعات التي يمدح الصفي فيها الرسول وآل البيت والصحابة ، ومقطوعات الهجاء ، وغير ذلك ، والفصل الأول من الباب العاشر غير موجود منه سوى أبيات قليلة جداً . وبالرغم من هذا فإن أحد مالكي هذه النسخة كتب عليها : « هذه النسخة قديمة جداً جداً » . وكل هذه النسخ تبدأ بالمقدمة وتنتهي بالفصل الثالث من الباب الثاني عشر .

ولا يوجد في واحدة من هذه النسخ الأربع شيء من رسائل الصفي أو القصائد
الأرتقيات . وفيها جميعاً كثير من الخطأ والتصحيف والتحريف . وهناك
اختلافات كثيرة بين هذه النسخ . وعلى سبيل المثال أخذت رأيته في مدح
الرسول وقارنتها بين هذه النسخ لتبين تلك الخلافات .

فعدد أبيات هذه القصيدة في النسخ : الأولى والثانية والرابعة ٩٠ بيتاً
أما في النسخة الثالثة فهو ٩١ بيتاً لأن فيها بيتاً ليس موجوداً في النسخ الأخرى
حتى المطبوعة منها وهو :

إلى ملك ظل الغمامة حيره إذا ظلت صيد الملوك حبورها
وقد ورد بعد البيت :

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها
وقد سقطت من ناسخ النسخة الثالثة هذه الأبيات :

نظرنا فأعدتنا السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها
وزرنا فأسد الحي تذكي لحاظها ويسمع في غاب الرياح زئيرها
فيا ساعد الله المحب لأنه يرى غمرات الموت ثم يزورها
وقد كتبها على الهامش . وسقط من ناسخ النسخة الرابعة بيتان كتبها في
الهامش أيضاً وهما :

حروف كتونات الصحائف أصبحت تخط على طرس الفيا في سطورها
إذا نظمت نظم الفلاهد في البرى تقلدها خضر الربى ونحورها

ونجد في النسخ الثلاث : الثانية والثالثة والرابعة هذا البيت :

نغار من (الطيف) للمم حمتها ويغضب من مر النسيم غيورها
أما في النسخة الأولى فهو :

نغار من (الطرف) للمم حمتها ويغضب من مر النسيم غيورها
وهذا البيت في الأولى والثالثة :

نظرنا (فأعدتنا) السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها

نجده في الثانية :

نظرنا (فأعدتنا) السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها
وفي النسخة الرابعة :

نظرنا (فأعدتها) السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها
وهذا البيت في النسخة الأولى :

(وهمّت) بنا لولا غداثر شعرها خطى الصبح لكن قيده (ضفورها)
وفي الثانية والثالثة :

(وهمّت) بنا لولا غداثر شعرها خطى الصبح لكن قيده (ظفورها)
وفي الرابعة :

(وسمت) بنا لولا غداثر شعرها خطى الصبح لكن قيده (سفورها)
وهذا البيت في النسخة الأولى :

ترضُ (الحصى) شوقاً لمن سبَّح (الحصى) لديه (وحي) بالسلام بعيرها
وفي الثانية والرابعة :

ترضُ (الحصى) شوقاً لمن سبَّح (الحصى) لديه و (حيا) بالسلام بعيرها
وفي الثالثة :

ترضُ (الحصا) شوقاً لمن سبَّح (الحصا) لديه و (حي) بالسلام بعيرها
إلى آخر ذلك من الخلافات والتصحيح والأخطاء الشنيعة في كل النسخ مما يدل
على أننا في حاجة إلى طبعة جديدة من الديوان ، طبعة علمية تقابل فيها
النسخ المختلفة .

وفي مكتبة المتحف العراقي في بغداد ، نسخة مخطوطة رقمها (٢٢٤٧)
وتضم (٢٦١) ورقة أي (٥٢٢) صفحة في كل صفحة (٢١) بيتاً طول
الورقة ٢١ سم وعرضها ١٥ سم . وأوراق هذا المخطوط بيضاء سميكه ، بمضها
ممزق وفيه ترقيع ، مكتوبة بخط نسخي بالمداد الأسود ، وقد كتبت
العناوين بالمداد الأحمر ، ليس فيها من التعليقات والشروح إلا النادر ، ولكن

القصيدة الساسانية مشروحة . تبدأ بالمقدمة ، وقد سقطت عدة ورقات من آخرها . كتبت في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ، لكننا لا نعرف اسم الناسخ . وقد جمع الناسخ القصيدة البديمية مع مدائح الرسول إذ بدأ هذا الفصل بها ، كما أنه أضاف القصائد الأرتقيات - درر النحور في مدائح الملك المنصور - إلى فصل مدح السلاطين . وهناك الكثير من الغلط والتحريف ، وقد أخذت قصيدته النونية في الحماسة على سبيل المثال فوجدته بدأها هكذا :

(سل) الرماح العوالي عن معالينا (واستشهد) البيض هل خاب الرجاينا ؟
(وسائل) العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر عبيد الله أيدينا
لما سمينا (فاركت) عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا
وهو :

لما سمينا فما (رقت) عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا
وأما البيت :

قوم إذا استخصموا كانوا فراغة يوماً وإن حكموا كانوا موازينا
فقد جملة هكذا :

قوم إذا استخصموا كانوا فراغة وإن هم حكموا كانوا موازينا

وفي المراق كثير جداً من مخطوطات هذا الديوان تفصلاً بها المكتبات الخاصة والعامّة في النجف وكر بلاه والحلة والموصل^(١) وغيرها من المدن . . . وهناك نسخ أخرى كثيرة منتشرة في مكتبات أوروبا ، يذكر (بروكلمان) أن نسخة موجودة في باريس (٣٢٠٥) وفي برلين (٢٨٥١ و ٧٨٥٨) وفي مكتبة المتحف البريطاني (١٠٨٥) كما أن في إيران عدداً غير قليل منه .

(١) هناك نسخة في مكتبة مدرسة الحاج حسين في جامع السلطان اويس في الموصل .

رقم (١) ونسختان في مدرسة عبدالرحمن جلي الصائغ في مسجد الامام ابراهيم (١٥) و(٣١) .

٢ - دور النحور في مدائح الملك المنصور :

حين حظّ الصفي الرحال في (ماردين) ، وقوبل بالاجلال والاكرام ،
حركت هذه المعاملة الطيبة عاطفته ، فنظم للملك المنصور ديوان شعر عظيم سماه
(دور النحور في مدائح الملك المنصور) التزم فيه أن يكون أول البيت مثل
قافيته فحرف الروي هو نفس الحرف الذي يبدأ به البيت ، فحين يبدأ بالألف
يقول :

أبت الوصال مخافة الرقباء	وأنتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودة	وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيت بزورها النفوس وطالما	ضفت بها فقضت على الأحياء
.....

وفي الباء يقول :

بدت لنا الراح في تاج من الحبيب	فزقت حلة الظلماء باللهيب
بكر إذا زوجت بالماء أولدها	أطفال درّ على مهد من الذهب
بقية من بقايا قوم نوح إذا	لاحت جلت ظلمة الأحزان والسكراب
ويقول في التاء :	

تاب الزمان من الذنوب فوات	وأغرم لذيذ العيش قبل فوات
تم المرور بنا فقم يا صاحبي	نستدرك الماضي بنهب الآتي
تاقت إلى شرب المدام نفوسنا	لا تذهب ببطالة الأوقات

وهكذا إلى نهاية الحروف الهجائية . وهي تسع وعشرون قصيدة ، كل
قصيدة تسعة وعشرون بيتاً ، فيكون عدد أبياتها (واحداً وأربعين وثمانمائة
بيت) . وقد أمّ الصفي نظمها في ثلاثة أشهر كما قال ذلك في مقدمة هذه
القصائد . وقد سماها أيضاً (القصائد الأرتقية) . ونحدث عنها في قصيدة
حين أهداها للملك المنصور فقال :

أهدي قصائد أشعار فرائدُها در نهضتُ به من أبحر عمق
يضمُّها ورق لولا عـاسنه ما لقبوا الفضة البيضاء بالورق
نظمتها فيك ديواناً أرفُّ به مدائحاً في سوى عليك لم ترق
ولو قصدت به تجديد وصفكم لكان ذلك منسوباً إلى الحق
تسع وعشرون قد عدت قصائدها ومثلها عدد الأبيات في الفسق
لم أفتنح بالقوافي في أواخرها حتى لُزمت أواليها فلم تعق
ما أدركت فصحاء العرب غايتها قبلي ولا أخذوا في مثلها سبقي
وتبدأ عشرون قصيدة منها بالغزل ، وتسع قصائد بذكر الحجر ، ويتخلص
بعد ذلك إلى مدح الملك المنصور . وبالرغم من التزام القافيتين فان شعره
مستساغ جزل ، ومعانيه جميلة ، وأسلوبه سليم . والصفي هنا يقول إنه
مبتكر هذا الفن الشعري :

ما أدركت فصحاء العرب غايتها قبلي ولا أخذوا في مثلها سبقي
وليس هذا البيت وحده الذي يشير فيه الصفي إلى سابقته في هذا الفن ،
وإنما قال في مقدمة هذه القصائد : « ... إلى أن أقدم بين يدي نحواي هدية
ما أحاط بها سواي ولا يحيط ، وألفية لا أحتاج مع التزامي بهذا إلى وسيط ... »
هذا في حين أننا وجدنا شاعرين متقدمين عن الصفي قد نظما مثل هذا الديوان
أو مثل هذه القصائد ، الأول منهما هو العلامة الفقيه (أبو زيد عبد الرحمن
ابن محمد أبي سعيد بخلقتن بن أحمد الفاززي الجفشي الأندلسي) المتوفى سنة
(٦٣٧ هـ) أي قبل ولادة صفي الدين بأربعين عاماً . فقد نظم (القصائد
العشرية) في النصائح الدينية والحكم الزهدية ، وهي ثمانية وعشرون قصيدة
مرتبة على حروف الهجاء . والتزم في كل قصيدة أن تبدأ أبياتها بحرف
الروي . وقد طبعت في مطبعة الباني الحلبي بالقاهرة سنة (١٣٢٤ هـ) . وله
أيضاً (الوسائل المتقبلة) في مدح النبي (ص) وهي تسع وعشرون قصيدة على

حروف الهجاء أيضاً . توجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٧١٨ أدب .

وأما الثاني فهو (مجد الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الواعظ الشافعي المشهور بالوترى) ، المتوفى في بغداد سنة (٦٦٢ هـ) أي قبل مولد الصفي بأكثر من خمسة عشر عاماً . وقد نظم الوترى في مدح الرسول وسماها (معدن الأفاضات في مدح أشرف الكائنات) وهي تسع وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء تبدأ القصيدة بنفس حرف الروي فيها ، وعدد أبيات كل قصيدة واحد وعشرون بيتاً . وقد طبعت في بيروت سنة (١٩١٠ م) ومطلع القصيدة الأولى :

أصلي صلاة تملأ الأرض والسماء على من له أعلا العلا متبواً
ولا أدري كيف أوفق بين هذا وبين رأي الصفي نفسه الذي يمتد أنه لم
يسبقه أحد إلى هذا الفن . ولا نستطيع إلا أن نقول بأن الصفي لم يطلع على
هذه القصائد حين نظم قصائده الارتقيات . أو أنه اعتبر نفسه أكثر
تجويداً . أو أنه اعتبر نفسه أول من عمل ذلك في مدح أحد الملوك . ولا
يمكن أن يدعي شاعر مثل الصفي ، وله مثل مكانته ومنزلته ، ما ليس له .
لأنه رجل يحب الصدق ويكره الكذب ، ويحب الاستقامة والصراحة ويكره
اللف والتدليس .

وقد سمي المتأخرون هذا الفن من الشعر (الروضة) وقد وازن قصائد
الصفي هذه كثير من المتأخرين وعارضوها ونظموا على غرارها في موضوعات
مختلفة . منهم (محمد الغلامي) ، وهو من مشاهير شعراء الموصل في القرن
الثاني عشر ، وقد نظم روضة مدح بها (أحمد باشا الجليلي) في الموصل .
و (الشيخ إبراهيم بن يحيى العاملي الطيبي) المتوفى سنة (١٢١٤ هـ) ونظم
روضة يمدح بها (الشيخ علي بن فارس الصعبي) أحد أمراء جبل عامل .
والشيخ (صالح بن درويش بن الشيخ زيني التميمي البغدادي) . ونظم روضة

للشيخ (عبد علي الحويزي) سنة (١٢٣٥ هـ) . والحاج (جواد بزقت) ، وهو من مشاهير شعراء كربلاء في القرن الثالث عشر ونظم روضة مدح بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . والشيخ (حسن مصبح) ، وهو من أدباء القرن الثالث عشر ، ونظم ثلاث روضات ، الأولى في الغزل والثانية في مدح الامام علي (رض) والثالثة في رثاء الحسين بن علي (رض) . ويبدأ هذا الديوان - أو القصائد الأرتقيات - بمقدمة أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي أطلع نجوم المعاني المضيئة في آفاق خواطر الفصحاه . . . الخ » .

وطبعت هذه القصائد عدة مرات ، فقد طبعت مع ديوان الصفي في طبعتي دمشق وبيروت ، وطبعت بمفردها مرتين ، الأولى باسم (القصائد الأرتقيات) في المطبعة الوهبية بباب الشعرية في مصر . آخر جمادى الآخرة سنة (١٢٨٣ هـ) . وهو كتيب عدد صفحاته ٣٦ صفحة في كل صفحة ٣٧ بيتاً ، يبدأ بالمقدمة وينتهي بآخر القصيدة اليائية . وهي طبعة لا بأس بها من حيث قلة الخطأ والتصحيح ، وإن كانت ليست علمية دقيقة ، وغير مشروحة .

وأما الثانية فطبعت ضمن مجموعة من القصائد الزدوجات ، في المطبعة الأزهرية للطوخي سنة (١٢٩٩ هـ) . وتشغل هذه القصائد الأرتقيات ٣٩ صفحة من هذا الكتاب ، فهي تبدأ من صفحة ٩٥ وتنتهي بآخر صفحة من الكتاب وهي ١٣٤ . وفي كل صفحة ٢٣ بيتاً . وفي هذه الطبعة شيء من الدقة لأنها خالية من الخطأ تقريباً ، وحروفها مشكلة جميعاً .

وهناك مخطوطتان في دار الكتب المصرية :

الأولى : تحت رقم (٣٩٤٨) أدب ، وعدد أوراقها ٣١ أي ٦٢ صفحة في كل صفحة ١٥ سطرأ طول الصفحة ١٩ر٥ سم وعرضها ١٤ سم ، وطول الجزء المكتوب منها ١٧ سم وعرضه ١٠ سم . مكتوبة بخط نسخ معتاد . . . مشكلة الحروف ، ليس فيها شروح أو تعليقات ، وهي هامة لأن الكتاب

قال : فرغ من كتابتها في ١٢ جمادى الآخرة سنة (٧٤٦) أي في عصر الصفي بل في أعوامه الأخيرة لأنه توفي سنة (٨٧٥٠) . ورقها أصفر سميك قديم ، أصابه التلف ورقمت حافظه لتآكلها .

أما المخطوطة الثانية ، فرقها (٣٧١) أدب . ومعها جزء من ديوان (ابن نباتة) عدد أوراقها - وحدها - ٢٥ ورقة أي ٥٠ صفحة في كل صفحة ١٩ بيتاً ، طول الصفحة ٢١ سم ، وعرضها ١٦ سم ، طول الجزء المكتوب في كل صفحة ١٥ سم وعرضه ١٠ سم . كتبت بخط نسخ بقلم قديم معتاد ، عناوينها مكتوبة بالمداد الأحمر ، فرغ من كتابتها ليلة الجمعة من شهر جمادى الآخرة سنة (١٢٦٧ هـ) ، ورقها أبيض سميك حالته جيدة . وليس عليها شروح ولا تعليقات .

وفي هاتين النسختين الكثير من الأغلط والتصحيح .

وهناك نسخ خطية أخرى ذكرها (بروكلمان) منها : نسخة في ليدن (٧٣٢) وأخرى في باريس (٣٩٥٣) وفي الاسكوريال (٤٩٨) .

٣ - البديعية :

كان الصفي مولعاً بالصناعة مفتناً بالبديع ، حتى برز فيه ، وسيطرت الصناعة البديعية والمحسنات اللفظية على شعره . وقد رأى أن الذين ألفوا في البديع لم يبلغوا الكمال ، ولم يتوصلوا إلى حصر كل أنواع البديع (فالسكاكي) لم يذكر من أنواع البديع سوى ٢٩ نوعاً ، وجمع مخترعها الأول (ابن المعتز) ١٧ نوعاً ، وطاصره (قدامة بن جعفر) فجمع منها ٢٠ نوعاً ، توارد منه على سبعة منها فتكامل لها ٣٠ نوعاً ، ويعرف كتابه (بنقد قدامة) . ثم اقتدى بها الناس في التأليف فكان فاية ما جمع منها (أبو هلال

المسكري) ٣٧ نوحاً في (كتاب الصناعتين) ، ثم جمع منها (ابن رشيق القيرواني) في (المعمدة) مثلها ، وأضاف إليها ٦٥ باباً في أحوال الشعر وأغراضه . وتلاها (شرف الدين التيفاشي) فبلغ بها السبعين . ثم تصدى لها الشيخ (ركن الدين عبدالمعظم بن أبي الأصبع) فأوصلها إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته (٣٠) سلم له منها عشرون . وذكر أنه وقف على أربعين كتاباً في هذا العلم . وقال الصفي : طالعت مما لم يقف عليه (٣٠) كتاباً فأكلت السبعين^(١) . وأراد الصفي أن يؤلف كتاباً في البديع يجمع كل هذه الأنواع ، إلا أنه أصابه سقم طال زمنه ، واشتدت شدته ، ولم يبرأ منه ، ورأى النبي (ص) في منامه ، ووعدته بالشفاء إن هو مدحه ، فعدل عن تأليف هذا الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع وتضم أنواعه ، وتطرز بمدح الرسول فنظم هذه القصيدة وسماها «الكافية البديعية في المدائح النبوية»^(٢) ومطلعها :

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وأقرّ السلام على عرب بندي سلم

وهو يعارض بردة البوصيري في مدح الرسول التي مطلعها :

« أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم »

والاعتقاد السائد عند معظم الدارسين أن الصفي هو مخترع هذا الفن ،

وهو أول من نظم فيه ، ولسكن (السيد علي خان صدر الدين الحسيني) المتوفى

سنة (١٠١٨) يقول في كتابه (أنوار الربيع) :

« كنت أظن أن أول من نظم أنواع البديع على هذا الأسلوب البديع ...

هو الشيخ صفي الدين الحلبي رحمه الله تعالى حتى وقفت في ترجمة (الشيخ علي

ابن عثمان بن علي بن سليمان أمين الدين السليمان الأربلي الصوفي) الشاعر على

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٤ . طبعة استانبول .

(٢) ديوان صفي الدين ص ٤٩٦ . طبعة دمشق .

قصيدة لامية له نظم فيها جملة من أنواع البديع وضمن كل بيت منها نوعاً
منه أولها الجناس التام والمطرف وهو :

بعض هذا الدلال والادلال حال بالهجير والتجنب حالي
ثم قال بالجناس المصحف والركب :

جرت إذ خرت ربيع قلبي وإذ لالي صبراً أكرت من إذ لالي

فعلت أن الشيخ صفي الدين لم يكن أباعذر هذا المرام ولا أول من نظم
جواهر هذا العقد في نظام لأن الشيخ أمين الدين المذكور توفي قبل أن
يولد الشيخ صفي الدين بسبع سنين وذلك أن وفاة الشيخ أمين الدين سنة
سبعين وستماية (٦٧٠ هـ) وولادة الشيخ صفي الدين سنة سبع وسبعين
وستماية (٦٧٧ هـ) ... (١)

ويحيل إلي أن الأمر يسير ، وأن البت في هذه المسألة ليس بالمسير ،
فع أن الصفي لا يمكن أن يدعي شيئاً ليس له ، ولا يجوز أن يزعم سبقه
في فن سبقه إليه أحد من سابقيه أو معاصريه ، فانه من المحتمل ألا يكون
قد اطلع على بديعية (الشيخ أمين الدين) ، وخاصة وهم في عصر لم تتوفر
فيه وسائل الفهر التي تيسرت لنا اليوم . . .

وبالإضافة إلى هذا فإن بديعية (أمين الدين) ليست في مدح الرسول وعلى
هذا يكون صفي الدين أول من نظم البديعيات التي في مدح الرسول ،
ويكون أمين الدين أول من نظم في فن البديعيات عموماً . . . على أن الذين
جاءوا بعد الصفي أغلبهم قلد الصفي وجاراه ونظم مثله في مدح النبي
إلا النادر .

والغريب أن (الدكتور زكي مبارك) يرى أن الصفي ليس أول من
ابتكر (فن البديعيات) وإنما هو (أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بابن
جابر الأندلسي) إذ يقول عنه : « لقد ابتكر فناً جديداً هو (البديعيات) ،

(١) أنوار الريح في أنواع البديع . مخطوط س ٣ .

وذلك أن تكون الفصيحة في مدح الرسول ، ولكن كل بيت من أنهابها يشير إلى فن من فنون البديع^(١) . وقد نسي الدكتور أن الصفي متقدم كثيراً عن ابن جابر إذ أنه ولد سنة (٥٦٧٧ هـ) وتوفي سنة (٥٧٥٠ هـ) في حين أن ابن جابر ولد سنة (٥٦٩٨ هـ) وتوفي سنة (٥٧٨٠ هـ) . هذا بالإضافة إلى أن (ابن حجة المحوي) نفسه اعترف بأسبعية صفي الدين في عدة مواضع من خزانته ومن ذلك قوله : «ولكن نبدأ ببيت الشيخ صفي الدين رحمه الله لأجل الترتيب»^(٢) ، فهو يبدأ به معترفاً بأسبقيته على ابن جابر الذي كان يذكر أبياته بمد الصفي ويسميه (العميان) .

وعدد أبيات هذه البديعية ١٤٥ بيتاً من البحر البسيط ، وتشتمل على ١٥١ نوعاً من أنواع البديع ، وقد جعل كل بيت مثلاً شاهداً لنوع من هذه الأنواع أو نوعين أو ثلاثة حسب ما تسمح به قريحته . وقد بدأها بالفرز : إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وافرّ السلام على عرب بذي سلم فقد ضمنت وجود الدمع عن عدم لهم ولم استطع مع ذلك منع دبي وهكذا يستمر في هذا الفرز العفيف الشريف الذي يلائم غرضه وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يبلغ به ٤١ بيتاً فيتهياً للانتقال إلى المدح في ثلاثة أبيات هي :

إن لم أحت مطايا العزم مثقلة من القوافي تؤم المجد عن أمم
تجار لفظي إلى سوق القبول بها من لجة الفكر تهدي جوهر الكلم
من كل معربة الألفاظ ممجعة يزيناها مدح خير العرب والمعجم
و بمدح النبي (ص) في ٣٩ بيتاً منها :

محمد المصطفى الهادي النبي أجل المرسلين ابن عبد الله ذي الكرم
خير النبيين والبرهان متضح في الحجر عقلاً ونقلاً واضح اللقم

(١) المدائح النبوية ص ١٦٩ .

(٢) الخزانة ص ٥٤٤ .

كم بين من أقسم الله العلي به وبين من جاء باسم الله في القسم
ثم يفتقل إلى مدح أصحاب الرسول في ١٢ بيتاً من مثل قوله :
من كل مبتدر للموت مقتحم في مأزق بغبار الحرب ملتحم
تهوى الرقاب مواضيم فيحسبها حديدها كان أغلالاً من القدم
فيعود ثانية إلى مدح الرسول الكريم وذكر مناقبه ومعجزاته في ١٨ بيتاً
كقوله :

في ظل أبلج منصور اللواء له عدل يؤلف بين الذئب والغنم
أغرُّ لا يمنع الراجين ما سألوا ويمنع الجار من ضيم ومن حرم
ويعمد آله الفر الكرام في خمسة أبيات ، وأصحابه في عشرة آخر ، ثم يذكر
أسباب نظمه هذه القصيدة في ١٢ بيتاً . ثم يختتم قصيدته بالفخر بها بقوله :
هندي عصاي التي فيها مآرب لي وقد أمشُّ بها طوراً على غنمي
إن ألقها تتلف كل ما صنعوا إذا أتيت بسحر من كلامهم
أطاتها رغم تقصيري فقام بها عذري ، وهيات إن العذر لم يقم
فان سمعت فدحي فيك موجه وإن شقيت فذني موجب النقم
وهذه القصيدة قوية العبارة جميلة الأسلوب . لم يلتزم فيها التلميح بنوع
البديع في كل بيت كما فعل ذلك من جاء بعده . لكنه يأتي به حين يطاوعه
كما فعل ذلك في بيت القسم :

لا لقبتي المعاني بان بجديتها يوم الفخار ولا برُّ التقى قسمي
وقد شرح الصفي هذه القصيدة لسكننا لم نثر على هذا الشرح ، فشكل
ما بين أيدينا من نسخها مطبوعتان ومخطوطتان ، فأما المطبوعتان فهما ضمن
طبعتي ديوانه . وأما المخطوطتان فهما في دار الكتب المصرية :
النسخة الأولى تحت رقم ١٢٨ بلاغة ، وهي ضمن كتاب (روضة الفصاحة
في لهجة البلاغة في علم البديع) ، فيه كتاب البديع لابن المعتز وقصائد
كثيرة . وتشغل بديمية الصفي ٢٢ صفحة من هذا الكتاب . كل صفحة

١٣ بيتاً . طول الصفحة ١٩ و ٥ سم وعرضها ١٣ سم طول الجزء المكتوب ١٤ سم وعرضه ١٠ سم . مكتوبة بخط نسخ بقلم معتاد ، عناوينها مكتوبة بالمداد الأحمر ، ورقها أصفر قديم فيه ترقيع كثير . وليس فيها تعليقات . اسم ناسخها (عبد الوهاب بن أحمد بن موسى الجبري) فرغ من كتابتها في ٧ جمادى سنة (٩٦٩ هـ) .

أما النسخة الثانية فرقها ٥٦٧ بلاغة . وهي خمس ورقات أي عشر صفحات في كل صفحة ١٧ بيتاً طول الصفحة ٢٤ سم وعرضها ١٦ سم ، طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٦ و ٥ سم وعرضه ١٠ سم . ورقها أبيض سميك ولكنه متآكل الحافة ، وعلى هوامشها الكثير من التعليقات وجداول الأرقام والطلاسم والحكم والفوائد ، والملاحظات . وفي الصفحة الأولى كتابة كثيرة مختلفة الاتجاهات بخط دقيق جداً لا يكاد يقرأ . ولم يكتب لها عناوين بأسماء أنواع البديع ، وإنما كتبت متسلسلة ولا يعرف كاتبها لأنه لم يكتب اسمه ولا تاريخ فراغه من كتابتها .

وهاتان النسختان جيدتان من حيث أن الأبيات كاملة فيها ، وأن الأخطاء تكاد تكون معدومة ، وأن الخلاف بينهما لا يكاد يوجد إلا في بعض النقط . وتوجد نسخ أخرى كثيرة هي أوروبا وغيرها فقد ذكر (بروكمان) أن هناك نسختين في برلين (٧٣٤٩ و ٥٢) ونسختين في باريس (٣٢٩ و ٣٢٤٨) ونسختين في الاسكوريال (٢٤٠ ف و ٣٩٠ ف ١) ونسختين في مكتبة المتحف البريطاني (٩٨٦٩ و ٩٨٥) ولسنا ندري أهنالك نسخة بين هـ هذه النسخ منقولة عن الأصل وفيها شرح صفي الدين نفسه لهذه القصيدة أم لا ؟ فقد ذكر أنه شرح بديعته بنفسه .

وقد قلد الصفي في هذا الفن كثيراً من الشعراء الذين جاءوا بعده ، زادوا على ثلاثين شاعراً ، بعضهم كان معاصراً له ، نظموا هذه القصائد في مدح الرسول (ص) . وحتى أدباء النصارى قلده أيضاً فنظموا مثل هذه البديعية

يمدحون بها المسيح (ع) ورسله ، أشهرهم : (الخوري نيقولادس الصائغ) ،
و (المطران جرمانوس فرحات) ، و (الخوري يوسف بن أرسانيوس
الفاخوري) .

وأما أصحاب البديعيات منذ عصر الصفي حتى العصور المتأخرة فهم :

١ - شمس الدين أبو عبدالله محمد بن علي الهواري المالكي المتوفى سنة
(٥٧٨٠ هـ) صاحب البديعية المشهورة بـ (بديعية العميان) التي يمدح بها النبي
الأعظم وأولها :

بطيبة انزل وعم سيد الأمم وانشرله المدح وانثر أطيب الكلم

٢ - الشيخ عز الدين علي بن الحسين بن علي بن أبي بكر محمد بن أبي الخير
الموصلی المتوفى سنة (٧٨٩) ومطلع بديعيته :

براعة تستهل الدمع في العلم عبارة عن نداء انفراد العلم

وقد شرحها بنفسه وسمّاها : (التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع) .

٣ - الشيخ وجيه الدين الجبني المتوفى سنة ٨٠٠ .

٤ - شرف الدين عيسى بن حجاج السعدي المصري الحنبلي المعروف بعويس

العالية المتوفى سنة ٨٠٧ ، ومطلع بديعيته :

سل ما حوى القلب في سلمى من العبر فكلمها خطرت أمسى على خطر

٥ - السيد جمال الدين عبدالهادي بن ابراهيم الحسيني الصنعاني الجباني
الزيدي المتوفى سنة ٨٢٢ .

سرى طيف ليلى فابتهجت به وجدا

٦ - الأديب شعبان بن محمد الفرشي المصري المتوفى سنة ٨٢٨ .

٧ - شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقرئ الجبني المتوفى سنة ٨٣٧ .

٨ - تقي الدين أبو بكر علي بن عبدالله بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧

ومطلع بديعيته :

لي في ابتدا مدحك يا عرب ذي سلم براءة نستهل الدمع في العلم
وقد شرح بديعته مقارناً إياها ببديعية صفي الدين وبديعية العميان وبديعية
الموصلي وسماها (خزانة الأدب) .

٩ - زين الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن محمد بن سليمان الجوي الشافعي
المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٨٤٠ .

١٠ - الشيخ محمد بن الشيخ خليل المقرئ الحلبي المتوفى سنة ٨٤٩
وأول بديعته :

عجبي عراقي فمجد بي نحو ذي سلم واجنح لسكانها بالسلم والسلام
١١ - الشيخ ابراهيم الكفعمي الحارثي . ومطلع بديعته :

إن جئت سلمى فسل من في خيامهم

١٢ - جلال الدين أبو بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ، وقد استهلها
بقوله :

من المعيق ومن تذكر ذي سلم براءة لي في استهلالها بدم
وقد شرحها وسماها (نظم البديع في مدح خير الشفيع) .

١٣ - عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الدمشقية الشافعية
الباغونية المتوفاة سنة ٩٢٢ . ومطلع بديعيتها :

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زهرة العشاق كالعالم
وقد شرحتها وأسماها بـ (الفتح المبين في مدح الأمين) .

١٤ - الشيخ عبدالرحمن بن أحمد الحميدي المتوفى سنة ١٠٠٥ ومطلع
بديعته :

رد ربع أسما وأسمى ما يرام رمٍ وحي حياً حواها معدن الكرم
وقد سماها (تمليح البديع بمدح الشفيع) .

١٥ - شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد الجوي المكي الحنفي نزيل
مصر وقد توفي سنة ١٠١٧ .

- ١٦ - السيد علي خان المتوفى سنة ١٠١٨ ومطلع قصيدته :
حسن ابتدائي بذكرى جيرة الحرم له براعة شوق يستهل دي
وشرحها فسماها (أنوار الربيع في أنواع البديع) .
- ١٧ - الشيخ عبدالقادر محمد المسكي الشافعي المتوفى سنة ١٠٣٢ ومطلعها :
حسن ابتداء مديحي حيّ ذي سلم أبدى براعة الاستهلال في العلم
وقد شرحها باسم (عليّ الحجة بتأخير أبي بكر بن حجة) .
- ١٨ - الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١ . ومطلع
بديعته :

- شارفت ذرعاً فذر عن مأنها الشيم وجزت نملى فتم لا خوف في الحرم
١٩ - الشيخ محمد بن عبدالقادر حكيم زاده . له بديعيتان مطلع الأولى :
حسن ابتدائي بذكر البيان والعلم حلا لمطلع أقار بذي سلم
ومطلع الثانية المسماة (اللعة المحمدية في مدح خير البرية) :
إن رمت صنما فصن عن مدح غيرم يا قلب سرّاً وجهرّاً جوهر الكلم
٢٠ - الشيخ أبو الوفاء الحلبي ، وأولها :
براعتي في ابتداء مدحي بذي سلم قد استهلت لدمع فاض كالعلم
٢١ - الشيخ عبدالغني بن اسماعيل بن عبدالغني الحنفي النابلسي الدمشقي
المتوفى سنة ١١٤٣ . وأولها :

- يا منزل الركب بين البيان والعلم من سفح كاظمة حيت من ديم
وشرحها ، واسمها (نفحات الأزهار على نعمات الأسحار في مدح النبي المختار)
وله بديعية أخرى أولها :
يا حسن مطلع من أهوى بذي سلم براعة الشوق في استهلالها ألمي
٢٢ - الشيخ قاسم بن محمد البكرهجي الحلبي الحنفي المتوفى سنة ١١٦٩ ،
ومطلعها :

من حسن مطلع أهل البان والعلم براعتي مستهل دمعها بدي
وشرحها فساها (حلية البديع في مدح النبي الشفيح) .

٢٣ - السيد حسين بن مير رشيد الرضوي الهندي المتوفى سنة ١١٥٦ ،
وقد استهلها بقوله :

حيّ الحيا عهد أحباب بندي سلم وملعب الحمي بين البان والعلم

٢٤ - الشيخ عبدالله بن يوسف بن عبدالله الحلبي المتوفى سنة ١١٩٤ .

٢٥ - الشيخ عبدالقادر الحسيني الأزهري الطرابلسي وإسمها (ترجان

الضمير في مدح الهادي البشير) .

٢٦ - الشيخ محمد بن عبدالله الضرير الأزهري المتوفى سنة ١٣١٣ وإسمها

(الفرر في أسانيد الأئمة الأربعة عشر) .

٢٧ - الشيخ محمد بن حمزة التستري الحلبي الشهير بابن الملا المتوفى

سنة ١٣٢٢ .

٢٨ - المولى داود بن الحاج قاضي الخراساني المعروف بملا باشي المتوفى

سنة ١٣٢٥ .

٢٩ - الشيخ طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري الدمشقي الموفى سنة

١٢٣٨ . مطلعها :

بديع حسن بدور نحو ذي سلم قد راقني ذكره في مطلع السكلم

٣٠ - الشيخ محمد صالح بن ميرزا فضل المازندراني الحائري . ومطلع

قصيدته :

من حسن مطلع سلمى مستهل دمي لله من دم ذي سلم بندي سلم

٣١ - الشيخ عبدالله محمد بن أبي بكر ، وقد بدأ قصيدته بقوله :

يا عامل اليعملات الكوم في الأكم بالعيس بالعيس عرج نحو ذي سلم

٣٢ - الواردي المقرئ وأولها :

إن زرت سلمى فسل ما حلّ بالعلم وحيّ سلماً وصل عن حي ذي سلم
وهناك من الشعراء من نظم بديعية في غير مدح النبي ، كالشيخ أحمد بن صالح
البحراني المتوفى سنة ١٣١٥ وقد نظم بديعية في مدح الامام علي ومطلعها :
بديع مدح (علي) مذعلاً بغمي براعة تستهل الفيض من كلمي
وإذا كان هؤلاء الشعراء قد نظموا قصائدهم في نفس بحر (بردة البوصيري)
(بديعية الصفي) فقد كان معظم قصائدهم في نفس قافية البردة والبديعية ،
وهي (ميمية الروي) إلا أن قليلاً من هذه البديعيات كان في روي يخالف
ذلك كبديعية (شرف الدين عيسى بن حجاج السعدي المصري) فهي رائية
إذ يقول :

سل ما حوى القلب في سلمى من العبر فكلمها خطرت أممي على خطر
وبديعية (السيد جمال الدين عبد الهادي بن ابراهيم الحسيني البجائي الزبيدي :

سرى طيف ليلى فأبتهجت به وجدا

وقد طبع كثير من هذه البديعيات في بلدان مختلفة كالقاهرة وبيروت وغيرها .
وفي دار الكتب المصرية - بالقاهرة - كثير من النسخ المخطوطة لقسم من هذه
البديعيات وهي مدونة في فهرس الدار - جزء اللغة العربية ، قسم البلاغة - .
وهذا العدد الضخم من ناظمي البديعيات - أو معظمه - حذا حدو الصفي
وجاراه ، فأبن حجة الحموي نفسه حين يتحدث عن سبب نظم بديعيته ،
يذكر أن صاحب ديوان الانشاء (محمد الجهني) القاضوي الناصري قد طلب
منه نظمها فيقول : « ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام
وأجاري (الحلي) برقة السحر الحلال الذي ينفث في عقد الأقلام . . . »
وكان حين ينظم البيت يعرضه عليه فيقارنه ببيت الصفي فيقول له : « بيت
الصفي أصنى مورداً وأنور اقتباساً » .

وعجز كثير من هؤلاء الشعراء عن الوصول إلى مرتبة الصفي التي شهد لها بها

كثير منهم . وهذا الحموي يقول : « صفي الدين أجاد في الغالب .. » (١) وكان كثيراً ما يمدح الصفي حين يقارن بيته بأبيات غيره ، فعند تعليقه على فن (تجاهل العارف) الذي يقول فيه الصفي :

يا ليت شعري أسحراً كان حبكم أزال عقلي أم ضرب من الهمم !

قال عن هذا البيت : « بلغ الغاية » كما قال هذا في عدة أبيات أخرى منها بيته في فن (التوشيح) وهو :

أميّ خط أبان الله معجزه بطاعة الماضين السيف والقلم

وأما بيت الصفي في فن (تشبيه شيطان بشيئين) فقد قال فيه الحموي : « .. عامر بالمحاسن وهو منسجم ... » وهو :

تلاعبوا تحت ظل السم من صرح كما تلاعبت الأشبال في الأجم

وأخيراً نجد أن الحموي يقول عن بديعته هو : « فجاهت بديعية هدمت بها بديعية الموصلية .. وجاريت الصفي .. » فلا يجرؤ على القول بهدم بديعية الصفي كما قال عن بديعية الموصلية . وهذه شهادة قديمة وهي إلى ذلك ذات قيمة لأنها من مختص .

الفصل الثاني

مراحل شعره

قطعت بها خوف الهوان سبأً إذا قلت: نمت، أردفت بسباسب
بسامرني في الفسك كل بديهة منزهة الألفاظ عن قدح طائب
ينزلها الشادوت في نفاتهم وتحذو بها طوراً حداة الركائب

١ - ابتداء صنعة الشعر :

بدأ الصفي ، منذ صباه ، يفرم بالشعر فحفظ منه ما كان يعجب به من قصائد الشعراء المتقدمين ، أمثال المتنبي وأبي تمام وأبي نواس وغيرهم . ثم بدأت شاعريته تنتج شعراً جميلاً وهو لم يتعد المقدم الأول من عمره بعد . وقد كان مولعاً بالشعر أيّما ولوع ! يحب قراءته وحفظه ونظمه . فكان يستفيد من هذه النماذج الشعرية التي يقرأها ويحفظها فيقتبس منها الصور ويضمّن المعاني ، ويختمس القصائد .

وهذا هو الدور الأول من أدوار شعره . وهو الشعر الذي قاله في الحلة في عهد الصبا ، يوم كان يعيش عيشة ناعمة مترفة ، بين قوم أمجاد وآباء كرام . وقد كان مقتصرأ على أغراض معينة فلم يشأ أن يقول في كل أغراض الشعر ، فقال في الحماسة لأنه شاب مليء بالحياة والنشاط ، وفارس تدرّب على أعمال الفروسية ، وشجاع لا يهاب الموت والقتال ، وأهله وقومه شجعان أبطال لذا نراه يقول :

وإني ليدي قاتم السيف راحتي إذا دميت منهم خدود الكواعب
وما كلُّ من هزَّ الحسام بضارب ولا كلُّ من أجرى البراع بكانب
وما زلت فيهم مثل قدح (ابن مقبل) بتسعين أمسي فأنزأ غير خائب
فان كلوا منا الجسوم فانها فلول سيوف ما نبت في المضارب
وما عابني أن كلمتني سيوفهم إذا ما نبت عني سيوف المثالب
فلما أبت إلا نزالاً كأنهم درأت بمهري في صدور المقائب
كما قال في الرثاء لأنه مرهف الشعور يتأثر كثيراً حين يفقد شخصاً تربطه
به وشائج متينة ، فلا يجحد بدأ من التعمير عن حزنه بشعر يرسله كالزفرات
الحارة . استمع إليه يرثي خاله (صفي الدين بن محاسن) :

سفنأ إذا شقت عليك جيوب إن لم تُشقِّ مرأر وقلوب
وتملقأ سكب الدموع على الثرى إن لم يمازجها الدم المسكوب

وكان الصفي يقضي بمض أوقاته في الصيد مع أقرانه وأصدقائه ، فلا عجب
إن وصف هذه الرحلات وصفاً جميلاً كقوله :

فقم بنا مبتسكراً يا صاحبي نقضي بأيام الصبا مآربي
ولا تسكن تفكر في العواقب واخلّ خلاني ودع أقاربي
واقصد بنا الأحلاف والقرايبا

أما ترى الطير الجليل قد أتى مستبشراً يمرح في فصل الشتا
فقم بنا إن الصبا عون الفتى ولا تقل كيف وأنى ومتى
إن الأمانى لم تزل كواذبا

وهذا الجمال الطبيعي المحيط به في مناظر الحلة الخلابة ، وفي كل مكان
يخرج إليه للصيد وغير الصيد ، كان له أكبر الأثر في حبه للطبيعة والتغني
بجهاها ومحاسنها :

ورد الربيع فرحياً بوروده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسب منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده
يا حبذا أزهاره وثماره ونبات ناجمه وحب حصيده
والغصن قد كسي الغلائل بعدما أخذت يدا كانون في تجريده

.....

وهذا الشباب والغنى الذي يتمتع به الصفي ، وذلك الشعور المتدفق والحس المرهف الذي يمتاز به ، لا بد أن يدعو به إلى حب الجمال والتغزل به ، فكان هنده شعر الغزل والنسيب :

ظنّ قومي أن الأساء ستبري داه وجدي وذا العلاج يفيد
فأتوا بالطبيب وهو لعمرى في ذوي فنه مجيد مجيد
مذ رأى عتتي وقد لاح للعو ت عليها أدلة وشهود
جسّ نبضي وقال : ما أنت شا لك ؟ قلت : ناراً لم يطفها التبريد
فندا يخلص الدواء فألني نار وجدي مع الدواء تزيد
قال : ما كان أصل دائك هذا ؟ قلت : طرفي وذاك حال شديد
قال : إن الهوام أحدث بلوا لك ، فقلت : المقصور لا الممدود
فأنثى حاراً وقال لأهلي : ما شفاء العشاق إلا بعيد
فالأغراض التي قالها الصفي إذاً ، الحماسة والرثاء والصيد والوصف والغزل ، لأنه وجد أن في إمكانه أن يقول الشعر فيها فيأتي شعراً صادقاً ليس فيه أي أثر للتصنع أو الكذب أو المجاملة الخداعة . وقد رأى أن من العار عليه أن يطرق الأغراض الأخرى كالممدوح والهجاء وغيره :

وأعرضت عن مدح الأنام ترفماً سوى معشري إذ كان مجدي منهم
هكذا كان يقول .

ولم يكن شعر الصفي في هذه المرحلة يزيد على رابع ديوانه ، ومن يدري لعل الكثير منه قد ضاع؟! ولم يثبت في الديوان عند جمعه وتدوينه خصوصاً

وأنة قد جمع ديوانه مؤخرآ ، وقد أخبرنا بأنه ضاع قدر غير يسير من شعره
وأنة جمع ما وطاه فحسب . وقد جمعه في القاهرة بمبدأ عن وطنه ومستقره .
وكان شعر الصفي في هذه المرحلة يمتاز بالسهولة والرقّة ، وخلوّه من
التكلف والتصنع والتعقيد ، فلم يبدأ شغف الصفي في هذا الدور بالاكتثار
من الصناعة البديعية أو نظم الألفاظ والمعنى من الشعر ، ولم يكن مولعاً
برصف الشعر الذي يقرأ طردأً وعكساً والذي يخلو من الحروف المعجمة أو
المهملّة ، وإنما كان شعره سهل الألفاظ ، سلس العبارة ، جميل السبك ،
واضح الصور :

سمت بي إلى العلياء نفس أبيّة ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب
بعزم يريني ما أمام مطالي وحزم يريني ما وراء العواقب
وما عابني جاري سوى أن حاجتي أكلها من دونه للأجانب
وأنت نوالي في المعات واصل أباعد أهل الحي قبل الأتارب
وفي آخر هذه المرحلة كاد شعره أن يكون حماسياً كله ، فقد قتل خاله
فصار يحمس أقرابه ليهبوا للأخذ بثأره :

ألم تشهدي أنني أمثل للمدى ففسهر خوفاً أن تراني في الحلم
فكم طعموا في وحدتي فرميتهم بأضيق من سم وأقتل من سم
فكم أججوا نار الحروب وأقبلوا بجيش يصد السيل عن مريض المعصم
فلم يسمعوا إلا صليل مهندي وصوت زقيري بين قعقة اللجم
جعلتهم نهياً لسيفي ومقولي فهم في وبال من كلاني ومن كلبي
أو يقول محرضاً خاله وأقرابه على الأخذ بثأره :

ما دام وعد الاماني غير منتجز فطول مكثك مفسوب إلى المعجز
هذي المغام فأمدد كفت منتهب وفرصة الدهر، فأسبق سبق منتهب
واغزى المدى قبل تغزونا جيوشهم إن الشجاع إذا مل الغزاة غزي
والق العدو بجأش غير محترس من النايا وجيش غير محترز

لا تترك الثأر من قوم مرادمُ إخفاء ذكر لنا في الناس منتبذ
وتنتهي هذه المرحلة بوقعة الزوراء ، ومغادرة الصفي أرض العراق إلى
(ماردين) سنة (٥٧٠١هـ) .

٢ - ظهور التعقيد :

وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل شعر الصفي ، تبدأ بانتقاله إلى ماردين .
ولا شك أن الأحداث التي مرت بالصفي في هذه الفترة قد أثرت في نفسه
وروحه الشعرية ، فقد قتل خاله وصار يدعو إلى الأخذ بثأره ، ثم وقعت
معركة الزوراء بين قبيلته وقبيلة قاتلي خاله (آل أبي الفضل) وأبدى فيها من
ضروب الشجاعة الكثير ، ثم ترك أهله وقومه ووطنه إلى قوم آخرين ووطن
جديد . وقد لقي من هؤلاء القوم كل حفاوة وتسكريم ، حتى صار وطنهم
وطناً ثانياً له ، يخفف عنه لوعة الأسي وألم الفراق لأهله وأوطانه . فاضطر إلى
مدح الملوك الأرتقيين ، وبهذا قال شعر المديح لأول مرة في حياته ، فمدح
(الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) ثم ابنه (الملك الصالح شمس الدين
صالح) . يقول في المنصور :

ولقد وقفت عليك لفظي كله بما أحلّ به فما أنا عاقد

فاذا نظمت فأنني لك مادح وإذا نثرت فأنني لك حامد

وليس المديح هو الغرض الوحيد الذي أضافه ابن سرايا إلى شعره في هذه
الفترة ، وإنما أضاف إليه أغراضاً أخرى أيضاً ، فحين انهمك مع الملوك
الأرتقيين وطاش معهم ، بحضور مجالس أنسهم وحفلات هومم ، ويشرب الخمر
وأيام ، أبدع الكثير من قصائد الخمر ووصف مجالسها :

بذت لنا الراح في تاج من الحبيب فزقت حلة الظلماء بالذهب
بكر إذا زوّجت بالماء أولدها أطفال در على مهد من الذهب
باكرتها برفاق قد زهت بهم قبل السلاف سلاف العلم والأدب
بلرب ليل غدا في الآهات غدت تنقض فيه كؤوس وهي كالشهب
بذلت عقلي صداقاً حين بت به أزوج ابن سحاب بابتة العنب

وهناك القصائد التي كانت الصفي يرسلها إلى أهله وأصدقائه وأقربائه بالعراق
يصف لهم حاله ويشتاق إليهم ، فكان شعر الاخوانيات ، الذي يتسم بالصدق
والصراحة والقوة والجمال . كتب إلى ابن عمه بالحلة :

أترى البازي الذي لاح ليلاً مرّ بالحمي من مرابع ليلي
وترى السحب مذ نشأنَ نقلاً سحبت من ربوع بابل ذيبلا
مأضاً البارق العراقيّ إلا أرسلت مقلتي من الدمع سيلا
وتذكرت جيرة بمغانيه وندباً من آل سنبس قبلا
وحملنا بضاعة الشكر مرجا ة فأوفى لنا من الود كيلا
كيف أنسى تلك الديار ومعنى عامراً قد ربيت فيه طفيللا

إن وردت (الفيحاء) ياسائق الميس وشارفت دوحها و (النخيلة)
ورأيت البدور في (مشهد الشمس) بفتيان (بانه) و (الاثيلة)
مل إليها واحبس قليلاً عليها إن لي نحو ذلك الحمي ميلا
وابلغ الرملة الأنيقة وابلغ معشراً لي بربعها وأهيبلا
كنت جلدأ فلم يدع بينكم للجسم حولاً ولا لقلبي حيللا
قد ذمنا بعميد بعدكم العيش فليت الحمام كان قبيللا
ويمتاز شعره في هذه المرحلة بأنه يكاد ينطق بأن الصفي يقوله وهو بعميد عن
وطنه . إذ يبين في كثير من المواضع ما يحس به الشاعر من إحساس بمض ،

حين يحن إلى أهله ويتشوق إلى أقاربه ويتمنى أن يرى وطنه ، ويظهر هذا في كل شعره . ففي شعر الاخوانيات ، وفي شعر المديح ، وفي شعر الرثاء إلى غير ذلك . يقول في قصيدته التي أرسلها إلى الشيخ (مذهب الدين النحوي الحلبي) :

وربّ نسيم مرّ بي من دياركم ففاح لنا من طيبه طيب النشر
فأذكرني عهداً وما كنت ناسياً ولكنه تجديد ذكر علي ذكر
تجاذبني الأشواق نحو دياركم وأحذر من كيد العدو الذي يدري
.....

وحين يمدح الملك المنصور يحس بالحنين إلى وطنه فيقول :

هبّ النسيم عراقياً فشوقني وطسالملاً هبّ نجدياً فلم يشق
فما تنفست والأرواح سارية إلا اشتكت نسمات الريح من حرقي
ذرأها الصبّ تذكر الديار إذا تمتع فيها بعيش غير متسق
فكم ضمنت وشاحاً في الظلام بها ما زاد قلبك إلا كثرة الفلق
.....

وفي هذه المرحلة قويت الروح الشعرية عند صفي الدين ، وتكشفت كل مواهبه فبانت جليلة واضحة ، وقلّ تقليده للشعراء وصار يعتمد على قدرته . لكنه ظهر في شعره التعقيد . وأول مظاهر هذا التعقيد نظمه القصائد الأرتقيات التي مدح بها (الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) ، فكان يلتزم للقصيدة قافيتين إذ يبدأ القصيدة بحرف رويها . فحين يبدأ بحرف الحاء ينتهي به :

خيال سرى والنجم في الغرب راسخ ألمّ ومن دون الحبيب فراسخ
خطأه كجاء البيد مجري ويمنسا هضاب الفيافي والجمال الشواخ
خفي الخطى وافى لينظر هل غفت عيوني وهل جفت جفوني النواخ
.....

وحيث يبدأ بالزاه ينتهي به أيضاً :

زار والليل مؤذنب بالبراز وهو من أعين المدى في احتراز
زائر جاه نحت جلباب ليل شفق الصبح فوقه كالطراز
زان حسن المقال بانفعل منه ووعود الوصال بالأنجاز
.....

ولا يخفى ما في هذه القصائد من تعقيد وصعوبة ، وما تتطلبه من جهد
يدعو إلى التمحل والتكلف مما لم يكن يصطبغ به شعر الصفي في مرحلته الأولى ،
يوم كان يقول الشعر على سجيته ، دون الالتجاء إلى التكلف أو التصنع ،
وقد كان يقول الشعر الذي ينطلق من قلبه قبل لسانه ، وها هو اليوم يرى
نفسه مضطراً إلى شعر يمدح به أناساً أكرموه وأحسنوا إليه وحموه وعليه
أن يقول فيهم كثيراً من الشعر ، ليرضي رغبته الملحة في مقابلة جميلهم بالمثل ،
وعليه أن يبرز موهبته الشعرية لكي لا يبرز عليه شاعر آخر . فكانت هذه
القصائد الأرتقيات وكان غيرها من الصناعات الاخرى .

وليس هناك أدنى ريب في أن هذه القصائد كانت الفاتحة للصناعات
الاخرى ، ولكن المرجح أن ذلك كان على قدر ، فكانت هذه الصناعات
قليلة نوعاً ما ، لأن الصفي لم يهدأ بعد في هذه الفترة من حياته . فهو مطارد
من قبل أعدائه ، هارب من وطنه ، بعيد عن أهله ، يسكن بين قوم مها
يكن ما يلقاه عندهم من حفاوة وتكريم وأمان واطمئنان ، فهو غريب عنهم ،
يخس بذلك في قلبه ويشعر به كلما خلا إلى نفسه ، فهو إذاً لا يستطيع أن
يشغل ذهنه المتعب المسكدود ، أو يكلف فكره القلق المشتت في نظم شعر
الصناعات ، وقرض شعر الأحاجي والألغاز والمعميات ، ولا شك في أن
هذا الشعر قد كثر في المرحلة الثالثة من حياته .

٣ - اشتداد التحقيد :

هدأ الصفي بعد حين وارتاح باله ، وبمد عنه شبح الموت ، وزالت عن ذهنه صور الأعداء التي كانت تتراءى له ، وتخلص فكركه من القلق والاضطراب ، فاستطاع أن يفرغ إلى نفسه وأن يفكر في أعماله ، فعمل في التجارة وجال في البلاد المختلفة لهذا الغرض ، ودخل السرور قلبه وضحكت له الحياة ، فاهتم بالشعر أيما إهتمام حتى طالت قصائده وكثر قصيده ، وتنوعت نواحيه وتعددت موضوعاته ، فلم يترك غرضاً من الأغراض المعروفة إلا قال فيه ؛ قال في المديح والثناء والحماسة والفخر والصيد والوصف والغزل والخمر والمجون والهجاء والزهد والتصوف وفي كل موضوع ... جاء إلى مصر فدح سلطانها (الملك الناصر محمد بن قلاوون) في عدة قصائد . يقول :

الناصر الملك الذي في عصره شكر الظباء صنيعه المرحان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره خروا بهيبته إلى الأذقان
وإذا جرى بين الوري ذكر اسمه تغنيه شهرته عن ابن فلان
.....

وذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول العظيم (ص)
فقال الكثير من الشعر في مدح النبي ومناجاته :

فضل به زينة الدنيا فكان لها كللتاج للرأس أو كالطوق للعنق
صلى عليك إله العرش ما طلعت شمس النهار ولاحت أنجم الفسق
.....

ولم يشأ الصفي أن يخلو ديوانه من شعر الهجاء ، فقال فيه مقطوعات كثيرة ، قال يهجو طبيباً اسمه عيسى :

أرى فيك يا عيسى الطبيب فضيلة هي الضد من أفعال (عيسى بن مريم)
نعت لنا الأحياء من غير علة ونضني وتفتي باليدين وبالقم

ونحني ولكن من شفاء وصحة ونحقرن إلا للحياه وللدم
(فأنت إلا خبط عشواء من تصب تمته ومن تحطيه يعمر فيهرم)
ولكن شعر الهجاء هذا يقوله إجابة لطلب أصدقائه ، ولذا نجد في بداية
أغلب مقطوعاته هذه العبارة « وسئل نظم شيء في ذم ... » . وقد سئل هجاء
رجل كبير الأنف فقال :

لو غدا أنفك العظيم غداً وهو وقود للنار ذات الوقودِ
ثم قالوا: هلا امتلأت؟ لقلت: هو حسي ولم ترد من مزبذ
وحين كبر ابن سرايا وأحس بقرب نهايته ، صار يحاسب نفسه عندما يثوب
إلى رشده ، ويقول شعراً فيه زهد وتصوف وفيه توبة إلى الله واستغفار عما
بدر منه من ذنوب وأخطاء :

رب أفعمت في المديد من العمر ونجيتني من الأشرار
فأعفني اليوم من سؤال لثيم وقني في غدٍ عذاب النار
أو يقول على طريقة المتصوفة في الحب الآلهي :

تمسقت ليلي من وراء حجابها ولم تر عيني لمحة من جنابها
فكيف سلوي إذ أمطت ستورها وزحزح إذ راقبت فضل نقابها
وكم أمكنتني فرصة في اختلاسها وبثٌ وقلبي طامع في اغتصابها
فأجللتها عن أن أراها بريية ولم يرضني إلا الدخول ببابها

ويمتاز شعر الصفي في هذه المرحلة بأنه شعر مختلف الأوطان ، فشعر
في الحجاز ، وقصيد في العراق ، ومقطوعات في الشام ، ومطولات في
ماردين ، وقصائد في مصر ، وهكذا في كل بقعة يحل فيها الصفي أنغام
جديدة وفن جديد :

فبكل يوم لي برغم العلا في كل أرض غربة وانزاح
وقد بانت آثار هذا الانتقال بجلاء ووضوح في شعره .

فشمرة في (ماردين) سجل للحوادث التي تحدث هناك من معارك وحروب ، إلى حفلات ورحلات ، وإلى ذلك كله رأينا صوراً كثيرة من ماردين وطبيعتها الجميلة . فحين خرج متنزهاً في ضواحي ماردين ، أعجب بمناظرها الفتانة فوصف (عين الصفا) و (عين البرود) بشعر جميل يسجل الطبيعة الجميلة وشمسها القوية وأرضها الخضراء السندسية المطرزة بالأزهار الجميلة المختلفة الألوان :

عجنا على وادي الصفا فصفا عيشٌ ووليُّ الهمِّ مرتحلاً
ولنا بها والشمس في (أسد) قيظاً نخلنا برجها (الجملا)
في روضة حال الربيع لها بسطاً وألبس دوحها حلالاً
وأما مناظر الشتاء فنجد فيها السماء ملبدة بالغيوم ، ونحس بالأقطار
الغزيرة التي يتميز بها مناخ ماردين :

عين البرود برود عيني إن عز منظر (رأس عين)
أرض ينمق زهرها ما فاض من نهر وعين
ويظلل يرفدها السحاب بصوب وسمي وعين
أو يقول :

فكان صوب المزن يعشقها فأقام لا يبني بها حولا
ما زال يبكيها ويعتبتها حتى توارد خدها خجلا
.....

وهو بصور لنا الهدوء والأمن الذي كان يجيم على ماردين ، والسلام والعدل الذي كان يسودها ، وكان أهلها يتعمون به . فقال مادحا الملك المنصور :

ملك هدب أخلاق الزمان عدله المسنون
وأعاد الناس في ظل الأمان عضبه المسنون
مهد الأرضين بالعدل فكان أمنها مضمون
ذبيها والشاة ترعى في مكان غدره مأمون

أو يقول مثل ذلك :

تجمع الأسد فيها والظباء كما من فرط عدلك يرعى الذئب والنقد
وهو لا يفتأ يذكر (قلعة ماردين) الحصينة التي تلقب بالشهباء في أكثر
شعره ، يقول مقارناً بينها وبين الشام :

يامن يقيس ماردين بجلق بعُد القياس وأين منها جلق
لم تُذكر الشهباء في سبق العلا إلا كبت شقراؤها والأبلق
كم ماردين لماردين توابوا ومن المحال طلاب ما لا يلحق
أو يقول مفضلاً إياها على (الموصل) :

ولا تقم بالموصل الحدياء إن شهاب القلعة الشهباء
بحرق شيطان صروف الدهر

أما اسم ماردين فيأبى إلا أن يتخذة قافية لأربعة أبيات يصف بها أهلها هي :

لئن وهي عقد الزمان الثمين فلا عدا ربك يا ماردين
مدينة لم تر في جوها جوراً ولا في أهلها ماردين
كم شاهدت عيناي من أهلها إظهار معروف وإضمار دين
أفضل في غيرهم ماردوا ونسوة في مثله ماردين

ومصر التي أحبها ذلك الحب العميق . ولقي فيها أعظم الاكرام رأينا
آثارها في شعره بينة أيضاً . فهذه صور النيل العظيم بسفنه الجميلة التي تراقص
مع الهواء الذي يصارع أشرعها البيضاء :

واخضر وادبها وحدق زهره والنيل فيه ككوثر بجنان
وبه الجواري المذمات كأنها أعلام بيد أو فروع قناني
نهضت بأجنحة القلوع كأنها عند المسير تم بالظيران
والماء يسرع في التدفق كلما عجلت عليه يد النسيم الواني

ولا يفسى أن النيل ، حين يفيض ماؤه ، يحمل إلى سكان واديه الخير
والبركات فيلهجون بشكره فيقول :

وفي النيل إذ وفسى البسيطة حقها وزاد على ماجاهه من صنائع
فما أن توفي الناس من شكر منعم يشار إلى إنعامه بالأصابع
وهذه الأهرام الخالدة التي رآها وأعجب بها ، خلقت في نفسه الا كبار لبانيها
فهي عنده تشرق كما تشرق الشمس :

إني وقد صفت المياه وزخرفت جنات مصر وأشرق الهرمان
وكيف يفسى أن القاهرة يومذاك كانت قبلة المسلمين ومحط آمالهم وملتقى
أفئدتهم وكانت تنعم بالمسرة والنعيم :

لله قاهرة المعز فانها بلد تخصص بالمسرة والهنا
أوما ترى في كل قطر منية من جانيها وهي مجتمع المنى
وحين يمدح الملك الناصر يحلو له أن يسميه بأسماء حكام مصر القدماء فيناديه
بالعزيز :

أيهذا (العزیز) قد صح رقي لك من موقع اسمي الرموز
أنا من يوم مولدي لك عبد ولهكذا دُعيت (عبدالعزیز)

أما الشام فهذه مناظرها الفتانة ، وهذا سحر طبيعتها الخلابه ، يتجلى
في صور جميلة يرسمها (عبدالعزیز) في شعره . فحين أرسل إلى (الملك الصالح)
من الشام قصيدة يمدحه بها أبي إلا أن يبدأها بوصف ما حوله من مناظر
جميلة :

نم بسر الروص خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شماع الضحى وابتسمت منه ثغور الأفاح
وقام في الدوح لنمي الدجى حمائم تطربنا بالصباح
.....

ولا يغيب عن بال الصفي أن الضباب يملأ جو دمشق عند الصباح فيشبه صباحها
بالدجى في قوله :

ويوم دجن حجبت شمسه وأشرفت في ليله شمس راح
فا ظننا الصبح إلا دجى ولا حسبنا الليل إلا صباح
وهذه رياض دمشق يصفها وصفاً بديماً فيقول :

إن جزت (بالميطور) مبتهجاً به ونظرت ناخر دوحه الممطور
وأرتك بالآصال خفق هواه الممدود في ظل الهوى المقصور
سل بانه المنصوب أين حديثه المرفوع من ذيل الصبا المجرور
وهذا نهر العاصي - في حماة - بمياهه الرقراقة والفلك التي تسير فيه والجنان
التي تحف بجانيبه ، بما فيها من خمائل وأزهار وأطياف ، يرسم صورها
ليوشي بها قصيدة في الملك الأفضل :

خبذا العاصي وطيب شعبه ومائه المسلسل المجدد
والفلك فوق لجه كأنها عقارب تدب فوق مررد
وناجم الأزهار من منظم على شواطئه ومن منضد
والورق من فوق الغصون قد حكت بشدوها المطرب صوت (معبد)
وأرسل قصيدة إلى أحد إخوانه بالحلة يصف يوماً قضاه بين رياض نهر
العاصي فيقول :

أطعت داعي الهوى رغماً على العاصي لما نزلت على ناعورة (العاصي)
وبات لي بمفاني أهلها وبها شغلان عن أهل (شغلان وبغواص)
والريح تجري رخاءً فوق جدولها والطير ما بين بناء وغواص
وقد تلاقت فروع الدوح واشتبكت كأنما الطير منها فوق أقفاص



وقد ازداد التعقيد في هذا العصر وكثرت الصناعات المختلفة ، فقد شغف
بها شاعرنا أي شغف حتى سيطرت عليه وملكت جوارحه وكل حواسه ،

فبرع فيها أي براعة ، وصار يتلاعب باللغة وكأنها المجينة في يد المثال الماهر
ويتصرف بالألفاظ وكأنها قطع الشطرنج بيد اللاعب الذي يتقن اللعب ،
فينقلها من مكان إلى مكان حيث يشاء وكيف يريد . فقال الشعر الخالي من
النقط من مثل قوله :

كم ساهر حرّم لمس الوساد وما أراه سهّله والمراد
ماسهر الواله معط له وصلأ ولو داوم طول السهاد
ولا اطّراح اللهو داع لما رام وسحّ الدمع سح المهاد
أطعمه حلو مراح الطلا وهام لما ماس دلاً وماد
.....

وقال الشعر الذي ليس فيه حرف مهمل :

فتنت بظني بنى خيبي بجفني تفنن في فتني
نجني فبت بجفني يفني فض نجبت ظني في يقظني
قضيب نجبي بزي يزبن نثنى فذقت جني جنني
.....

وقال شعراً يمكن قراءته طرداً وعكساً كقوله :

أمرت كلاماً ألقته مظنة تنظم هتف لأم الكرماء
أهب لوصف لا لما هب أمل ملما بها مل الفصول بهاء
أروح أطيل الدرب أبرم همه مرهبا بادلال يطاح وراء
.....

وهناك من الشعر ما يقرأ عرضاً وطولاً ، أي عمودياً وأفقياً :

ليت شعري لك علم من سقاي يا شفائي
لك علم من زفيري وضحائي
من سقاي ونحولي أنت دائي
يا شفائي وضحائي أنت دائي

وقال أيضاً من الشعر ما فيه بيت مهمل والآخر منقط ، وما فيه نصف مهمل
ونصف منقط ، ومن الشعر ما فيه كلمة مهملة والأخرى منقطة . وله كذلك
الشعر الذي له قافيتان ، فهذه الأبيات يمكن أن تقرأ على صورتين الأولى :

جنُّ الظلام فذ بدا متبسماً لاح الهدى
وهدت محباً ظلُّ في ليل الجفا لما هدى
رشأ غدا من سكر خمرة ريقه متأودا

.....

ويمكن أن تضاف إليها أجزاء أخرى فتقرأ :

جنُّ الظلام فذ بدا متبسماً لاح الهدى - ونجحت الظلماء
وهدت محباً ظلُّ في ليل الجفا لما هدى - وامتدت الآناه
رشأ غدا من سكر خمرة ريقه متأودا - فكأنها صهباء

.....

ونظم في الألفاظ والمعنى والأحاجي . يقول في الشطرنج :

وما اسم له شطر الصحيح منطق يعد بلا كسر وأحرفه خمس
إذا رامت الخمس الحواسا كتنافه تشارك فيه الطرف والسمع واللمس
صقيل أديم الجسم بالقصر سعيه وليس به روح ولكن به جسم

وأما (الشمس) فقد طلبه من أحد أصدقائه في لغز جميل هو :

يا جواداً أكفه في مجال الـ حرب حترف وفي النوال غمامه
جد بتضعيف عكس مشطور نصحية ف معنى ترخيم مثل (علامه)

شئل (علامة) هي (سمة) فيكون :

سمة ، سم ، سمم ، شمشم ، شم ، مش ، مشمش .

وقال في اسم (يعقوب) :

جمع حروف اسم من أراق دبي بحسن وجه وغنج أحداق
نصف اسم يعلي وخمس قسورة وثلت وهب والربيع من باقي

وقد نظم الكثير من الشعر لضبط المعلوم والفنون ليسهل حفظها ، كأبجر الشعر وأسماء الألحان ، وأسماء طيور الصيد وغير ذلك . قال في البحر الطويل :
طويل له دون البحور فضائل فمولن مفاعيلن فمولن مفاعيل
وقال في السريع :

بحر سريع ما له ساحل مستفعلن مستفعلن فاعل
وقال في أنواع الطيب وصفاتها ؟

ثلاثة في العود محمودة وتلك في العنبر لا تحمد
صلابة اللس وثقل به ولونه المعتكر الأسود
ولكن ، ليس هذا كله شعر الصفي في هذه الفترة فهناك قصائد رائعة تخلو من التعميد وليس فيها شيء من هذه الصناعة ، ولكن شغفه بهذا التعميد وهذه الصناعات المتنوعة جملة يميل إلى النظم فيها كثيراً .
وتنتهي هذه المرحلة بوفاة صفي الدين سنة (٧٥٠ هـ) .

٤ - صفات عامة :

تكاد الصفات والخصائص التي يمتاز بها شعر صفي الدين تكون واحدة في مراحلها المختلفة . فأسلوبه لم يتبدل وألفاظه في مستوى واحد ، والميزات الأخرى لشعره متساوية كذلك . وهذا أكبر دليل على أن الصفي بالرغم من صغر سنه حين بدأ ينظم الشعر ، كان شاعراً مجيداً . فقد بلغ في شعره حداً كبيراً من الاتقان والجودة ، وإنه بالرغم من اعتماده على الشعراء المتقدمين وأقاربه من شعرهم كانت له شخصيته الخاصة التي تظهر في روحه الشعرية ، ولا تختفي في معظم قصائده . وليس في هذا إلا البرهان على نضوجه الشعري وارتقاه موهبته . .

ولعل أول ميزة ظاهرة في شعر الصفي اهتمامه بالمحسنات اللفظية في جميع
سراحل شعره . ولقد كان هذا الاهتمام يتزايد مع الزمن حتى أغرق الصفي شعره
بالمحسنات البدئية ، كالجناس والطباق والاستعارات ، والتشبيهات وغير ذلك
من فنون البديع وألوانه :

فكم سحق الأنام وأنت راضٍ وكم رخص الملاح وأنت غالي
وكم جرّبت قبلك من ملبح فأسمى جيد حالي منه خالي
وقد اخترع الجناس المجنح الذي يقول فيه :

(أجرني) (أجزني) (واجزني) أجر مدحتي

ببرد إذا ما النار شب سعيها

وقد نظم قصيدة كاملة ملأى بهذا النوع من البديع :

سلّ سلسل الريق لم لم يرو حر ظمًا بل بلبيل القلب لما زاده ألما
قدّ قدّ قدّ حبيبي جبل مصطبري أن أن أن إن أجتني ذنباً فلا جرما
مذ ملّ ملّ قلبي في تعتبه لو كف كفكف دمعاً فيه صار دما
.....

وميزة أخرى يمتاز بها شعر الصفي بصورة عامة ، تلك هي طغيان الروح
الحماسية عليه ، فثد كان صغيراً وهو يحب الحماسة ، وزاد من شغفه بالحماسة
حادثة قتل خاله والأخذ بثأره وتفرّبه عن العراق ، وما تبع ذلك من حضوره
المعارك التي كان يخوضها الملوك الأرتقيون ووصفه للقتال والطمأن . وبالإضافة
إلى القصائد الحماسية الطويلة والمقطوعات القصيرة ، نجد الروح الحماسية في
شعره كله ، ففي المديح والرثاء ، وحتى في الغزل نجد الحماسة ، ونشاهد الطعن
والضرب . فحين يمدح السلطان الملك الصالح لا ينسى الحماسة فيقول :

من القوم في متن الجياد ولادهم كأن متون الصافنات مهود ؟
غيوث لهم يوم الجلال من الظبي بروق ومن وطه الجياد رعدو

وفي رثائه غماله يتحمس قائلاً :

واقسدحوا بالوعيد نار وغيّ وربّ نار وقودها الكلم
إن لم نقدّها شعماً مضرة تذبّ من نار حقدّها اللحم
بكل أزرٍ في متنه أسد وكل طود من فوقه صنم
من فتية أرخصوا نفوسهم كأنهم للحياة قد سئموا
ويتنزل فيمازج بين الغزل والحماسة في قوله :

ظلي من الأتراك ليس بتارك حسناً لمخلوق أتى من بعده
حمل السلاح على قوام مترف كاد الحرير يؤدّه من أدّه
فترى سمائل سيفه في نحره أبهى وأزهى من جواهر عقده
.....

وميزة ثالثة يمتاز بها شعر الصفي هي المبالغة . فنجدّه يزيد في تعظيم
الصورة التي يريد أن يعرضها أمامنا فيهبها ويجعلها تشبه المستحيل وقد كانت
هذه المبالغة في الشعر العربي منذ عصر المتنبي أو قبله ، فقد اهتم المتنبي بها
كثيراً حتى غلبت في شعره فرأيناه يقول لسيف الدولة :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي إلى قول قوم أنت بالغيب عالم^(١)
وجاء الشعراء من بعده فمنا بالمبالغة عناية كبيرة لأنهم كانوا يقلّدونه في
كل شيء ثم ظلت تتفشى في شعرهم حتى أصبحت ضرورية فيه .

وهكذا كان الصفي ، وهكذا كان شعره . فحين يمدح الملك المنصور يقول :
ما زال أمرك بالسعادة نافذاً في الأرض تمنع من تشاء وترزق
فيجمله كالمولى عز وجل الذي يقول في كتابه المجيد « يدسط الرزق لمن
يشاء ويقدر » .

ويقول أيضاً :

لو قابل الأعمى غداً بصيراً ولو رأى ميتاً غداً منشوراً

(١) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٣٨٧ .

ولو يشا كان الظلام نورا ولو أتاه الليل مستجيرا
أمنه من سطوات الفجر

وحين يتحمس يسرف في مغالاته فيقول :

وصير جأشه في البيد جيشاً ومن حزم الأمور له ربايا
أو يقول :

فأقت تقم للوحوش وظائفاً فيها وتصنع للفسور مادبا
وجعلت هامات السكاة منبراً وأقت حد السيف فيها خاطبا
وإذا رثى بالغ ، فقد قال في رثاء أحد أولاد الملك المنصور :

ما فقد فرد من الأنام كمن إن مات ماتت لفقده أمم

ياطالب الجود قد قضى (عمر) فمكل جود وجوده عدم

قضى الذي كان للأنام أباً فاليوم كل الأنام قد يتموا

وفي الغزل يغالي فيقول :

ورقيق الحدين قد قابل السكاس بوجه كرقعة الديباج

جرحت خده أشعة نور الرا ح شفت وراء جرم الزجاج

أو يقول أيضاً :

من كل ردف كالسكيب مجاذب قدأ أغض من القضيبي وألينا

* * *

أما أسلوبه فهو أسلوب جزل رصين ، لا تزال فيه بلة من الفصاحة
والرشاقة ، مسبوكة العبارة متين في تركيب الجمل محكم رصف الألفاظ ،
بالرغم من الركافة والضعف الذي تفتى في ذلك العصر ، وبالرغم من تدهور
الأساليب الأدبية في الشعر والنثر . فقد كان الصفي شاعر عصره ، وهو
النواة التي نقلت روح النهضة الشعرية من العصر العباسي إلى الأجيال التالية .
فلا عجب أن يكون أسلوبه متيناً رصيناً . ولا غرابة إن كان أسلوبه متميزاً
عن غيره من شعراء عصره بالجزالة والرفقة مع القوة والجمال قال متحمساً :

ظنت تأتي البزاة الشهب عن جزع وما درت أنه قد كان تهوينا
يصادق ظفرت أيدي الرخاخ بها ولو تركناهم صاروا فرازينا
ذلوا بأسيفنا طول الزمان ومذ تحكوا أظهروا أحقادهم فينا
وحين يتغزل يكون أسلوبه سهلاً سلساً ليناً هادئاً موسيقى الرنين كقوله :
أهلاً وسهلاً يا رسول الرضى شئفت سمي بلذيد الكلام
تهدي سلاماً من حبيب لنا عليك منا وعليه السلام
فأشهد بما شاهدت من حالي وصف جنوني إذ يمن الظلام
وإن تغافلت وأغفلتها عليك فيها لا علي الملام
ولولا سهولة أسلوبه ورقة شعره لما تغنى بشعره المغنون وأنشد المنشدون ؛
فطالما غنى أصحاب (المقامات العراقية) قوله :

يا ضعيف الجفون أضعفت قلباً كان قبل الهوى قوياً ملياً
لا تحارب بناظريك فؤادي فضعيفان يغلبان قوياً
وقد غنى له الموسيقار (الاستاذ محمد عبدالوهاب) قطعة شعرية جميلة :
« قالت كحلت الجفون بالوسن »^(١) وكأن الصفي عرف ذلك فقال عن قصائده :
ينزلها الشادون في نغماتهم ونحدوها طوراً حداة الركائب
وكثيراً ما نرى في شعره ما تتطلبه الخطابة في الأسلوب ، كاختيار

(١) قالت : كحلت الجفون بالوسن
قلت : ارتقاباً لطيفك الحسن
قلت : عن مسكني وعن مسكني
قلت : بفرط البكاء والحزن
قلت : تنابت . قلت : عن وطني
قلت : تغيرت . قلت : في يديني
صير مري هواك كالملمن
ذلك شيء لو شئت لم يكن
ساعة سعد بالوصل تسعدني
قلت : فاني للعين لم أبين
ترصدتني المنون لم ترني
قلت : كحلت الجفون بالوسن
قلت : تمليت بعد فرقتنا
قلت : تشاغلتي عن محبتنا
قلت : تناسيت . قلت : طابتي
قلت : تخليت . قلت : عن جلدي
قلت : أذعت الأسرار . قلت لها :
قلت : مررت الأعداء . قلت لها :
قلت : فإذا تروم ؟ قلت لها :
قلت : فعين الرقيب تنظرنا
انحلتني بالصدود منك فلو

الألفاظ والمبارات القوية الرفافة التي تؤثر في النفوس ويستعمل التكرار بمختلف صورته ، فهو يكرر أحياناً بأكثر من كلمة ، كما يكرر كلمتين أو أكثر :

إلى ملك يخفي السلوك فيجتلي	وتنلق أبواب السماء فيفتح
إلى ملك لا مورد الجود عنده	أجاج ولا مرعى السماح مصوح
إلى ملك يلقي الثناء بمثله	وينعم من بعد الثناء ويسمح
إلى ملك

ومن تكريره كلمة واحدة :

ومن أخذت مع وضعه نار فارس	وززل منها عرشها وسريها
ومن نطقت توراة موسى بفضله	وجاء به إنجيلها وزبورها
ومن بشر الله الأنام بأنه	مبشرها عن إذنه ونذيرها
ومن

وفي أسلوبه الكثرة من استعمال الجمل الشرطية :

(إذا) خاف ضيماً جارنا وجليسا	فن دونه أموالنا ورؤوسنا
(وإن) أعجبت نار الوقائع شوسنا	(تسيل على حد الظبابة نفوسنا)
(وليست على غير الظبابة تسيل)	

ويكثر كذلك من استعمال (كم) يقول :

(فـكم) غاية أدر كمتها غير جاهد (وكم) رتبة قد نلتها غير طالب

أو يقول :

(وكم) قد بذلت النفس أخطب وصلها وخطرت فيها بالنفيس على علم ويستعمل الصفي كثيراً فعل (القول) ليستعين به على إطالة شعره ، فيجعله على هيئة حوار بينه وبين الحبيب أو بين شخصين آخرين :

قالوا : هو البدر ، قلت : البدر ممحق

قالوا : هو الشمس ، قلت : الشمس تحتجب

قالوا : هو الغيث ، قلت : الغيث منتظر

قالوا : هو الليث ، قلت : الليث ينتصب

قالوا : هو السيل ، قلت : السيل منقطع

قالوا : هو البحر ، قلت : البحر مضطرب

ويتطور بهذا على هيئة قصة فما هو يصف قصة له مع فقيه زاره وهو يشرب
الخمر فدار بينهما هذا الحوار :

وليـلة زارني فقيهـه	في رشده ليس بالفقيه
رأى بيمناي كأس خمر	فظـل ينأى ويتقيه
فقلت : هلا ؟ فقال : كلا ،	فقلت : لم لا ؟ فقال : إيه !
ما ذاك مني ، فقلت : عدل	أنزه الكأس عن سفيه

وها هو يرسل حواراً طريفاً على لسان الزهور :

قـد نشر الزنبق أعلامه	وقال : كل الزهر في خدمتي
لو لم أكن في الحسن سلطانه	ما رفعت من دونهم رأيتي
فقهه الورد بـه هازئاً	وقال : ما تحذر من سطوتي ؟
وقال للسوسن : ماذا الذي	يقوله الأشيب في حضرتي ؟
وامتمض الزنبق من قوله	وقال للأزهار : يا عصبتي
يكون هذا الجيش بي محققاً	ويضحك الورد على شيبتي !

وأما ألفاظه فعريية فصيحة ، بالرغم من انتشار اللغات الأجممية
والألفاظ المستعجمة ، ولا شك أن اميئة الحلة العربية ولثقافة الصني أكبر
الأثر في ذلك . وهي موسيقية سهلة بالرغم من الافتتان بالغريب في عصره
وقد قال له أحد أصحابه : إن شعرك عظيم لكنه يخلو من الغريب كما ترى عند
المتنبي فأجابه بقصيدته المشهورة :

إنما الحيزبون^(١) والدرديس^(٢) والطنخا^(٣) والنقاخ^(٤) والمطبيس^(٥)
والحراجيخ^(٦) والشقهط^(٧) والصعقب^(٨) والعتقفيز^(٩) والعتريس^(١٠)
والغطاريس^(١١) والعتنفس^(١٢) والعتلق^(١٣) والخر بضيض^(١٤) والعتطموس^(١٥)

لغة تفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر الناظر الوحشي منها ويترك المأنوس
أين قولي: هذا ككثير قديم ومقال: عتقل قدموس!
أتراني إن قلت للحب: يا علق، درى أنه العزيز النفيس

.....

درست تلتكم اللغات وولت في نشاف^(١٦) نخف فيه الرؤوس

إنما هذه القلوب حديد ولذيد الألفاظ مقناطيس

وهذا أكبر دليل، وأسطع برهان على أن (ابن سرايا) كان يستعمل
الألفاظ السهلة المفهومة في شعره ويفضلها على الألفاظ الغريبة الغامضة .
وكانت ألفاظه في المديح والحماسة قوية جزلة يكثر فيها من الألفاظ
الحرية والضرب والشجاعة والقوة :

الكفاة ، القناة ، الهجاء ، الكفاح ، المرهف ، الصارم ، الصمصام ،
القرضاب ... الخ .

وكان ينمق هذه الألفاظ إذ يختار منها ما يلائم صورته وعباراته ويغير
ويبدل بها حتى تتم الصورة عنده وتكتمل فتكون جميلة منسجمة :

وكم أججوا نار الحروب وأقبلوا بجيش يصد السيل عن صربض العمم

(١) العجوز . (٢) الشيخ الهرم والداية . (٣) السحاب . (٤) الماء البارد
الذي يفتح الفؤاد . (٥) الأملس البراق . (٦) جمع حرجوخ : الناقصة الطويلة .
(٧) الكبيش العظيم . (٨) الطويل . (٩) الداية . (١٠) الناقصة الصلبة .
(١١) جمع غطريس : الظالم المتكبر . (١٢) اللثيم . (١٣) الضخم المسترخي .
(١٤) الجمل الصغير المنزول . (١٥) المرأة الجميلة التامة الخلق . (١٦) نشاف : جمع
نشفة وهي الحجارة السوداء كأنها بخرقة .

فلم يسمعوا إلا صليل مهندي وصوت زفيري بين قمعمة الحجم
جعلتهم نهيباً لسيفي ومقولي فهم في وبال من كلامي ومن كلمي
أو يقول مخاطباً الملك الناصر محمد بن قلاوون :

صرمت شمل المارقين بصارم تبديه مسلوباً فيرجع سالبا
وكتيبة تذر الصهيل رواعداً والبيض برقاً والمعجاج سحائباً
حتى إذا ريح الجلال حدث لها مطرت فكان الوبل نبلاً صائباً
بدوائب ملد يخلن أراقاً وشوائل جرد يخلن عقاربا
نظاً الصدور من الصدور كأنما تعاض من وطه التراب ترائباً

* * *

أما معانيه ، فكان يهتم بوجودتها ، ويفوص على الجميل الطريف منها ،
بالرغم من فساد الصور وسطحية المعاني التي سادت في ذلك العصر ، وبالرغم
من كثرة التقليد وسرقات المعاني من الشعراء المتقدمين التي يتميز بها الشعراء
المعاصرون له .. وكان يختار المعاني الجميلة للشعراء المتقدمين ويتناولها بأسلوبه
ويحسنها ويزيد عليها ويكسبها رونقاً وبهاءً فقد وصف الأقدمون الجواد
المجمل والكنه لم يبدعوا كهذه الصورة التي جادت بها قريحة الصفي :

أخذت بالادلج أنفاس الفلا وكحلت طرفي في الظلام بسهده
بأغر أدم ذي حجول أربع مبيضا يزهو على مسوده
خلع الصباح عليه سائل غرة منه وقمصه الظلام بجملده
فكأنه لما تمربل بالدجي وطى الضحى فايض فاضل برده

والصفي يبدع أكثر ما يبدع في حماسه رباتي بمعاني عظيمة تمتاز
بالخيال الخصب والفكرة العميقة والصورة الجميلة الواضحة البهيجة .

ونجد في قصائده الحماسية الكثيرة خير الأمثلة لما ابتكر من المعاني
الجديدة والصور الجميلة :

وبرزنا من السكاة بأطواد حلوم تسري على أطواد
وأخذنا حقوقنا بسيوف غنيت بالدِّما عن الأضداد
وهذه صورة جميلة أخرى يرسمها لنا :

جشمتها جرداً إذا رمت الملا أرسلتها فجرت إلى غاياتها
ما بين عينيها الأسنه طلّح فكأنها غرر على جبهاتها
سدت حوافرها الفضاء بمثير غنيت به العقبان عن وكناتها
إلى غير ذلك من المعاني الجميلة التي كان يصوغها ، والصور البديعة التي
كان ينمقها في مختلف أغراض الشعر .

الفصل الثالث

موضوعات شعره

كوصف حرب ووصف شرب و لطف عتب لقلب قلب
وذكر الف وشكر عرف وبكر وصف وندب وندب

١ - الحماسة :

وإنما نقدّم هذا الفن على غيره لتقديم الصفي إياه في ديوانه على سواه من فنون شعره ، ولأهميته عند الصفي ، فهو يمثل نفسه أحسن تمثيل ويصور حياته أصدق تصوير . ونريد به الشعر الذي يمثل الشجاعة والبأس والقوة والاقدام والضرب والطمان والحمية والغضب وغير ذلك .

فلقد قال الصفي شعر الحماسة منذ صباه ، واهتم به وحفظ منه نماذج كثيرة لمن سبقه من شعراء الحماسة كالمتنبي وأبي تمام . ولم لا يتحمس الصفي وهو البطل المغوار والفارس العظيم ، والمحارب الباسل الذي دخل المعامع وخاض غمرات الحروب وقد جاء مقتتل خاله أكبر حافظ على الاكثار من الشعر الحماسي ، فكان يتحمس للأخذ بثأره ويستنهض أقاربه إلى ذلك . وجاء يوم الأخذ بالثأر في (واقعة الزوراء) فأبلى بلاء حسناً وقاتل الأعداء قتالاً عنيفاً فتدفقت حماسته وتفجر شعره .

وللصفي (اثنتان وعشرون قصيدة) في الحماسة و (ثمان عشرة مقطوعة) .

هذا عدا الشعر الحماسي الكثير المنتشر في المدح والثناء والغزل والشكر والمراسلات وغير ذلك من أغراض شعره .

وتمتاز حماسة الصفي بالقوة والعنف وصدق العاطفة فيها ، فهو يعبر عن شعوره المختلج في صدره أصدق تعبير ، ويصور عاطفته الجياشة في قلبه أعظم تصوير ، لا يكذب ولا يدعي لأنه بطل حقاً ، ولأنه أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما يدعو إلى الفخر والاعجاب ، فلا عجب إن رأينا شعره الحماسي يصور جوانب كثيرة من حياته ويؤرخ صفحات من تاريخه لأنه هو البطل الذي دخل المعارك وخبرها وخاض غمرات الحروب فوصفها وعبر عما مر به من أحداث ، فاذا وصف المعركة لم تفته لمحة من لمحاتها ولم يعجز عن متابعة فرسانها وحركاتهم ، وأبطالها و ضرباتهم :

حتى إذا خطف المكافح خطفة	أتبعته منها شهاباً ثاقباً
صرمت شمل المارقين بصارم	تبسديه مسلوباً فيرجع سالباً
صافي الفرند حكي صباحاً جامداً	أبدى النجيم به شعاعاً ذاتباً
وكتيبة تذر الصهيل رواعداً	والبيض برقاً والمعجاج سحائباً
حتى إذا ربح الجلابد حدث لها	مطرت فكان الوابل نبلاً صائباً
بذوائب ملد يخلن أراقاً	وشوائل جرد يخلن عقارباً
تطأ الصدور من الصدور كأنما	تعتاض من وطه التراب ترائباً

والسيوف تلعب والنبال تراشق وكل شيء يصطرع .. ولا نسمع إلا صليل
الصوارم وتسكسر النصال وتساقط الرؤوس يقول :

فلم يسمعوا إلا صليل مهندي وصوت زئيري بين قمعة اللجم
ويقول :

وأخذنا حقوقنا بسيوف غنيت بالدما عن الأغمد
فكان السيوف عاصف ربح وهم في هبوبها قوم عاد

ويصور حركة الخيل وهي تحمل الفرسان إلى حومة الوغى كأنها الجبال الشواخ
أو السيل الجارف :

وأتينا من الخيول بسيل سال فوق الهضاب قبل الوهاد
كلما حاولوا الهوادة منا شاهدوا الخيل مسرقات الهواد
يتضح أن سرعة الحركة هي أهم ما تتميز به هذه الصورة ، وجميع صور الشعر
الحماسي عند الصفي . . . فالجند تتدافع ، والخيل تجري ، والسيوف تخطف
الأبصار ، والنبال كأنها المطر وهكذا . . . ولا يدل هذا على غير الشجاعة التي
يتمتع بها قوم الصفي ، والجرأة التي يتحلى بها كل فرد منهم ، والاقدام
الذي يعدونه أول ما يجب أن يتصف به المحارب عندهم .

لا شك أن الصفي في حماسه غالباً ما يلجأ إلى المبالغة في التصوير والمغالاة
في تجسيم الصورة ، ليظهر القوة والبأس وليجسم السطوة والعنف وليوضح
الصرامة والبطش . فتبدو روعة الحرب وشدة القتال ، ويترامى بلاه الأبطال .
وهذا ما يتطلبه الشعر الحماسي ، لأن معنى الحماسة التمتع بالقوة يقول :

فأقت تقسم للوحوش وظائفاً فيها وتصنع للنسور مادبا
وجعلت هامات السكاة منابراً وأقت حد السيف فيها خاطبا
فكان شعره قوياً في كل شيء ، قوياً في أوزانه المتدفقة ، ولحونه المدوية
الصاخبة ، وألفاظه الجزلة الضخمة ، وممانيه الجميلة الرائعة ، وأسلوبه الذي
نسمع فيه قعقة السلاح ومحممة الخيل واشتباك الأسنة وقراع السيوف :
صرمت شمائل المارقين بصارم تبديه مسلوباً فيرجع سالباً
صافي الفرند حكى صباحاً جامداً أبدى النجيع به شعاعاً ذاتبا
وكثيراً ما يخرج إلى مواضيع أخرى تتصل بالحماسة ، من قريب أو بعيد ،
فتراه تارة يفخر بنفسه أو بقومه ، وكيف لا يفخر الصفي وقد توفرت كل
أسباب الفخر ومقوماته فيه وفي قومه ، من شجاعة وكرم وجرأة وإقدام ،
وشرف وأصل عريق ؟ إستمع إليه يفخر بنفسه قائلاً :

فأصبحت أنفي ما ملكت لأقتني
وأرهن قولي عن فعالي كأنه
ومن يك مثلي كامل النفس يفتدي
وإني ليدي قائم السيف راحتي
ويقول :

قليل إلى غير اكتساب العلى نهضي
فكيف ولي عزم إذا ما امتطيته
على أن لي عزماً إذا رمت مطلباً
ويفخر بقومه فيقول :

وأكسبني قومي وأعيان معشري
سراة يقرُّ الحاسدون بفضلهم
إذا جلسوا كانوا صدور مجالس
أسود تعالت بالقناع عن عربنها
ونجري الحكمة أحياناً على لسانه في أمور الحياة وأحوال الناس :

وما كل وان في الطلاب بخطي
وربما انتقل إلى هجاء الأعداء والتعريض بهم ، فوصفهم بالقدر والخيانة
والمكر والخداع :

كم من عدو لنا أمسى بسطوته
كالصلّ يظهر لنا عند ممسه
يطوي لنا القدر في نصيح يشير به
أويقول :

صبراً على كيد العداة لعلنا
يا عصبية فرحوا بمصرع ليثنا
نسقي أخيرهم بكأس الأول
ماذا أمنتهم من وثوب الأشبل

والصفي في حماسته - وفي غيرها من فنون شعره - متأثر بالمتنبي إلى حد بعيد ، فقد رأيناه يمارض قصائده ويضمّن أبياته ، ويقتبس معانيه ويستعين بصوره ويتشبه به في كثير من الأمور . ولا عجب أن يفعل الصفي ذلك فإن المصادفات جعلت هناك تشابهاً كبيراً بين الصفي والمتنبي في الحياة والترية والفساة والظروف .

فقد ولد هذان الشعاران في العراق في بلدين شيعيين ، في كل منهما نهضة أدبية علمية ، وترك كل من الشعارين العراق في شبابه ، وطاش كل منهما في كنف دولة إسلامية قوية ، المتنبي عند الحمدانيين والصفي عند الأرتقيين وجال كل منهما البلاد العربية ووصل إلى مصر ، فقد وفد المتنبي على كافور ومدحه ، ووفد الصفي على الملك الناصر ومدحه أيضاً ، وطاد كلاهما فيما بعد إلى العراق . نجد هنا إذاً تشابهاً في الظروف والأدوار التي مرت بها حياة كل من هذين الشعارين ، ولا بد أن تفعل فعلها في التشابه بينهما من حيث روح الشعر وموضوعاته ومبزماته ، فلا عجب إن رأينا الصفي يرى أن خير أستاذ له من الشعراء المتقدمين هو أبو الطيب المتنبي فتأثر التلميذ بأستاذه ، وخاصة في أبرز ما عند المتنبي والصفي من فنون الشعر وهو فن الحماسة .

ولا يخفى أن كلاهما كان يشترك في الحروب ويدخل الممارك ، فيصف القتال وصفاً واقعياً حياً ، يعتمد على شيء محسوس ملموس قد انتزع صور هذا الوصف كلها من التجربة العملية ، والواقع الأكيد ، فبمد هذا الشعر عن الأوصاف الخيالية والادعاء الذي كان عند كثير من الشعراء لذلك كان شعرهما ما يكاد تلتقطه الأسماع حتى تهتز القلوب وتندفع النفوس متحمسة إلى القتال متعطشة إلى الطعام والضراب ، فهو يسري فيها سريان السحر . وقد رأينا الصفي يقتبس الكثير من أبيات المتنبي ويضمنها شعره :

فإذا ما افتخرت بالود قالوا : (لا افتخار إلا لمن لا يضم)

فالشطرة الثانية من هذا البيت للمتنبي في قوله بمدح (علي بن أحمد الخراساني) :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام^(١)

وقوله :

إذا أرسل البيض الصفاح لغارة تتابع طوراً أمره ونخاصم
(يحاجي به ما ناطق وهو ساكت يرى ساكتاً والسيف من فيه ناطق^(٢))
فألبيت الثاني من قصيدة يمدح بها المتنبي (الحسن بن اسحق التموخي) .
ويقول الصني وقد أشار إلى تضمين شعر المتنبي :
وانظر لقول (ابن الحسين) وقد رأى حالا يشق على الأبني ويمظم :
« لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم »^(٣)
وقد اقتبس الصني الكثير من معاني المتنبي . فقد اقتبس قول أبي الطيب
في سيف الدولة :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
نمرُّ بك الأبطال كلهم هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم^(٤)
فقال الصني :

وقفت لها والرهفات ضواحك وجوه الردى ما يبينهن كوالح
ووجهك وضاح وعضبك ناضح وزندك قداح وعزمك فادح
ولكننا نجد بعض فروق بين حماسة الصني وحماسة المتنبي :

فالصني في حماسته مسلم ، يتحدث عن عاطفة إسلامية وفكر مسلم ، يمدح
حماة الاسلام الذين يدافعون عن الدين الحنيف ، ويعلمون كلمته ، بينما المتنبي
عربي يتمصب لعروبته نجد في شعره فتوة عربية اجتماعية . . . تشيع في وصفه
حية قوية مضطربة وكأنها الكهرباء^(٥) ، وذلك لأن المتنبي عاش في ظل دولة

(١) ديوان المتنبي ج ٤ ص ٩٣

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٤٧

(٣) نفس المرجع ج ٤ ص ١٢٣ .

(٤) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٨٧ .

(٥) مع المتنبي - الدكتور طه حسين ج ٢ ص ٣٢٢ .

عربية ، هي دولة الحمدانيين ، وفي بلاط ملك عربي هو (سيف الدولة) ، في حين أن الصفي عاش في ظل دولة تركية إسلامية هي دولة الأرتقيين ، وفي بلاط ملك تركي هو (المنصور نجم الدين غازي) . فلا يستطيع الصفي أن يظهر تعصبه للعروبة ونخره بالعرب وهو يعيش في كنف ملك غير عربي .

وكان الصفي يفخر بنفسه إلى جانب نخره بقومه وأهله ، بل نجد نخره بأهله وقومه يسبق نخره بنفسه ، ويفخر به عليه . يقول :

وأكسبني قومي وأعيان معشري حفاظ المعالي وابتدال الرغائب

بينما المتنبئ لا يفخر إلا بنفسه ، ويتعالى على قومه وأهله :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبفسي نخسرت لا بمجودي

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وحتف الحسود^(١)

ولو أن جيوش الأرتقيين كانت تشدبك بحروب مع جيوش الروم ، في زمن الصفي ، كتلك الحروب الطاحنة التي كانت تدور رحاها بين جيوش الروم وجيوش سيف الدولة ، في زمن المتنبئ ، لرأينا عند الصفي ، تلك القصائد الطوال العظيمة التي وصف بها المتنبئ تلك الحروب وما يتبعها من نصر وغنيمة ونخار .

٢ - المديح :

ومدائح الصفي كثيرة ، وهي مع كثرتها تمتاز بالجودة والانتقان ، لأنه لم يوزع مدائمه على هذا وذاك ، ولم يمدح كل من يرى ، وإنما مدح الذين أحس أنه يجب أن يمدحهم ، وشعر نحوهم بماطفة قوية تحتم عليه مدحهم ولو لم يمدحهم لما استراح ، لأن تلك المعاني ستظل تضطرب في نفسه وتختلج في أعماق روحه . فهو لم يمدح إلا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) والسلطين

(١) ديوان المتنبئ ج ١ ص ٣٢٣ .

الثلاثة الذين أكرموا وكانوا عنده بمنزلة لا تعدلها منزلة ، وهم : الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي بن أرتق ، وابنه الملك الصالح شمس الدين أبو المكارم صالح ، والملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولذلك يجب أن نقسم مدائح الصفي إلى قسمين : الأول المدائح النبوية ، والثاني مدائح السلاطين الثلاثة . ويجب أن نتناول بالدرس كل قسم من هذين القسمين منفرداً ، لأن لكل قسم ميزات وخصائص وصفات تجعله يختلف بها عن الآخر .

أ - المرائح النبوية :

هذا فن شعري وجد بعد وجود التصوف ، لأنه يعتبر وسيلة للتعبير عن طائفة دينية ، يصدر عن القلوب العائرة بالايان ، الطائفة بالاخلاص للدين ، والحب للرسول الكريم .

وأول من مدح الرسول (ص) هو (الأعشى) في قصيدته التي مطلعها :

ألم تغمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
ولكن مدحه هذا ليس صادقاً نوجه الله والحق ، وإنما كان من أجل العطاء ،
فحين أغرته قريش لم يعد إلى مدح النبي (ص) . ثم كانت حادثة (كعب بن زهير)
وإهدار النبي دمه ، فدحه بقصيدته المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متمم إثرها لم يفد مكبول
وقد كان نصيب هذه القصيدة من الإعجاب والتقدير والاهتمام ، عظيماً من
الدارسين والشارحين والمشرطين والخمسين والعارضين ومن عارضها
(جمال الدين محمد بن نباتة المصري) بقوله :

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربكم ميل
وشعر (حسان بن ثابت) - شاعر النبي - في مدحه كثير ، ويمتاز بالصدق

المظيم ، والاخلاص العميق ، إلا أنه كان مدحاً على طريقة شعراء الجاهلية .
ومن أعظم قصائده عينيته التي مطلعها :
إن الدوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
وهزيتة التي يقول فيها :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها (كداء)
ثم جاء كثير من الشعراء قالوا في مدح النبي وآل النبي ؛ (كالفرزدق)
في مدح الامام (علي بن الحسين) و (الكيث بن زيد) وهاشمياته مشهورة ،
و (دعبل الخزاعي) وقصائده عديدة ، ثم (الشريف الرضي) وتلميذه
(مبيار الديلمي) وقد مدح النبي في صرائيها لشهيد كربلاء (الحسين بن علي)
إلا أن هذا كله لا يعتبر من الفن الأصيل في المدائح النبوية . أما الذي يعتبر
مدحاً نبوياً أصيلاً فهو مدائح البوصيري (محمد بن سعيد بن حماد) وأشهرها
(البردة) التي مطلعها :

أمن تذكر جيران (بندي سلم) منجت دمعاً جرى من مقلة بدم؟
« وأغلب الظن أن البوصيري استأنس عند نظمها بميمية (ابن الفارض) التي
مطلعها « (١) :

هل نار ليلى بدت ليلاً (بندي سلم) أم بارق لاح في الزوراء فالعلم ؟
وبردة البوصيري هذه هي التي أرست قواعد المدائح النبوية ، فأهتم بها الناس جميعاً
بله الدارسين والناشرين والشارحين... وقد شطرها وخمسها وعارضها كثيرون.
مدح الصفي الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وآله الميامين (رضي الله
عنهم) بخمس قصائد طوال وتمازي مقطوعات . والقصائد عظيمة رائعة ، عتبر
فيها عما يحس به من حب وولاء للرسول الأمين وآل بيته الأطهار وقد نظم
واحدة من هذه القصائد عند قبر الرسول في المدينة وقد بدأها بالفضل .
ومطلعها :

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي ص ١٥١ .

كفى البدر حسناً أن يقال نظيرها فيزهي ولسكنا بذاك نضيرها
وهي طويلة . ونظم الثانية في ليلة مولد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
وقد بدأها بالمدح رأساً ومطلعها :

خدمت لفضل ولادك النيران وانشق من فرح بك الايوان
ومدحه بثالثة بدأها بوصف الطبيعة قائلاً :

فيروزج الصبح أم ياقوتة الغسق بدت فهبجت الورقاء في الورق
وأما الرابعة فقد عارض بها (ابن المعتز العباسي) في قصيدته التي يمجو بها
العلويين ومطلعها :

ألا من لعين وتسكابها تشكى الأذى وبكاهها
فنظم الصفي قصيدة للرد عليه أولها قوله :

ألا قل لشر عبيد الآله وداعي قريش وكذابها
ويظهر في هذه القصائد كلها إيمان الصفي وتمسكه بدينه الاسلامي الخنيف
وحبه لنبيه الكريم حباً شديداً . . . يقول فيه :

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها
ومن أخذت مع وضعه نار فارس وزلزل منها عرشها وسريرها
ومن بشر الله الأنام بأنه مبشرها عن أمره ونذيرها
ويقول فيه أيضاً :

محمد المصطفى الهادي الذي اعتصمت به الورى فهداهم أوضح الطرق
ومن له أخذ الله اليهود على كل النبيين من بادٍ وملتحق
ومن رقى في الطباق السبع منزلة ما كان قط اليها قبل ذاك رقى
ومن يقصر مدح المسادحين له عجزاً ويخرس رب المنطق الدلق
ويعدد مناقب الرسول الكثيرة فيقول :

خدمت لفضل ولادك النيران وانشق من فرح بك الايوان
وتززلل النادي وأوجس خيفة من هول رؤياه (أنوشروان)

فتأول الرؤيا (سطيح) وبشرت
فوضعت لله المهيمن ساجداً
ورأت قصور الشام (آمنة) وقد
وضعتك لا تخفى لها أركان
.....

وهكذا يستمر في المناقب والمعجزات . ويختتم هذه القصيدة طالباً الشفاعة بها:

فأشفع لعبد شأنه عصيانه إن العبيد يشينها العصيان
فلك الشفاعة في محبكم إذا نصب الصراط وعلق الميزان
فلقد تمرض للاجزة طالباً في أن يكون جزاءه الغفران

وهذا تصوير رائع لمناقب الرسول ، ولا أظن شاعراً تهماً له أن يصور ما يحس به نحو نبيه الكريم على نحو ما صنع الصفي إلا نادراً . وقد هياً له كل هذا إيمان متين ، وتدين عميق وإسلام صحيح ، وحس مرهف وشعور فياض . . جعله يبدع في شعره كما لم يبدع شاعر فنان غير على دينه . وقد أوجد لنا صوراً رائعة حية في قصائد طوال تمتاز ، مع جمال أسلوبها وقوته وما صورته مما يعجز عن تصويره المؤرخون ، بالتعبير عن الانفعالات النفسية والأحاسيس الوجدانية ، التي يحس بها الملايين من البشر ممن يدينون بالدين الحنيف . فهو يرى أن الرسول محمداً هو سيد الرسل ، والمخلوق الأول ، والمفضل على جميع الأنبياء في كل شيء وخير خلق :

يا خاتم الرسل بعثاً وهو أولها فضلاً وفائزها بالسبق والسبق
جمعت كل نفيس من فضائلهم من كل مجتمع فيها ومفترق

ويتجلى في هذه القصائد وما يلحقها من مقطوعات تشيع الصفي لآل علي وحبه لآل البيت ، فهو يحفظ الأحاديث التي قالها الرسول في مدح علي وأولاده كقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » فيقتبسه في قوله :

مدينة علم وابن عمك بابها ومن غير هذا الباب لم يؤت سورها

أو يقول : إن الامام علياً هو الذي ورث العلم عن الرسول :
وعلى ابن عمك وارث العلم الذي ذلت لسطوة بأسه الشجعان
والصفي بمدح الرسول لسكي يشفع له في يوم الحشر :

وبين يدي نجواي قدّمت مدحة قضي خاطري ألا يخيب خطيرها
تروم بها نفسي الجزاء فكن لها مجزأً بأن تسمي وأنت مجيرها
أو يقول :

فأشفع لعبد شانه عصيانه إن العبيد يشينها العصيان
والصفي لا ينسى الصحابة الكرام ولا يغمط حق واحد منهم أو يجهل فضله
فيذكرهم جميعاً بخير يقول :

وعلى صحابتك الذين تتبعوا طرق الهدى فهداهم الرحمان
وشروا بسعيهم الجنان وقد دروا إن النفوس لبيها أمان
ويقول كذلك :

وصحبك النجب الصيد الدين جروا إلى المناقب من تالٍ ومستبق
قوم متى أضمرت نفس امرئٍ طرفاً من بفضهم كان من بعد النعيم شقي
وهذه المدائح النبوية هي أصدق شعر أتى به الصفي ، لأنه نظمها لنفسه ، نظمها
لتشفع له في يوم الدين ، نظمها لتتبر له الظلام حين يدهم الخطب ، فهو
صادق فيها كل الصدق إذ لم ينظمها ليؤزلف بها إلى أحد ، أو ليحصل على
جاه أو شهرة بين الناس . فهي تمثل أرفع مراتب شعره ، وأدقها تصويراً
وأصدقها تعبيراً .

وقد اخترت إحدى هذه المدائح لأتناولها بالتحليل ، وهي رأيته التي
قالها في المدينة المنورة ، ومطلعها :

كفى البدر حسناً أن يقال نظيرها فيزهي ولكننا بذاك نضيرها
وهي قصيدة طويلة تبلغ تسعين بيتاً في البحر (الطويل) .

لقد بدأ الصفي بالغزل ، كما اقتضى فن (المدائح النبوية) ، وقد بلغت

أبيات الغزل عشرين بيتاً ، وهو غزل جميل ، فيه رقة ولطف ، وفيه تأدب واحتشام ، فقد أوجب القدماء ذلك : « . . الغزل الذي يصدر به المدح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ، ويتضاهل ويتشبيب مطرباً بذكر (سلع) و (رامة) ... » (١)

استمع إلى الصفي يقول :

أسيرة حجل مطلقات لحاظها قضى حسنهما ألا يفك أسيرها
تهم بها المشاق خلف حجابها فكيف إذا ما آن منها سفورها ؟
وليس عجيباً إن غررت بنظرة إليها فمن شأن البدور غورها
خبيثته محجة محجلة لا تسفر ، لذا فهو متألم حزين ، يرسل قلبه الزفرات :
وكم نظرة طادت إلى القلب حسرة يقطع أنفاس الحياة زفيرها
والصفي في هذا الغزل يرجع إلى طبيعته ، فيضني عليه حماسته الممهودة :
فواعجيباً كم تسلب الأسد في الوغى وتسلبنا من أعين الحور حورها
فتور الظبي عند القراع يشينها وما يرهف الأجفان إلا فتورها
.....
تمانع عما في الكناس أسودها وتحرس ما تحوي القصور صقورها
تغار من الطيف الملم حماها ويفض من مر النسيم غيورها
إذا ما رأى في النوم طيفاً يزورها توهمه في اليوم ضيفاً يزورها
وزرنا فأسد الحي تذكي لحاظها ويسمع في غاب الرماح زفيرها
فالصفي قد أبدع في غزله العفيف الشريف هذا ، المليء بروح الحماسة ، وقد صور لنا حمية العربي الذي يغار على عرضه فيحتمي المرأة حتى من الأطفاف ويحرسها حتى في دنيا الخيال .

لكن الصفي المحب لا يهاب كل هذا ، ويعرض نفسه لتلك المخاطر ، إذ لا يستطيع إلا أن يزورها فهو يقول :

(١) خزانة الأدب لأبن حجة الجوزي ص ١٤ .

فيا ساعد الله المحب لأنه يرى غمرات الموت ثم يزورها
غير أن الواشين لا يدهونه ينعم إذ يكلدرون عليه صفو هنائه :
ولما ألمت للزيارة خلصة وسجف الدياتجي مسبلات ستورها
سمى بيننا الواشون ، حتى حجوها ونمت بنا الأعداء ، حتى عبرها
وهمت بنا لولا غداً شرعها خطى الصبح لكن قيده صفورها
أرأيت كيف يصف الصفي رفين حجها ونفح عبرها ، ويجعله من الذين
يكشفون سر اللقاء ؟ إنه وصف بديع !

ومن هنا ينتقل الصفي إلى الشكوى من الزمان ولياليه :
ليالي يمديني زماني على المدى وإن ملئت حقداً عليّ صدورها
ومذ قلب الدهر المجن أصابني صبوراً على حال قليل صبورها
إنه يفخر بنفسه ، بصيره واحتماله ، وسيق صابراً حتى النهاية :
فلو تحمل الأيام ما أنا حامل لما كاد يمحو صبغة الليل نورها
سأصير أما أنت تدور صروفها عليّ وأما تستقيم أمورها
وقد أرندي ثوب الظلام بجسرة عليها من الشوس الحماة صبورها
كأني بأحشاء السباب خاطر فما وجدت إلا وشخصي ضميرها

ومن هذا الفخر يفضي إلى وصف الصحراء ، وهو وصف قد أبدع فيه !
كيف لا وهو الذي قطع الفيافي والقفار وحيداً فريداً يوم رحل من بلده إلى
(ماردين) بعد واقعة الزوراء ؟ فخير الصحراء ورأى ما فيها ، وعرف محاسنها
ومساوئها . فلفستمع اليه وهو يبديع في رسم صور الصحراء كأبرع فنان :

وصادية الأحشاء غضى بألها يعز على الشمري العبور عبورها
ينوح بها الحرّيت ندباً لنفسه إذا اختلفت حصباؤها وصخورها
إذا وطئتها الشمس سال لها بها وإن سلكتها الريح طال هديرها
وإن قامت الحرباء توسد شعرها أصيلاً أذاب الطرف منها هجيرها
تجنب عنها للحذار جنوبها وتدبر منها في الهبوب دبورها

خبرت سراي أرضها فقتلتها وما يقتل الأرضين إلا خبيرها
ولكن . . ألا يصف (صفي الدين) مطيته التي قطع بها هذه الصحراء؟ نعم
لقد وصف الصفي ناقته ، وأجاد الوصف ، وقدم لنا كل ما نريد أن نعرفه
عن هذه الناقة التي زاملته في سفرته وصحبته في تنقلاته ؛ صوتها الجميل ،
وسيرها المتزن ، وآثار أقدامها التي تشبه حرف النون .. إلى آخر ما هنالك :

بخطوة مرقال أموت عثارها كثير على دفق الصواب عثورها
ألد من الأنعام رجع بغامها وأطيب من سمع الهديل هديرها
حروفاً كنونات الصحائف أصبحت نخط على طرس الغيافي سطورها
إذا نظمت نظم القلائد في البرى تقلدها خصر الربى ونحورها
يعبر عن فرط الحنين أنينها ويمرب عما في الضمير ضمورها
ولا ينسى الصفي أن يذكر أسماء لأمكن متعددة في الجزيرة العربية مثل :
(زرود) و (شميط) و (رنب قطن) و (رمل عاج) إلى غير ذلك ... والصفي
معذور في ذكر هذه الأسماء ، فهو يريد أن يبين أنه يعرف هذه المواضع
من الجزيرة ، ويشير إلى أنه يسير في الجزيرة العربية ، وإلى ذلك فهو يقصد
الأرض التي لها صلة بممدوحه ، فعلينا نشأ وترعرع ، وفيها دفن :

فلما تراءت عن (زرود) ورملمها ولاحت لها أعلام (نجد) وقورها
وصدت يمينا عن (شميط) وجاوزت (رنب قطن) والشهب قدشف نورها
وعاج بها عن رمل (عاج) دليلها فقامت لعرفان المراد صدورها
غدت تتقاضانا المسير لأنها إلى نحو خير المرسلين سيرها
إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها
ففي هذين البيتين يمهّد للانتقال إلى المديح ، فالناقة تحت السير وتسرع
الخطى كي تصل الرسول فما بالك براكبها ؟

ويبدأ وصف معجزات الرسول الكريم فيذكر ما أصاب المشركين يوم
ولادته وما وقع من آيات كخمود نار فارس ، وتبشير الله به وغير ذلك :

ومن أخذت مع وضعه نار فارس وزلزل منها عرشها وسريرها
ومن نطقت توراة موسى بفضله وجاء به إنجيلها وزبورها
ومن بشر الله الأنعام بأنه مبشرها عن إذنه ونذيرها
.....

أيا آية الله التي مذ تبلجت على خلقه أخفى الضلالَ ظهورها
وقد عبر الصفي عن فرحته بزيارة قبر الرسول الكريم ، فسلم عليه ، وكرر
السلام وأعادته ، واصفاً إياه بما يرى من صفات التقديس والتعظيم :

عليك سلام الله يا خير مرسل إلى أمة لولاه دام غرورها
عليك سلام الله يا خير شافع إذا النار ضم الكافرين حصيرها
عليك سلام الله يا من تشرفت به الأنس طراً واستتم سرورها
عليك سلام الله يا من تعبدت له الجن وانقادت إليه أمورها

ثم يندفع يبين أن أقدامه تشرفت في هذه الرحلة لأنه يقصد زيارة الأرض
الحرام ، وأن فمه غدا يفاخر عينه بعد أن لثم تراب القبر :

تشرفت الأقدام لما تتابعت إليك خطاها واستمر مرورها
وظاخرت الأفواه نور عيوننا بتربك لما قبلمته ثغورها
ولا يكتفي بهذا كله ، لذا يقول :

فضائل رامتها النفوس فقصرت ألم تر للتقصير جزت شمورها
ولو وفيت الوفاة قدرك حقه لكان على الأحداق منها مسيرها

ثم يمدح آل بيت النبي ، ويضمن شعره حديثاً شريفاً هو : « أنا مدينة العلم
وعلي بابها » :

مدينة علم وابن عمك بابها فمن غير ذلك الباب لم يؤت سورها
فألك خير الآل والعترة التي محبتها نعى قليل شكورها
إذا جولست للبذل ذل نضارها وإن سوجلت في الفضل عز نظيرها

والصفي لا يفتى الصحابة ، فهو يحبهم ويقدرهم جميعاً ، فيقول فيهم :

وصحبك خبير الصحب والغرر التي بها أمنت من كل أرض ثغورها
كحاة حماة في القراع وفي القرى إذا شط قاربها وطاش وقورها
ولا ينسى الصفي أن يشكو إلى النبي حال المسلمين والظروف القاسية التي يعمرون
بها ، وجثوم المغول على قلب العالم الاسلامي كله ، واقترافهم لأبشع الجرائم ،
وارتكابهم القتل والحرق والتدمير . ولكنه يتفاهل بأن العالم العربي سيتخلص
من هذا بتأزر العرب ، ومساعدة النبي الكريم :

إليك رسول الله أشكو جرائمها يوازي الجبال الراسيات صغيرها
كباثر لو تبلى الجبال بحملها لدكت ونادى بالثبور ثبيرها
وغالب ظني ، بل يقيني ، انها ستمحى وإن جلت وأنت سفيرها
ويعود الصفي فيذكر أن قصيدته هذه مناجاة للنبي (ص) ، وما قالها إلا لئلا الجزاء :
وبين يدي نجواي قدمت مدحة قضى خاطري ألا يخيب خطيرها
تروم بها نفسي الجزاء فسكن لها مجزأ بأن تمسي وأنت مجيرها
ثم يذكر (كعب بن زهير) ومدحه للنبي ، وكيف أن النبي أعطاه برده بعد
أن فرغ من انشاد قصيدته ، وقد ظلت هذه البردة الشريفة حتى اشتراها
(معاوية) من أولاد كعب بغالي الثمن :

فلا بن زهير قد أجزت بردة عليك فأثرى من ذويه فقيرها
وبعد أن يفخر بشعره يعتذر للنبي عما في قصيدته هذه من نقص لأن الشعر
لا يمكن أن يحيط بصفات النبي العظيم :

وإن زانها تطويلها واطرادها فقد شانها تقصيرها وقصورها
إذا ما القواني لم تحط بصفاتكم فسيان منها جمها ويسيرها
ويحتتمها بقوله :

بمدحك تمت حجتي وهي حجتي على عصبية يطغى علي فجورها
أقص بشعري اثر فضلك واضعاً علاك إذا ما الناس قصت شعورها
وأسهر في نظم القواني ولم أقل : خليلي هل من رقدة أستعيرها ؟

ب - مرص السراطين :

لم يكن الصفي يريد أن يضمّن ديوانه مدح أحد من الناس أباً كان ،
فماهد نفسه « ألا بمدح كريماً وإن جل » ولهذا قال :

وأعرضت عن مدح الأنام ترفعاً سوى معشري إذ كان مجدي منهم
وقلت كقول ابن الحسين مورياً : « إذا كان مدح فالنسب المقدم »

فهو بمدح أهله وقبيلته ، وذلك هو شعر الفخر . . . ولم يقصد إلا إلى مدح
الرسول الأمين . وظل كذلك بارأً يمينه وفيأً بعهدته حتى حدث ما أجبره
على طرق باب المدح . فحين ترك العراق والتجأ إلى حمى الملوك الأرتقيين في
(ماردين) ، ولقي مالقي من حفاوة وتكريم ورعاية وتمظيم ، وجد زاماً
عليه أن يردّ جميلهم بجميل مثله ، فلم ير أحسن من أن يقول فيهم الشعر
الرائع والقصيد الجليل ، فدح (الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق)
وابنه (الملك الصالح شمس الدين صالح) . بل لقد كان يغالي أحياناً فيصرح
بأنه وقف شعره على الملك المنصور فحسب ولن بمدح سواء أحداً . استمع إليه
يختتم إحدى قصائده فيه :

ولقد وقفت عليك لفظي كله مما أحل به وما أنا طاقد

فاذا نظمت فأنني لك ماح وإذا نثرت فأنني لك حامد

ويقول وقد أحس بأبداعه في مدح المنصور :

فلقد وقفت على علاك بدائماً يعي بأبسرهما الفصيح المفلق

قالوا : خلقت موفقاً لمديحه ، فأجبتهم : إن السعيد موفق

وقد يغلو في ذلك فيقول للملك الصالح إنه لم بمدحه إلا لكونه ابناً للمنصور :

يا ابن الذي كفل الأنام كأنما أوصاه آدم في كناية ولده

الملك المنصور والملك الذي حاز الفخار بجده وبجده

أصل به طابت مآثر مجدكم والغصن يظهر طيبه من ورده

وهو الذي شغل العدو بنفسه غني كما شغل الصديق بحمده
وأجرتني إذ حاولت دمي العدى ورأت شفاه صدورها في ورده
ولذلك لم يرني بمنظر شاعر تبغي قصائد جوائز قصده
ودرى بأن نظام شعري جوهر وسواه نحر لا يليق بعقده
ولقد عهدت إلى عرائس فكري أن لا تزف لمنعم من بعده
لكنك الفرع الذي هو أصله شرفاً ومجدك بضعة من مجده
ونحيثه في سره ووصيئه في أمره وصفيئه من بعده

فن أجل ذلك مدح (الصالح) إمدأبيه (المنصور) ، وقد آلى على نفسه
« ألا يمزج مدحها بثالث » ورجا ألا يضطر من جديد إلى الخنث في هذه
الآلية فيمدح غيرها . وظل على ذلك حتى جاء مصر سنة (٦٢٣ هـ) والتقى
بالمك (الناصر محمد بن قلاوون) فأحسن مقابله وأكرم وفادته واضطره إلى
مدحه أيضاً فلنستمع إليه يبين ذلك إذ يقول : « . . . وأهلتُ للشول في
الحضرة الملكية الناصرية . . . وشملني من الانعام ما فأجاني به ابتداءً ولم
أملك له خبيراً ، أؤتمني المروءة بمكافأة تلك الحقوق ، ورأيت كفرانها
كالمعقوق ، وأن تكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين ، فنظمت
في معاليه ما طاب لفظه ومعانيه . . . »^(١) فهو بمدحه على أن يكون الثالث
الذي لا رابع له ، وبر الصفي بهذه اليمين فعلاً ولم بمدح رابعاً . فعلى الرغم
من إكرام (الملك المؤيد اسماعيل) صاحب حماة له وتمظيمه إياه وجريان عطاياه
وهداياه عليه ، لم بمدحه بقصيدة واحدة ، وإنما كان يقول شعراً يشكره فيه
على إكرامه وعطاياه ، ويهنئه بالأعياد ويسميه شكراً وتهنئة ولا يسميه مدحاً .
وهكذا كان على الصفي أن بمدح . وحقيقة المدح وصف المدوح بأخلاق
كريمة يحمد عليها . والشعر العربي مليء بالمدح منذ القديم وكان قليل من
الشعراء بمدح لرغبة في نفسه (كزهير بن أبي سلمى) حين مدح المرين

(١) ديوان صفي الدين ص ٥

- هرم بن سنان ، والحارث بن عوف - ولكن أكثرهم يمدح للتكسب ، فكان معظم هذا المديح مفتعلاً لا عاطفة فيه يتصف بالمبالغات ويمتليء بالكثير مما لا يعقل ، وتزايد الغلو على مر العصور حتى قال المتفني لسيف الدولة :
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
وصار الشعراء يكيلون الأوصاف لمدوحهم دون حساب ، وأفضوا إلى الكفر والخروج عن الحد واصفين بمدوحهم بما ليس فيهم .

أما شعر الصفي فلم يكن كذلك ، لأن الصفي ما كان يقول غير ما يعتقد ، وما كان يعتبر إلا عما يحس به في قرارة نفسه ، فديحهم ليس كديح أولئك الشعراء ، لأنه صادر عن طبع سليم ونية صادقة وشعور عميق ، ولأنه لم يمدح إلا ثلاثة كان المدح أقل مما يمكن أن يجازيهم به ، لما أولوه من فضل جزيل وخير عميم ، حتى أصبح يحس نحوهم إحساس الأخ الودود لأخيه الحميم . فما كان مدحه طلباً لكسب أو رغبة في جاه ، وهو ليس محتاجاً إلى التكسب بشعره . ويرى الشعر فناً سامياً يجب أن يصاب ويرفع عن الانزلاق إلى هذه الشبهات . وليس هو بحاجة إلى الجاه وهو ابن الكرام الأشراف . فهو يقول هذا المديح صادقاً دون مملأة أو مراعاة ، ودون كذب أو نفاق ، يعبر عما يحس به أصدق تعبير نحو هؤلاء السلاطين الثلاثة... يقول للملك الصالح :

مدحي لمجدك عن وداد خالص وسواي يضمه صابه في شهده

أنا لا أروم به الجزاء لأنه بحر أنزه خلتي عن ورده

لا كالذي جعل القريض بضاعة متوقفاً كسب الغنى من كده

ومدائح الصفي (تسع وعشرون قصيدة) و (ثلاث وعشرون مقطوعة) موزعة على هؤلاء السلاطين الثلاثة .

ولم يفارق الصفي الأسلوب القديم في المدح ، فهو يبدأ أكثر هذه القصائد بالغزل والنسيب أو يبدأها بذكر الخمر أو بوصف الطبيعة . وكل هذه القصائد تشهد للصفي ببراعة الاستهلال ، وروعة الفاتحة وأشراق الديباجة .

وهو بعد أن ينتهي من المقدمة يمهد للمدح فينتقل أحسن انتقال لا يشعر
السامع بأي اضطراب فيه ، ولا يحس بأي نبوة أو جفاء كقوله في مدح الصالح :
كيف الضلال وصبح وجهك مشرق وشذاك في الاكوان مسك يعبق
.....
حتى بدا فلق الصباح فراعته أن الصباح هو المدو الأزرق
ولقد رضيت من الصباح وإن غدا للعاشقين غراب بين ينمق
وغفرت ذنب الدهر حين بدت به من طلعة السلطان شمس تشرق
وهو بمدح هؤلاء السلاطين بالكرم فيأتي بصور جميلة ومعاني رائعة . يقول
في الملك الصالح :

ملكية فلكية يسمو بها كرم ترنح كنهه في ذاتها
سبقت مواهبه السؤال فإله عدة مؤجلة إلى ميقاتها
ولا يغيب عن باله أن يصف هؤلاء السلاطين الأبطال الأقبواه الذين حموا
الاسلام ودافعوا عنه بقوة وشجاعة ، فهذا الملك المنصور يقول فيه :
كم قد أبدت من الأعداء من فئة تحت المعجاج وكم فرقت من فرق
رويت يوم لقاهم كل ذي ظمأ في الحرب حتى جلال الخيل بالعرق
ويوم وقعة عبّاد الصليب وقد أركبتهم طبقاً في البيد عن طبق
مزقت بالموصل الحدايه شملهم في مأزق بوميض البيض ممزق
وليست هذه الصفات فقط هي التي يصف بها صفي الدين ممدوحيه فهو يصفهم
بالتقى والورع والتدين ومخافة الله ، ويقول إنهم هم الذين حموا الدين وردوا
أعداء المسلمين كقوله للملك الناصر :
يا ملكاً فاق الملوك ورعاً إن شام أهل الملك طيش ورعن
ويقول له أيضاً :

قد عزّ دين محمد بسميه وسما بنصرته على الأديان
ويقول للملك المنصور :

فاستبشرت فئمة الاسلام إذلمت لهم بوارق ذاك العارض الغدق
وأصبح العدل مرفوعاً على نشز لما ولبت وبات الجور في نفق
وقد يغالي في مديحه ، ويبالغ فيما يسبغ من صفات طلى ممدوحيه فيخرج
عن حده مقلداً بذلك المتفبي ومدرسته . يقول :

لُدُّ برُبوع الملك المنصور محيي الأنام قبل نفخ الصور
باني العلى قبل بنا القصور قاتل كل أسد هصور
ملكه الله زمام النصر

ويختم الصفي قصائده هذه في الغالب مفتخراً بشعره معتزاً به ، فيشبهه القصائد
بالحسان الأَبكار . يقول :

فاستجل بكر قريض لا صداق لها سوى القبول وود غير مكفور
على (أبي الطيب السكوفي) مفخرها إذلم أصغ مسكها في مثل (كافور)
رقت لتعرب عن رقي لمجدكم حباً وطالت لتمحو ذنب تقصيري

ويقول واصفاً شعره بالوشاح المطرز والسحر الحلال :

فقد جملت الأرض من مدحك خصرأ وشعري جائل كالوشاح
خفضت بالنفس استعاراته كما أعير الذل خفض الجناح
إذا تلاه الوفد قال الورى : هذا هو السحر الحلال المباح
وقد يختم قصائده بالتهنئة . قال في آخر قصيدة مدح بها الملك الصالح :
ليهنك ملك لا يزال مخيماً لديك وذكر في الأنام شريد
لئن بت محمود الحصال فلا أذى كذا من غدا في الناس وهو فريد
إذا تم نور البرق في أفق سعده فما ضره أن السماء حسود
وقال له أيضاً في قصيدة أخرى :

تمن بيميد النحر وانحر به العدا فجودك عيد للورى ليس يرح
وضح بها لا زلت تنحر مثلهم ومن دون معنك العقاقير تذبج
فهو يهنئه بيميد النحر ويهنئه بسعادته في الحياة .

٣ - الرثاء :

للصفي الكثير من المرثي الرائعة ، وهي (خمس وعشرون قصيدة) و (خمس مقطوعات) ، في رثاء السلاطين وأولادهم ، وفي رثاء أهله وأقاربه ، وفي رثاء أصدقائه وإخوانه . وبعضها في تعزية أهل الفقيد ... والغريب أنه ليس للصفي من مرثي الحسين بن علي حتى ولا قصيدة واحدة ، بالرغم من تغافل العقيدة الشيعية في نفسه ، وهذا الرثاء خير ما يمتاز به الشيعة ويتميزون به .

قال الصفي شعر الرثاء منذ صباه ، فله مرثية جيدة منذ كان في الثالثة عشر من عمره يرثي بها قاضي الحلة (تاج الدين محمد بن وشاح الحلبي) مطلعها :
لو أفادتنا العزائم حالا لم نجد حسن العزاء محالا
ولم يخرج الصفي في مرثيه عن طريقة القدماء في شعر الرثاء ، فبدأ قصيدته أما بالحكمة وأما بالتفجع على الميت وتصوير الحزن عليه ، قال يرثي خاله (صفي الدين بن محاسن) وقد بدأ بالتفجع والحزن :

سفهياً إذا شقت عليك جيوب إن لم تشق مراثر وقلوب
وتملقا سكب الدموع على الثرى إن لم يمازجها الدم المسكوب
ورثي أحد أبناء الملك المنصور فابتدأ رثاءه بالحزن والبكاء أيضاً قائلاً :

بكى عليك الحسام والقلم وانفجع العلم فيك والعلم
وأضحت الأرض فالعباد بها لاطمة والبلاد تلتطم
ومن استهلالاته بالحكم قوله في رثاء القاضي (شهاب الدين محمود) كاتب السر بدمشق :

حبل المتى بجبال اليأس معقود والأمن من حادث الأيام مفقود
ورثاؤه السيد (النقيب مجد الدين أبا الفوارس) :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد وأيدي المنايا لا يطاق لها رد

وليس من عادة شعراء العرب أن يبدأوا قصائد الرثاء بالنسيب أو ذكر الحجر

أو ما شابه ذلك كما في المدح وغيره . . وقد شذ عن هذه القاعدة (دريد بن الصمة) إذ بدأ إحدى صرائيه بالنسيب ، ومطلعها :
أرثّ جديد الجبل من (أم معبد) بعافية وأخلفت كل موعد ؟
وهناك أبيات تروى أحياناً في قصيدة (أعشى باهلة) في رثاء (الدعجاء) :
هاج الفؤاد على عرفانه الذكر وذكر خود على الأيام ما يذر
قد كنت أذكرها والدار جامعة والدهر فيه هلاك الناس والغير

ولكنها مشكوك في أمرها ، فاشتهر عند العرب في هذا سوى قصيدة (دريد) . وإن كان (السكيت) في كثير من الأحيان يلمح بالنسيب إذ يقول : تركت كذا وشغلت عن كذا فيتغزل ويصف أحوال الفساء قبل الرثاء^(١) ولكنه غير صريح . ولكن الصفي أتى بمرثيتين خالف فيها أساليب العرب في الرثاء ، فقد بدأ الأولى بالخر ووصف مجلسها وهي القصيدة التي رثى بها (الملك المنصور) ، ولعله معذور في ذلك ، فحين علم بوفاة وكان في بغداد ، أسرع إلى ماردين ومعه قصيدة عصاه في رثاء الملك الذي بدّل خوفه أمناً وجوعه شعباً . غير أنه ما كاد يصل ماردين حتى وجد مجلس العزاء قد انقض ، وأولاد الفقيد قد نصبوا مجلس الخمر واللهو والأنس والطرب ، فاضطر إلى مجاراتهم وحضور هذا المجلس ، فوصفه في شعره وذكر الخمر فأرضاهم ، وأرضى نفسه في التعمير مما يحس به من حزن نحو الراحل العظيم برثائه أيضاً . ومطلع هذه القصيدة :

أدرها بأمن لا يغيرك الوهم وزف على الجلاس ما خلف الكرم
وأما الثانية فهي القصيدة التي رثى بها (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) صاحب حماة إذ سمط - خمّس - نونية (ابن زيدون) المشهورة فقال :
كان الزمان بليقياكم بمنينا وحادث الدهر بالتفريق يثنيينا

(١) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٢٠ .

ف عندما صدقت فيكم أمانينا (أضحى التناهي بديلاً من تدايننا)
(وناب عن طيب لقيانا نجافينا)

وجل مرآتي صني الدين - إن لم تكن كلها - جيدة يعبر بها عن شعور فياض
وطائفة صادقة وإحساس متدفق ، لأنه لم يرث غريباً ، لا يمكن أن يحس
نحوه بشعور ما ، ولا يشعر لفراقه بحزن . فالذين رثاهم أقاربه وأهله
والسلاطين الذين يرثهم مثل أهله ، وأصدقاؤه المقربون . لهذا نلمس في مرآتيه
إحساسه باللوعة والأسى لفراقهم ، وتصويره الحزن مخيماً على الجميع ، وهو
يكيهم بكاهٍ مرأ . فلنستمع إليه يبكي خاله :

لا جمدت أدمعي ولا نخذت نار أسمى في حشاي تضطرم
و حين رثي ولده وأخاه قال :

بكيت دماً لو كان سكب الدما يعني وضاعفت حزني لو شقي كدأ حزني
وأعرضت عن طيب الهناه لأنني نعمت الرضا حتى على ضاحك المزني
وما هو يعبر عن حزنه لفقد صديقه (الأمير محمد بن الحاج صالح) بمباردين :
كلما شام برق مغناك قلبي أرسلت سحب أدمعي أمطارا
وإذا ما ذكرت ساطات أنسي بك أذكي التذكار في القلب نارا
فكأن التذكار حج بقلبي فهو بالحزن فيه يرمي الجمارا
فسأبكيك ما حيث بدمع لا تقال الجفون منه عثارا
وتمتاز مرآتي الصني بقلة إهتمامه بالصناعة ، على كثرتها في بقية أغراض
شعره ، فلا نكاد نجد آثاراً لهذه الصناعة المختلفة التي تغنن فيها الصني في شعره
كله ، رأى أن الصناعة أبعد ما تكون عن الرثاء ولا يمكن أن تتفق مع
الحزن ، ف شعر الرثاء يجب أن يكون طبيعياً لا تكلف فيه ، طارياً من الرثية
والتجميل .

وهو غالباً ما يمدح الفقيده ويصفه بأحسن الصفات ، كالكرم والشجاعة .

فحين رثي السلطان الملك الناصر قال :

وما كان يدري من يتم جوده ونكب لبحر أنهما البحر
مفاح أرزاق العباد بكفه فيمني بها يمن ويسري بها يسر
ويتحمس في مرثيه ، فحين يبكي السيد (غيث الدين عبدالكريم) يقول :
كأن لم يقدها كالأجادل سرباً ويرفع قب الليل من نفع قبه
ولم يقرع الأسماع وقع خطابه ولم يطرق الهيجاء موقع خطبه
ولا كان يوم الدست صاحب صدره وللجيش يوم الحرب مركز قطبه
ولا كان ما بين الصوارم والقنا وفوق متون الخيل إدراك نجبه
وينتقل من رثاء الميت إلى تعزية أهله :

فلذ بالصبر في اللأني وأحسن عزاءك واغتم حسن الثواب
فأنك من أناس ليس يخني على آرائهم وجه الصواب
ويسلي أهل الفقيده بوجود خلف له ينوب عنه ويملا فراغه قال في الملك الناصر:
وإن لنا من بعده من سليله مليكاً به عن فقده يحسن الصبر
فإن غاب ذلك البدر عن أفق ملكه فقد أشرقت من نجله أنجم زهر
أو يقول إن الموت لا مقر منه لأن القدر لا راد له :
لا تعجبن فما في الموت من عجب إذذاك حدث به الانسان محدود
فالمستفاد من الأيام مرتجع والمستعاد من الأعمال مردود
وللعنية أظفار إذا نشبت رأيت كل عميد وهو معمود
وقد يختم الصفي مرثيه بالنعيب على الفقيده والتفجع له والترحم عليه
والدعاء له :

سقى الله تراباً ضم جسمك وابلاً ينمق روضاً برده فيفوف
إذا أنكرت أيدي البلا عرصاته ينم على أرجائه فيمرف
فهو يدعو لخاله (صفي الدين بن محاسن) أن يسقي ثرى قبره المطر الغزير .
ويقول داعياً للملوكه :

فسقى عهدك المهاد فقد فت بزلفي الجنان فوزاً عظيماً

وعليك السلام حياً وميتاً ورضيعاً وياقماً وفتياً
ويبكي قاضي القضاة بماردين قائلاً :
سأبكيك بالأشعار حتى إذا هت سلوك عقود النظم أنجدي النثر
أو يقول :

فصأبكيك ما حييت بدمع لا تقال الجفون منه عشارا
ليس جهدي من بعد فقدك إلا أرسل الدمع فيك والأشعارا
إلا أنه قد يفخر بشعر في نهاية القصيدة ، استمع اليه يقول في مرثيته للقاضي
شهاب الدين محمود كاتب السر بدمشق المتوفى سنة ٧٢٥ :
فسوف ترثيك مني كل قافية بها لذكرك بين الناس تخليد
وأسمع الناس أوصافاً عرفت بها حتى كأنك في الأحياء معدود
وقد يضمن قصائد الرثاء هذه بعض تجاربه في الحياة على شكل حكمة ما أعدها
تسري على لسانه ..! استمع اليه يقول :
من خالط الناس كان الحزن غايته من أكثر النوم لا يستعذب الحلما

٤ - الإخوانيات :

فن الإخوانيات قديم في الشعر والنثر ، وهناك من يسميه مناجاة الأصدقاء ،
وقد ازدهر هذا الفن في القرن الرابع للهجرة ، خاصة في النثر ، واهتم به
الأدباء والكتاب ، فمقد له الشمالي فصولاً خاصة في (يتيمة الدهر) وفي
(سحر البلاغة) ، واختار نماذج مختلفة من أحسن ما قال الأدباء والشعراء
فيه . ويعتبر (أبو حيان التوحيدي) أفضل كتاب الإخوانيات ، فقد أبدع
في كتابه (الصداقة والصدق) أيما ابداع . وللهمداني كثير في هذا الفن ،
وقد يوصله بالعتاب . و (لأبي نصر العتبي) رسائل إخوانية عديدة جيدة

وكذا (الميكالي) و (ابن العميد) ، فلا بن العميد قصائد جميلة في هذا الفن
كتب إلى (أبي الحسن العباسي) يقول :

أشكو إليك زماناً ظل يعركني عرك الأديم ومن بمدي على الزمن
وصاحباً كنت مغبوطاً بصحبته دهرأ فغادرني فرداً بلا سكن
(١)

وقد كان الكثير من هؤلاء الكتاب يضمنون رسائلهم الاخوانية شعر الشعراء .
وتزايد تضمينهم للشعر حتى اكتفوا أخيراً به وحده ، فصاروا ينظمون
القصائد الاخوانية ، كابن العميد وغيره .

وعند صفي الدين كثير من هذه القصائد الاخوانية تبلغ (ثمانى عشرة)
قصيدة ، وأما المقطوعات فكثيرة جداً . هناك قصائد أرسلها وهو في الحلة
إلى أصدقائه في مختلف البلاد ، وهناك قصائد أرسلها من (ماردين) إلى
أهله وأقاربه وأصدقائه في الحلة وبغداد والقاهرة والشام ، وقد نظم القصائد
الاخوانية في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها وأرسلها إلى الملوك والأمراء
والقضاة والعلماء والأدباء ، وكانت هذه القصائد في شتى المواضيع ، في
الرد على قصائد وردته منهم ، وفي تقرير السكتب التي يهدونها إليه ، وفي
التهنئة بالحج والزواج ، وفي الشكر على الهدايا والهبات وفي التشوق والحنين ،
وفي الاعتذار والعتاب إلى غير ذلك .

والصفي يتألق في هذا الشعر أيما تألق ، فشعره هذا عذب وأسلوبه
متدفق ، فهو صادق تمام الصدق لأنه يكتبه إلى أصدقاء مخلصين ، يجمعه
بهم الحب الصادق والود الأكيد ، وليس هناك أي داعٍ للتصنع أو التكلف ،
وليس هناك أي دافع للرياء والتظاهر بما لا يحسه نحوم . فكل ما يقوله لم
- أو أكثره - حقيقي . لذا وجدناه صريحاً فيما يقول ، وقد تصل به الصراحة

(١) بنية الدهر للتمالي ج ٣ ص ١٧

إلى مداعبة لا يمكن أن يقولها إلا إلى أخلص صديق ممن رفعت عنه الكلفة ،
كما قال لصديقه سيف الدين أبي بكر السلامي الحلبي :

لا أجازيك بالاهانة والسب ولاكن جزاك يا نجس عندي

ففي هذا البيت وفي غيره يستعمل أقصى العبارات في سب أصدقائه مما يبين لنا
الصلة القوية التي تربط بينه وبينهم ، والصراحة التامة التي تتجلى في هذا الشعر .
ونرى الصفي يحن كثيراً إلى وطنه في هذه الرسائل الشعرية التي كتبها إلى
أصدقائه وأقاربه وهو بعيد عن العراق ، فهاهو يقول للشيخ (مذهب الدين
الحلبي) وأرسلها إليه من ماردين :

أحباي بالفيحاء إن طال بعدكم فأنتم إلى قلبي كسحري من نحري
وإن يخلُ من تكرار ذكري حديثكم فلم يخلُ يوماً من مديحك شعري
فيا أيها الشيخ الذي عقد حبه تنزل مني منزل الروح من صدري
تجاذبي الأشواق نحو دياركم وأحذر من كيد العدو الذي يدري
أو يقول :

يا قاطع البيد يطوبها على نجب لم تبق فيها الفياضي غير أشخاص
إذا وردت بها شاطي الفرات وقد فكبت من ماء (حوران) و(قباص)
وجزت بالحلة الفيحاء ملتصماً آرام سرب حماتها أسد عياص
فقف بسعدتها المشكور منشئه (سعد بن مزيد) لا (سعد بن وقاص)
واقر السلام على من حل ساحته وصف ثنائي وأشواق وإخلاصي
واخبر بأني وإن أصبحت مبتسماً مجداً ، وأغلي قدرتي بعد إرخاص
صاب إلى نحوكم صب بحبكم محافظ الود اللدائي وللقاصي

وحين يذكر وطنه - الحلة - لا يغيب عن باله أن يذكر لنا أنها كانت في يوم
من الأيام وطن الحضارة العربية الضاربة في القدم ، فلا يدعوها إلا باسم
(بابل) المحجب الجميل . يقول :

سقى روضة السعدي من (أرض بابل) سحب ضحوك البرق منتحب القطر
ويقول :

وترى السحب قد نشأنَ ثقلاً
والصفي بين حاله وبعض مظاهر حياته في هذه القصائد ، على نحو ما ترى
في قوله :

ولكن لي في (ماردين) معاشرأ
ملوك إذا ألقى الزمان حباله
وما أحدثت أيدي الزمان إساءة
شددتُ بهم لما حللت بها أزري
جعلتهم في كل فائبة ذخري
ووافيتهم إلا انتقمت من الدهر
أو قوله :

وإذا ما غرقت في لجج الهم
بلدة ما أتيتها قسط إلا
بذلوا لي مع الساحة ودأ
والصفي بخلص أي اخلاص لهؤلاء الأصدقاء الذين يرسل اليهم هذا القصيد
ويحافظ على العهد ، بين ذلك قوله :

زاد قدري بحبه إذ رأى النسا
إن تغب عن سوى عيوني فقلبي
ما تعرضت فيه للاشراك
ولهذا نراه دائماً يطلب الاجابة عن قصائده والرد عليها ، استمع اليه يقول
(لابن نباتة المصري) في قصيدته التي أرسلها اليه من دمشق :

لك من وافر العلوم نصاب
وكثيراً ما نراه يظهر الخضوع لهؤلاء الأصدقاء فيخطبهم بألفاظ غاية في
المجاملة والخضوع كسيدي ومولاي وغيرها ... ويقول انه عبد لهم ، من
مثل قوله :

سيدي صاحبي أنيسي جليسي طوق جيدي معاشرى تاج راسي
وقوله :

سيدي بل سمعت عنك كلاماً هو في مهجتي شبيه الكلوم
وقوله :

كل يوم أقول : قد قال مولاي وما قلت ساعة : قال عبدي
وقوله :

وردت عبدك المقصر أبيات فأغنته عن كؤوس السلاف
ونجد عند الصفي ، في قصائده هذه ، الكثير من الفخر بشعره ، استمع
اليه يقول :

أسوق الى البحر الخضم جواهري وأهدي الى أبناء بابل من سحري
أو يقول :

ولقد هزت اليك دوح قريحتي مدحاً فأينع دوحها المهزوز
صفت القريض ولم أقله تكلفاً لكنه طبع لدي عزيز
أجلو عليك من القريض عرائساً من خدر أبكاري لمن بروز
أبكار أفكار تزف كواعباً لا كالقريض تزف وهي عجوز
ويصف الطبيعة في هذه القصائد ، متأثراً بما يحيط به من مناظر جميلة ، أو
متذكراً مناظر وطنه الخلافة فيصفها وصفاً رائعاً :

كأن به (الجودان) بالسحب شامت فما انتحبت إلا انثى باسم الثغر
تعاقت الأغصان فيه فأسبلت على الروض أستاراً من الورق الخضر
إذا ما حبال الشمس منها تخلصت الى روضة ألفت شباكاً من التبر
وهكذا نجد الصفي قد أبدع في هذه القصائد الاخوانية لأن إخوانه كثيرون
تربطه بهم وشأنج متينة ، وصلات أخوية صادقة ، فكانت هذه القصائد
صادقة العاطفة جميلة المعنى جيدة السبك متدفقة الأسلوب .

٥ - الغزل :

في ديوان الصفي غزل بالمرأة وغزل بالفلمان ، على عادة عصره ، وغزله الأول يندمج فيه (تسع وعشرون قصيدة) و (اثنتان وتسعون مقطوعة) فيما عدا فوائح القصائد . وهذا ، لا ريب ، شعر غزير ، وهو شعر رقيق عذب يمتاز بملاوة الألفاظ وعذوبة الجرس وسهولة المعاني ووضوحها . فهل هذا الغزل غزل صناعي أو هو غزل عاطفي يعبر عن حب حقيقي صحيح ، أي : هل أحب الصفي حقاً فكان يتغزل معبراً عما في نفسه من الوجد والجوى ، أو أنه كان يقول الغزل تقليداً لغيره من الشعراء لكي لا يخلو ديوانه من هذا الفن الشعري الجميل ؟

في الحقيقة إنه ليس لدينا من المعلومات والأخبار ما يبين ذلك بله ما يؤكد . ولكن ... بما لا ريب فيه أن الصفي قد أحس يوماً ما بماطفة الحب ، والشاعر العربي يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فأنت وعير في الفلاة سواء
والصفي شاعر فنان رقيق العاطفة مرهف الحس ، يتأثر بالجمال ويمشق الحسن ، ذو قلب كبير . والله ما خلق للإنسان قلباً وفي الطبيعة جمالاً إلا ليحب الإنسان الجمال ، والله جميل ويحب الجمال . ولو استعرضنا آراء الصفي في الحب لرأيناه يقدره ويقدمه :

يا رب أعطِ العاشقين بصيرهم في الخلد غايات النعيم المطلق
وأذقهم برد السرور فطالما صبروا على حر الغرام المقلق
حتى يرى الجبناء عن حمل الهوى غايات عزم التي لم تلحق
فيكون أصغر جاهل حمل الهوى يلهو بأكبر عالم لم يعشق
فالصفي في هذه الأبيات يريدنا أن العاشق - عنده - أفضل ممن لم يعشق وأن أكبر عالم لم يدخل الحب قلبه لا يستحق أن يقارن بأصغر جاهل عرف الهوى

طريقه إلى قلبه . . . وهو يصرح بأنه أحب فعلاً وأنه ليس كغيره من المحبين ، يقول :

يظنون أن الحسن بالعين مدرك و سرُّ الهوى بادٍ لكل لموح
وليس طموح الناظرين بمبصر إذا كان لحظ القلب غير طموح
فليس (جميل) في الهوى و (كثير) ولا (عروة المذري) و (ابن ذريح)
بأعرف مني في الملاح توسماً ولا جنحوا في العشق بعض جنوح
والصفي يقول إنه يشرع في العشق وما شيد أحد في الحب مثل ما شيد هو :
بذلتُ روعي إلا أنها تمن للوصل منكم ولكن حسب مجهودي
أنا المحب الذي أهل الهوى نقلوا غني فأعطيتمهم بالعشق تقليدي
من أين للعشق مثلي في شرعه ومن يشيد دين الحب تشييدي
فهذه عاطفة محب حقاً ، فكل عاشق يخيل إليه أنه ما عشق أحد مثله من قبل
ومن بعد ، وأنه هو رب العشق والهوى ، وأنه سلطان الحب والغرام .
فالصفي إذاً قد أحب وعرف قلبه العشق وذاق حلاوته ومرارته .

ولكن . . . أي نوع من أنواع الحب كان في قلب الصفي ؟

لا ريب أنه لم يكن من الحب اللاجن ، فهو رجل فاضل وليس في شعره
الغزلي ما يدل على هذا المجون . ولكن . . . أكان حبه من نوع حب (ابن
أبي ربيعة) وأضرابه ممن كانوا يحبون الجمال أينما وجد ويمشقون كل حسناء ،
دون أن يكتفوا بواحدة يخلصون لها الهوى ؟ أو إنه كان من نوع حب
(جميل بثينة) الذي يحب واحدة فحسب لا يميل إلى سواها ، يحبها حباً
صادقاً عفيفاً لا تشوبه شائبة ، ولا يعمر قلبه إلا بالوفاء والاخلاص لها ،
يذكرها كل حين ويرى أن كل جمال في الدنيا يفسح من جمالها .

هذا ما لا نعرفه ولا نستطيع أن نستبينه من شعر الصفي ، فقد تعمد
الصفي أن يموت عايناً ذلك . فهو تارة يذكر أنه يحب الحسن أينما وجد فيقول :
طابوا ابتهاجي بالغرام وإنتي ما عشت من سكر المحبة مائد

قالوا : أنعمش كل رب ملاحه وأجبتهم : إن المحرك واحد
فالحسن حيث وجدته في حيز هولي بأرسان الصباية قائد
وتارة يقول إنه يجب واحدة فحسب ، وإنها في الحلة : وفي حي الجامعين
بالذات :

نعم الهوى لما تذكر إلفه بالجامعين وجب له لم يجذ
ذابت لكم يا أهل بابل مهجتي فتنصبت بالعيش بعد تلذذ
وتارة يحدثننا أنها حبيبان ، في ماردين وفي الجامعين . يقول :
لئن سكنت إلى (الزوراه) نفسي طاب القلب بين محررين
هوى يقتادني (بديار بكر) وآخر نحو أرس (الجامعين)
ومن حق الصفي أن يفعل ذلك حتى لو كانت حبيبته واحدة ؟ فربما كانت من
بنات الأمر الكريمة في الحلة ، فكان يخاف على سمعتها ويحاذر أن يחדش
شرفها حين يصرح باسمها فيعرف الناس من هي ، وقد أحبها منذ الصبا ، فهو
يقول متذكراً عهد الصبا :

مغاني الحمى جادت سحائب أدعني عليك إذا جفت عيون الغمام
ملاعب طهوركم قضيتُ بربعها لبانات أيام الصبا المتقادم
من الجانب الغربي من أرض بابل مماهد أنس مشرقات المباسم
فيتذكر أيام الصبا حيث كانوا يلعبون معاً ، صبية من بنين وبنات ، فكافت
أياماً سعيدة هانئة ، وحين كبروا تحتم عليه ألا يبوح باسمها لئلا يؤذيها فصار
يموه الاسم فيقول :

ولقد أموه بالمغاني والمها خوف العدا وأضن عن ذكراك
إذ لم يكن لك في التفرز بالمها لقب ولا أسماء من أسماك
لكنه يقول أيضاً ما يؤكد أنها واحدة :

وحق من لا سوامم عندي القسم ومن بغير هوامم ليس لي قسم
ومن أموه بالذكرى بغيرهم معرضاً بسوامم والمراد هم

وذلك لأنه مخلص أمين يحفظ المهدي ويصون النود :

وإني مع صدودك والتجني وفيّ ليس لي منك انتقال
وأوتر أن ينال دمي ووفري ومحبوبي عزيز لا ينال
لأنني لا أخون عهد خلّ ولو حفت بي النوب الثقال

ومع كل هذا فقد يكون الصفي أحب غيرها - فيما بعد - فالغواني في مجالس
اللهو التي كان يرتادها كثيرات . وقد يكون بعض غزله غزلاً صناعياً ليس فيه
عاطفة صادقة وإنما يقوله لتقليد غيره من الشعراء .

وهو على كل حال ، لم يبعد عن أساليب الغزلين المتقدمين فكان غزله
قصائد ومقطوعات يصف بها عاطفته ووجهه ، وشموه وإحساسه ، ويصور
الحبيب وبعض لياليه في أيام الصبا يوم ضحك له الزمان ، ويعبر عن لوعة
الفراق وألم البعد ونار الجوى ، ويتحدث عما يتمنى وتتمنى معه نفسه من لقاء
الحبيب ، وكان يصف ذلك في اليقظة والحلم . والغزل عنده بميل إلى الأوصاف
المادية ، فهو يمجس جمال المحبوب ، فيصف القامة والخصر والردف والصدر ،
ويصف الشعر والحد والوجه والعينين ، فقوامه كالرخ أو كالغصن :

..... مليح بغير الغصن عند اهترازه

ووجهه مشرق كالبدري يضيء بنور لآلاء :

حتى إذا تم معنى حسنه وبدا كالبدري في النم أو كالشمس في الشرف
وخصره الدقيق ينوء بردفه الثقيل :

بخصر مثل عاشقها نحيل وفي خده نار تلظى كأنها نار الكايم :

ظلي من الأتراك فوق خدوده نار يخرّ لها الكايم ويصمق
وتغره كأس مليء بالؤلؤ والدر :

بكأس حكاهما أغره في ابتسامه بما ضمه من ورده وعميقه
وعينه ترشق قاب المحب بالنبل :

ها قد جرحت بنبل عينيك الحشا فدعي فؤادي فالجروح قصاص
وشعره أسود كأنه الليل المدلهم :

سفهـن رأي المانوية عندما أسبلن من ظلم الشعور غياها
وليس ذلك فقط ما يمشقه الصفي ويعجب به وإنما وجدناه يعجد الحب الروحي
ويعجب بالكثير من المعنويات كالصوت والحديث الذي يسكر به . فهو يقول :
يحاول طرفي لحظة من خياله ويشتاق سمعي لفظه وكلامه
ويقول :

لقد نلت إذ نادمته من حديثه من السكر ما لا نلته من عقيقه
فلم أدري من أي الثلاثة سكرني أمن لحظة أم لفظه أم رحيقه ؟
وهو يقنع بالنظرة ويكتفي بطيف الحبيب حين يزوره فيأنس به :
جزى الله عني الطيف خيراً فإنه يعيد لي الذات حين يعود
وكثيراً ما يزواج بين ألفاظ الحماسة وألفاظ الغزل ، يقول :

البيض دون لحاظ الأعين السود والسمر دون قدود الخرد الغيد
والموت أحلى لصب في مفاصله تجري الصبابة جري الماء في العود
فهنا صورة عناصرها من مقومات الصور الغزلية والصور الحماسية ، فنشاهد
الأعين السود بجانب السيوف البيض ، والرماح السمر إلى جانب القدود .



وإذا تركنا غزله بالمرأة إلى غزله بالغلغان وجدناه كثيراً أيضاً إذ يبلغ
(ثمانين وخمسين مقطوعة) و (قصيدتين) . وقد كان هذا الغزل شائعاً في
عصره . فنذ بداه أبو نواس وهو يزداد انتشاراً واتساعاً حتى بلغ حدّاً
كبيراً في عصر الصفي . وأصبح من مستلزمات الشعر خصوصاً أن مفاصد
المجتمع قد كثرت وكان من بين هذه المفاصد اقتناء الغلمان . وقد اقتنى الصفي
الكثير من الغلمان ، ويظهر لنا من شعره أن هؤلاء الغلمان كانوا يربون
أحسن تربية ويعتني بتثقيفهم وتعليمهم ، فيكون منهم فرسان وكتاب

وشعراء . وقد اهتم الصفي بتربية غلمانه فكانوا مثل أولاده لا يموت أحدهم إلا ويرثيه رثاءً حاراً ويحزن لفقده أشد الحزن . يقول :

لا عبد يغني عنه ولا ولد ما كل عبد عليه يعتمد
وكان يحب هؤلاء الغلمان حباً جماً ويصحبهم معه في كثير من رحلاته فقد أخبرنا في ديوانه أنه اتفق مع غلام أن يسافر معه إلى (ماردين) حين رحل عن العراق ولكن الغلام اعتذر عن ذلك فكتب إليه الصفي قصيدة يذكره بذلك ويتغزل به مطلعها :

أذاب التبر في كأس اللجين رشا بالراح مخضوب اليدين
وطاب على الصحاب بكأس راح فطافت مقلته بأخرين
رخيم من بني الأعراب طفل يجاذب خصره جبلي حنين
.....

ولم صيرت بعدك قيد قلبي وكان جمال وجهك قد عيني ؟
فصرنا نشبه (النسرين) بمدأ وكنا ألفة كالفرقدين
علمت بأن وعدك صار ميناً لئجري مقلتيك بصارمين
وقلت وقد رأيتك : خاب سعي لكون البدر بين العقربين
فلم وليتني بحبال زور ولم أطمعتني بسراب مين
وهلاً قلت لي قولاً صريحاً فكان المنع إحدى راحتين
والصفي لم يكتف بهذه النظرة نحو الغلمان ، فكان يصرح لنا - أحياناً - بحب غير هذا الحب فهو يريد أن يترك حب المرأة ويكتفي بحب الغلمان إذ يقول :

خلياني من فترة النسوان وانعشاني بنشطة الغلمان
.....

ويقول أيضاً :

في حبّ ذي القرطين يا لأمي لي شاغل عن حبّ ذات الوشاح

وكان هناك من يقع في هوى أحد الغلمان فيسبح في ظلم من الغرام المضي
والعشق الخفيف فهذا عالم فاضل وشيخ جليل هو (مدرك بن علي الشيباني
المغربي) ، أحب فتى نصرانياً حباً أودى بحياته . وقد نظم قصيدة سريلة ،
فيها سائر عبادات النصارى ومواقيتهم وقرابينهم وقد سمع الصفي هذه
القصيدة بعد أن قال في سبب تسميته إياها : « ولما كنت قد وقعت في قريب
مما وقع فيه الشيخ مدرك ... »^(١) فهو يصرح لنا بأنه أحب غلاماً كما أحب
الشيخ مدرك .

وقطع شعر الصفي في هذا الغزل معظمها في غلمان مخصوصة بالأسماء
والصفات ، فهناك ابراهيم ويوسف وأحمد ومحمد وموسى وسليمان وغيره ،
فليس من المعقول أن قلبه اهتز لهذا الحشد الكبير من الغلمان وغيرهم . وأرى
أن هذا الشعر ، أو أكثره ، نظمه إجابة لطلب بعض إخوانه ، كما فعل ذلك
في الهجاء ، ونظم بمضه الآخر تقليداً لغيره من الشعراء لكي لا يخلو ديوانه
من هذا الفن . ونظم البعض الآخر في المجالس للتندر والفكاهة . وربما
كانت هناك مقطوعات تعبر عن شعور صادق نحو الغلمان الذين رباهم واعتنى
بتثقيفهم وعاشوا في كنفه وبالقرب منه .

وهذا الغزل لا عاطفة فيه ، وليس فيه شيء من الجدة في المعاني . وكان
الصفي يستغل أسماء الغلمان فيقارن كل غلام بسميه من الأنبياء وغيرهم . فإذا
نزل بمن اسمه ابراهيم جاء بقصة النبي ابراهيم (عليه السلام) ونجاته من النار .
فقال :

يا سليمان من داء قلبي السقيم ومقيماً على الوداد القديم
ويقول الوصال يا نار برداً وسلاماً كوني لابراهيم
يا سمي الذي فدى الله اكرا ما له نجلة بذيح عظيم
وإذا نزل بغلام اسمه (علي) أتى بذكر الامام علي بن أبي طالب :

كيف حلت يا علي دمي فيك وإني من شيعة الأنصار
وتلا مرحباً فؤادي للقياسك فنابت عينك عن ذي الفقار
وهكذا نجد عند الصفي من هذا الغزل ما يلد الأسماع ولا يزعج القلوب لأنه
يخلو مما في غزل النواصي وغيره من خلاعة ومجون .

٦ - الخمريات :

للصفي كثير من شعر الخمريات ، ولم يكن هذا الشعر كله تقليداً فقط بل
كان معظمه عن شعور وإحساس . فهو يشرب الخمر ويحضر مجالسها ، ويقول
الشعر حين يحس بنشوتها . أجل ، لقد شرب الخمر لانتشارها في مجتمعه ،
ولأنه كان جليس ملوك يجب عليه أن يسايرهم فيما يعملون . فوصف مجالسها
كثيراً ، وصفها وصفاً جميلاً دقيقاً ، تناول فيه الخمر وأنواعها وشربها ومنجها
بالماء وآنيتها وأباريقها وما تعم به المائدة من فاكهة شهية وطعام لذيذ وزهور
جميلة وشموع مضيئة ، وما يجب أن تضم هذه المجالس من مطربين ومطربات
وندامان وغلمان . استمع إليه يصف أحد مجالسها يقول :

أزل بالخمر أدواء الخمار وعافر صفو عيشك بالمقار
ومجلسنا به ساق صغير يحمينا بأقداح كبار
وشاد قد حوى في الخد منه كما في الكأس من ماء ونار
وحضرتنا من الأزهار ملأى من الورد المكلل بالبهار
وراح في لجين الكأس تحكي بصفرة لونها لون النضار

ويقول داعياً أحد أصحابه إلى مجلس يصفه بقوله :

فاسرع الخطو فعندي شادن وفتاة وخور وأمور
وسقاة وحدادة وغنا وخنوك وطبول وزمور

كلما درنا رأينا بيننا شادناً يشدو وكاساتٍ تدور

وربما تشدد فيما يجب أن يحفل به المجلس فجملة ثمانية أشياء هي :

تصدقُّ فانا ذا النهارَ بجملة إذا زرتنا تمت لدينا المحاسن

أوانٍ وساقٍ غيرُ وانٍ ومطربٌ وراح لها طيب المرور مقارن

فان زرت معنا تـمـكن أنت أولاً وعبدك ثانياً وشادٍ وشادٍ

وخامسها الراوق والسكاس سادس وسابمها الابريق والعود ثامن

فهو لا يشرب الخمر إلا بمجلس طمر يحفل بالمآكل والمشارب والزينات والندمان
والطربين والأصدقاء .

ويحضر هذه المجالس في أما كن متنوعة : فتارة مع الملك ، يسامرهم

ويتحدث اليهم فيلتذون بحديثه ويعجبون بسعة اطلاعه . ويصف مجالسهم ،

كان في أحد مجالس الملك الصالح فوصفه بشعر يدعو فيه إلى الشراب مكوفاً

من سبعة أبيات تنتهي بذكر اليوم وهو يوم السبت . وقد آلى على نفسه أن

يكمل ذلك في جميع أيام الأسبوع :

ألا يا ملك العصر ويا نادرة الوقت

ومن شرف قدر الدس ت والكرمي والتخت

... ..

وبادر - غير مأمور - وكن اللهم ذا مقت

وزف الراح لا زل ت سعيد الجيد والبخت

من السبت إلى السبت إلى السبت إلى السبت

وقال في يوم الأحد :

يا ملك العصر ومن لـجـوده الغيث حسد

... ..

وواصل الشرب وقيل : أنجز حر ما وعد

من الأحد إلى الأحد إلى الأحد إلى الأحد

وتارة يشربها في بيته ويصف مجلسه بالأناقة والسكال فما هو يدعو أحد
أصدقائه إلى هذا المجلس :

فزرنا إن مجلسنا أنيق يكاد يعيد منظره الشبابا
فولدان تريد بذنا مداماً وغلمان تسدير بذنا كتابا
وقهوتنا من المطبوخ حلت إذا دُعي الفقيه لها أجاها
تجلت في الزجاج بغير خدر وصيرت الحباب لها نقابا

وهو يشربها في نخيم يضره خارج المدينة كما فعل ذلك في ظاهر ماردین ،
ويوضح ذلك قوله داعياً أحد أصحابه :

أجلك أن يسخو الزمان وتبخل ويعدل فينا باللقاء فيعدل
فان لم تزرنا والخيـام قريـمة ولا ستر إلا (الأحمى) (المدعبل)
وليلة سعد يصطلى العود رهبها سروراً وفي آنائها البدر يشغل
أدار بها الولدان كأساً روية وشمر منى فارط متهمل

هذا هو الوصف المادي لمجلس الخمر ، وأما الوصف المعنوي فنراه يبين آثارها
وفعلها في نفس شاربها ، فهي مسلية مسرة :

فما هي إلا أصل كل مسرة فكم رَوحت هما وكم فرجت كربا
وهي تفعل بالعقل ما يفعله النعاس بالأجفان :

خندريساً تكاد تفعل بالعقل فعل النعاس بالأجفان
وهي تهز الأعطاف وتكسب الوجه حمرة جميلة :

مدامة أثرت في وجه شاربها أضعاف تأثير نور الشمس والقمر
يسمى بها عمل الأعطاف يسعفها بنشوة من سلاف القنج والخور

والصفي يعرف ما يجب أن يتبع في هذه المجالس من شروط وعادات يقول :

كم عكفنا على المدامة يوماً إذ دعانا إلى المسرة داعي
وخلونا بها باخوان صدق رؤساء الحديث والاستماع
والتزمنا شروطها واتبعنا أدب الافتراق والاجتماع

فاجتمعنا لها على غير وعد وافترقنا منها بغير وداع
فالدامة تدعوم إلى المسرة فيجتمعون إخوان صدق يدور بينهم الحديث
ويستمعون إلى الغناء ويلتزمون الشروط الموضوعه للصمت والكلام والاجتماع
والافتراق .

وأما ما يجب أن يكون عليه الندمان من خلق فيصفه الصفي بقوله :
طلبت نديماً يوجد الراح راحة إذا الراح أودت بالكثير من العقل
يشاركني في سرها وسرورها فيعملو ويحسو أو يكتب أو يملئ
ويشربها بالسكيف والأين والمتى ويعرفها بالجنس والنوع والفعل
ويعازج في وصف الخريات وصف الطبيعة ومناظرها الفتانة في السماء يصف
الظلام الدامس الذي تهتك الشموع حججه :

وليلتنا شبیه الصبح نوراً وقد عقد البخور لها ضبابا
كأن ظلامها بالشمع فود وقد وخط القثير به فشابا
وحين يسهر حتى الفجر يصف لنا انبلاج الفجر ، ويوقظ من نام من أصحابه :
هبوا فقد قد ذبل الليل من دبر ونبه الصبح شدو الورق في السحر
وأقبل الصبح يدعو بالصباح لنا مناجيساً بلسان الناي والوتر
فاستيقظوا من ثياب السكر وابتدروا راحاً تريخ من الأحزان والسكر

وقد أفاد الصفي من خريات أبي نواس ، فلا عجب فأبو نواس أستاذ الشعراء
في هذا الفن ، صحيح إن الكثير ممن سبقه من الشعراء قالوا في الخمر
(كحسان) و (الأعشى) و (المنخل المشكري) و (الأخطل) وغيرهم ،
لكنهم لم يبلغوا ما بلغه النواسي في خرياته من الجودة والسكرتة ، فقد اهتم
بها كثيراً وسيطرت على حواسه وجود فيها فجمع في شعره من أوصافها ما
يخطر على البال ، وما لا يخطر ، من الصور والمعاني والأخيلة . فصار الشعراء
الذين جاءوا بعده يقلدونه جميعاً في فنونه ويستعينون بمآنيه وصوره . ومنهم

صني الدين ، فقد أكد كثيراً من شعر أبي واقتبس من معانيه مثلاً قوله :
بكأس لها أشخاص كسرى وقصر وقد أهدت من حولها الروم والفرس
مأخوذ من بيت أبي نواس :

قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدرىها بالقسي الفوارس^(١)
وهذه الصورة لا شك من صور أبي نواس وقد اقتبسها الصفي قائلاً :
فرأينا في راحة البدر شمساً أطلعت في سما الكؤوس نجومها
وقد أخذ الصفي بيت أبي نواس الذي يقول فيه :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروني عظامي بمد موتي عروقه^(٢)
فوسعه الصفي وطوره فقال :

إذا مت فأنعني بخفق مثالث وصرخة ناي واصطفاق مزامر
ولا تمقرني غير العقار لتنضحني ثرى جدني من سيرها المتجاوز
وإذا تأملنا هذا البيت :

واتركا اليوم في مداي ملاهي أن فرط الملام في ذاك يغري
وجدنا أن معناه مأخوذ من النصف الأول من بيت أبي نواس المشهور :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ودارني بالتي كانت هي الداء^(٣)
وأما قول أبي نواس :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا^(٤)
وكما كان أبو نواس يفتنم الفرصة ولسان حاله يقول :

رأيت الليالي مرصديات لمديني فبادرت لذاتي مبادرة الدهر^(٥)

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٩٥

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٩

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٤

(٥) نفس المرجع ص ٢٨٢

وجدنا هذا شائماً في شعر الصفي فكان مبدأ طاماً له . يقول :
فانتهاز فرصة الزمان فليس المسره من جور صرفه في أمان
أو يقول :

تب إلى اللذات فالعمر قصير وحياة المرء في الدنيا غرور
لا تدع نهب سرور طاجلاً كلما أمكن في الدنيا سرور
وقد كان أبو نواس يصطنع القصص في شعره ، فيسير ليلاً يطرق أبواب
الأديرة والحانات بطلب الخمر :

وخمارة للهو فيها بقيت إليها ثلاثاً نحو خانتها سرنا^(١)

.....

ونجد مثل هذا عند الصفي ، فها هو يشرب الخمر حتى الفجر فتنضب زجاجته
ويضطر إلى الخروج بحثاً عن خمرة جديدة فيسير إلى حانة ويطرق بابها فيخرج
صاحبها ويمطيه الخمر المعتقة :

شمعتها فأضاه الشرق منبلجاً	بها وقام لها الحرباء منتصبا
حتى إذا أحمات منها زجاجتنا	وظل منها غدير الدن قد نصبا
نبت راهب دير كان يؤنسنا	ترجيعة الصوت إن صلي وإن خطبا
بادرته وقرعت الباب واحدة	قرعاً توسم من إخفاته الأدبا
فقام يسحب برديه على مهل	فما استشاط بنا خوفاً ولا رعبا
وجاء يسأل عما ليس ينكره	عما نروم ولكن يثبت الطلبا
فقلت : ضيف ملء غير ذي طمع	بأزاد لئكنه يرضى بما شربا
فأطلق الباب إذنا في الدخول لنا	وقال : هذا علينا بعض ما وجبا
وجاءنا بسلاف نشرها عبق	شمطاء قد عتقت في دنها حقا

.....

وهناك فروق بين خمريات الصفي وخمريات أبي نواس :

فقد كان أبو نواس يتهافت على الخمر ويتهاك على لذتها ، ويحبها حباً يكاد يصل إلى التقديس والعبادة فهو يقول فيها :

أئن على الخمر بالآثما وسمها أحسن أسمائها^(١)
أما صفي الدين فلم يكن كذلك ، فهو يشربها لأنها مسرة مسلية :
فا هي إلا أصل كل مسرة فكم رَوحتَ هماً وكم فرجتَ كرباً
وهو يشربها باعتدال :

إن شئت أن أشرب الكثير من الرا ح نهاني الوطار والأدب
فهو بعكس أبي نواس الذي يشربها بنهم عجيب وشراهة غريبة :

فعميش الفتى في سكرة بعد سكرة فان طال هذا عنده قصر الدهر^(٢)
ويشرب النواصي الخمر بمجون وخلاعة وكفر ولا تحلوه بدون ذلك :

فلا خير في فتك بغير مجانة ولا في مجون ليس يتبعه كفر^(٣)
دون أن يبالي بحلال أو حرام ، في حين أن الصفي لا يشربها إلا بعد أن يعمل تحليلها ويتعلق به ، ولا يشربها في رمضان لأنه يرى أن ذلك محرّم عليه :

قلت : شهر الصيام أقبل والشرب ولو في دجاء - عندي - حرام
ولكن أبا نواس يضيق ذرعاً في رمضان ويتبرم به ، ويزعم أنه أطول من غيره من الشهور ويومه أطول من الأيام الأخرى ، لأنه قد منع من شربها فيه . ويحسبه كالسجن .

منع الصوم العقاراً وزوى الله و فـقـاراً
وبعثنا في سجون الصو م للهـم أسـارى^(٤)
وما يكاد يخيم الليل حتى ينطلق النواصي من تلك القيود فيشربها بشره :
غير أنا سنـداري فيه من ليس يداري

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٣

(٣) نفس المرجع ص ٢٧٣

(٤) نفس المرجع ص ٢٨٧

نشرب الليل إلى الصبح ح صغاراً وكباراً
وتظهر في شعر أبي نواس آثار الشعوبية والدعوة لها ، فهو فارسي يحاول أن
يحط من قدر العرب فيصطنع لذلك شتى الأسباب :
عاج الشقي على رسم يسائله وعجبت أسأل عن خمارة البلد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعراب عند الله من أحد^(١)
ولا يمكن أن نجد هذه الروح عند الصفي العربي . وهو لم يتطرق إلى العرب
وغيرهم أو إلى السياسة في خمرياته ، في حين أن أبا نواس تطرق إلى ذلك
وناقض آراء المذاهب السياسية والدينية . فهو يقول للنظام :
فقل لمن يدعي في العلم معرفة : حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء^(٢)
ورأينا من تأثير أبي نواس في الصفي في الدعوة إلى التجديد ، أنه لم يبدأ
واحدة من قصائده بوصف الأطلال أو البكاء على الدمن وإنما بدأها بالغزل
أو ذكر الخمر أو وصف الطبيعة :

٧ - الطرديات :

كان لاهتمام الصفي بالصيد ، منذ صباه ، أن وجد له شعر كثير فيه ، وقد
أفرد له فصلاً خاصاً في ديوانه . وشعر الصيد عنده أما مسمطات وأما
أراجيز . فأما المسمطات فهي (ثلاث) وأما الأراجيز فهي (تسع) أراجيز
طويلة و (ست) مقطوعات .
وقد وجد الرجز منذ العصر الجاهلي إذ كان ثانياً للشعر ، وكان الفن الشعبي
الذي يعتمد عليه العرب في القتال والنزال ، وفي الحداء والاستقاء على الآبار

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٥

وغير ذلك من الأعمال . وهو يمتاز عن الشعر بوزنه الخاص فالتمام منه (مستفعلن) ست مرات ، وقافيته التي لا تلتزم في القصيدة كلها ويجب أن تكون قصيدته فردية الأبيات وذلك ليثبتوا أنهم لا يتقيدون بالقافية . وقد كان الرجز في الجاهلية مقطوعات قصار لم تبلغ أكثر من خمسة أبيات ، أما في العصر الاسلامي فقد زاد الاهتمام به وصار فناً شعبياً يتغنى به العمال والمحاربون وغيرهم ، وصارت العناية به تزداد ، وقيلت فيه أكثر أغراض الشعر وبخاصة الهجاء حتى كاد أن يتخصص به . وفي العصر العباسي أصبح الرجز أداة للوصف والصيد ، فحين صار الصيد فناً من فنون الترف واللهو أكثر الشعراء من نظمه رجزاً للسهولة التي يتخففون بها من القافية التي تلتزم في الشعر ولسهولة وزنه (١) . وهناك من يعتبر الرجز من فنون الشعر فهو قصيد أيضاً ، وهناك من يقول إنه فن آخر غير القصيد . وقد سئل (الخليل بن أحمد) عن ذلك فقال بالرأين ، ويظهر أنه يرى أن الرجز إذا كان تاماً من الوجهة العروضية - أي تام الوزن وليس فيه حذف أو نقص في التفعيلات - فهو قصيد أما إذا كان غير تام العروض كالمجزوء والمتهوك كقوله : « أنا النبي لا كذب » وما شاكل ذلك فهو ليس من الشعر (٢) .

وقد برع الصفي في طردياته براعة تامة ، فكان يصف كل شيء من أدوات الصيد وحيواناته ومواقفه ، فهو يصف صناعة القوس وصفاً دقيقاً إذ يقول :

ومدٌ للصنعة كفاً واحداً منزهاً عن الفساد والغلط
وظل يستقري جمال عودها فنبر الأطراف واختار الوسط
وجوّد التدقيق في لحامها فأسقط الكرشات منها والسقط

(١) محاضرات الدكتور طه حسين على طلبه اللسان بكية الآداب - قسم اللغة

العربية - جامعة القاهرة سنة ١٩٥٢

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (رجز)

ولم يزل يبلغها مراتباً تلزم في صنعته وتشرط
فمنـدا أفضت إلى تطهيرها صحح دارات البيوت والنقط
حتى إذا عتقها بدهنها جاءت من الصحة في أحلى نمط
وعندما يصف البندق واندفاعه نحو الطير بسرعة فائقة يشبه بحامل الكره
والحقد على الأطيـار :

وبندق معتدل المقدار كأنما قسّم بالعيار
قد حمل الحقد على الأطيـار فهو إذا انقض من الأوتار
يرى فناء الطير فرضاً واجباً

وقد وصف الصفي حيوانات الصيد كلها وصورها مشاهد تصطرع فيها مع
فريستها ، فلم تفته صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها . فها هو يصف يوماً قضاه
في صيد النعام بقوله :

عن لنا سرب من النعام مشرقة الأعناق كالأعلام
فاغرة الأفواه للهبام كأينق فرّت من الزمام
وحش على مثنى من الأقدام بالطير تدعى وهي كالأنعام

ويصف الطريقة التي يصطاد بها الفهد فريسته ، فيخاطلها ثم يفاجئها منقضاً
عليها :

نخاتل السرب بغير وقصٍ منخفضاً للختل أي خفضٍ
مصافحاً بالبطن ظهر الأرض يجسها بالكف جس النبض
حتى إذا أمكن قرب البعض عاجلها كالكوكب المنقض
فعاثق الأكبر عند النهض عناق ذي حبٍ ربّ بغض

ويصف كلاب الصيد بصفاتهما الخاصة فيقول :

وأهـرت من الكلاب أخطلٍ أصفر مصقول الاهاب أشعلٍ
أعصم مثل الفرس المحجلٍ يخال مرحوضاً وإن لم يغسل

مختصر الشلو ثقيل المحمل منفسح الهامة ناتي المقل
مهضم الخصر عريض الكفل ذي أبطل خالٍ ومتن ممتلي
خصيب أعلى العضب فحل الأسفل قصير عظم الساعد المفتل
مقصر الأيدي طويل الأرجل مزدهم الأظفار ثبت العضل
ذي ذنب سبط قصير أفتل أسلس من دفته كالمزول

فهو يصفه بالصفات التي اشترط فيه عند العرب ليكون صالحاً للصيد ، فان
العرب (يصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل المنق ، بارز الحدقة واسع
الشدقين ناتي الجبهة عريضها وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة ..
ويكون قصير اليدين طويل الرجلين لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود
بمنزلة الأرنب . قالوا : ولا يكاد يلحق الأرنب في الصعود إلا كل كلب
قصير اليدين طويل الرجلين) (١) .

ووصف الصفي طيور الصيد فأجاد ذلك ، فحين يصف البازي يقول :
غليظ خط الجؤجؤ المتكعب ذي عنق خصب ورأس أحذب
قصير عظم الساق ثبت الركب قليل ريش الصفحتين أربع
نمي الجناحين قصير الذنب عيونه مثل الجمان المذهب
وواضح أنه يصفه وصفاً دقيقاً ، فيصف شكله العام ويصف أعضائه كلها وما
تمتاز به . وصفات الصقر كصفات البازي سواء بسواء .
ويصف الطبيعة في طردياته وما حوله من مناظر . فالفجر وطلوع النهار
عليهم وهم منهكون في الصيد بصوره قائلاً :

ورب يوم أدكن المقام ممتزج الضياء بالظلام
سرنا به لقنص الآرام والصبح قد طوح بالثام
كراقد هب من المنام بضمر طامية الحوام

ولا يفسى أن يصف الخيل التي يمتطي ، وصحبه ، صهواتها في هذه الرحلات
الجميلة :

ولقد أروح إلى القنيص وأغتدي في متن أدم كالظلام محجّل
رام الصباح من الدجى استنفاره حسداً فلم يظفر بغير الأرجل
أو يقول :

وغادية إلى الفارات صباحاً تريك لقدح حافرها التهاها
كأن الصباح ألبسها حبولاً وجنح الليل قمصها إهابا
جواد في الجبال تحال وعلاً وفي الفلوات تحسبها عقابا
إذا ما سابقتها الريح فرّت وأبقت في يد الريح الترابا
وقد ينتهي من طردياته إلى مدح أحد السلاطين كما في مسمطته التي مطلعها :

دارت على الراح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر
ونبه الورق نسيم الفجر فغردت فوق الغصون الخضر
تغني عن العود وصوت الزمر

تنتهي إلى مدح الملك المنصور قائلاً :

نجم به الأنام تستدل من عز في حماه لا يذل
في القرّ شمس والمصيف ظلّ وبل على العفافة مستهل
أغنى الأنام من هتون القطر

• • •

وكان لأبي نواس القدح العملي في هذا الفن ، لأنه كان قد لعب بالكلاب
زماناً وعرف ما لا تعرفه الأعراب^(١) ففي ديوانه أربعون أرجوزة في
الطرديات وصف فيها الحيوانات المختلفة وصفاً دقيقةً جميلاً . وقد التزم ما التزمه
العرب من مميزات فن الرجز مما وجدناه عند صفي الدين أيضاً . غير أننا نجد
أن أبا نواس اهتم بكلاب الصيد أكثر من غيرها من الحيوانات وقد وصفها

(١) الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ١٠

في ٢٨ أرجوزة ، أي بأكثر من نصف أراجيزه ، وبهذا فهو يختلف عن الصفي الذي وزع أراجيزه على الحيوانات المختلفة . ووصف كلاب الصيد في أرجوزة واحدة وفي كل شيء حقه من صفات الكلب . لكن أبو نواس كان أوسع أفقاً وأكثر اطلاعاً فقصب وصفه وتنوع وشمل كل شيء فهو يقول :

أنت كلباً أهله من كده قد سعدت جدودهم بمجده
وكل خير عندهم من عنده يظل مولاه له كمبده
يبيت أدنى صاحب من مهده وإن عرى حمله ببرده
ذا غرة مجملأ بزنده تلذ منه العين حسن قده
تأخير شذقيه وطول خده تلقى الظباء عنتاً من طرده^(١)

فهو هنا يصف جمال الكلب واهتمام أصحابه به حتى أنهم يفظونه ببردهم إذا ما عرى لأن رزقهم من كده وابعه . وقد وصف أبو نواس الفهد فقال :

فجاء يزجيه على سمده أصغر أحوى بين بين ورده
وامتد للناظر في مرته كوكب عفريت هوى لمدده
كما انطوى العاقد من ذي عقده خمسين طاماً بيدي ممتده
حتى احتوى العين ولما يرده فنحن أضياف حمالي فمده

فيما اشتبهنا من ذوات طرده^(٢)

فهذه الصورة للفهد حين ينقض على فريسته مشابهة للصورة التي رأيناها عند الصفي وليس ببعيد أن يكون الصفي قد تأثر بها .

ولم ينظم أبو نواس في طردياته غير الأراجيز في حين أن الصفي نظم ثلاث مسطعات طوال كالتي مطلعها :

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٠٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

أما ترى الأنواء والسحابا قد أصبحت في مدحها سكايبا
فاكتست الأرض بها جلايبا فأظهرت أزهارها عجائبها
غرائباً أضحت لها رغائباً

وقد وصف أبو نواس حيوانات لم يصفها الصفي ولم يتعرض لها كالديك والحمام
وغيره . وقد مدح الصفي في بعض طردياته الملوك والسلطين ووصف الطبيعة
في حين اختص أبو نواس فيها على الصيد ووصف الحيوان فحسب .
وقد امتلأت طرديات أبي نواس بالألفاظ الغربية التي لا تسكاد توجد في
طرديات صفي الدين إلا نادراً .

٨ - الوصف :

ذلك الجمال الطبيعي الأخاذ ، وتلك المناظر السحرية الفاتنة التي عاش الصفي
متنقلاً بينها في الحلة وماردين وحمأة وحلب والقاهرة أثرت في نفسه وفي
حسه وفي شاعريته ، وجعلته يعشق الطبيعة ويفتن بسحرها وجمالها ، وينبغي
أطيارها الصداحة ، ويتغزل بأزهارها الفواحة ، وكان له حس مرهف في
الدخول إلى أدق سمات الجمال في كل ما يوجد حوله ، مما تقع عليه الحواس
ويدركه الفكر . فاذا رأى جمالاً اندمج معه وطاش فيه ، وانصل الجمال
بوجدانه وفاض على شعوره ، وبدأ في تحليل مشاعره وأحاسيسه منفصلاً انفصلاً
صادقاً ، فاذا ما تم انفعاله عبر عن ذلك بشعر جميل رتب فيه المعاني وتمسك
الأساليب ، ونسق الصور ونحى الألفاظ . لهذا كان عند الصفي وصف
كثير ، فقد وصف كل شيء جميل ، وكل ما وقعت عليه عينه ، وصف
الطبيعة بأشجارها وأنهارها ووديانها ورياضها وأزهارها وأثمارها ونسيمها
وأطيارها . ولم يدع شيئاً إلا تغلغل إلى دقائق صفاته وغوامض ميزات .
فحين وصف الحلة اهتز قلبه بحبها فقال :

ما حلة ابن ديس إلا كحصن حصين
للقب فيها قرار وقرة للعيون
إن أصبح الماء غوراً جاءت بماء معين
وحولها سور طين كأنه طورسين

ووصف وادياً بالفرس فأعجب بظلاله الوارفة وهوائه العليل :

لله وادي الفرس حين حلته زمناً كأن العيش فيه منام
وادي حريري الرياض فكم به من حارث يقدو به وهام
ممتد أودية الظلال فقمرة باكي العيون وثغره بسام
فالشمس فيه مدى النهار فطيمة والظل كهل والنسيم غلام
ويصف الزهور فيحيط بأنواعها جميعاً ولا يفوته شيء . ويمطي كل نوع
صفاته الخاصة به :

(والورد) في أعلى الفصون كأنه ملك تحف به سراة جنوده
وكأنما (القداح) سمط لآليها هو للقضيب قلادة في جيده
(الياسمين) كماشق قد شفه جور الحبيب بهجره وصدوده
وانظر (لترجسه) الشهي كأنه طرف تذب بهد طول هجوده
واعجب (لآذريونه) (وبهاره) كالتبر يزهي باختلاف نقوده
.....

ورغم هذا الشمول في وصفه لسكل ما يقع حوله فهو يمتاز بالدقة والاستقصاء فلا ينادر صغيرة ولا كبيرة من صفات موصوفه إلا ويشير إليها . فحين يصف الطبيعة في الربيع لا يغيب عن باله أن يرحب معه بالورد والأزهار ، ورحس المنظر وطيب الهواء ، وجمال الألوان وروعيتها . ولا يفتي أن هذا الفصل لما فيه من حسن يفخر به الزمان ، وأن النسيم هو علاج للمزاج ... إلى آخر ذلك مما يتنبه الانسان وما لا يتنبه له :

ورد الربيع فرحياً بوروده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده
فصل إذا افتخر الزمان فإنه إنسان مقلته وبیت قصيده
يعني المزاج عن العلاج نسيمه باللفظ عند هبوه وركوده
يا حبذا أزهاره وثماره ونبات ناجمه وحب حصيده

.....

وإذا وصف الترجمس لم يرض بتشبيهه العيون به وعد ذلك خطأ وقارن بين العين
وزهرة الترجمس قائلاً :

أشبهه الطرف السكحيل بترجمس بعد القياس وذاك من أصداده
نافاه في تدويره وصفاره وجحوظ مقلته وفرط سهاده
فأعجب لزهرة (الباقلاء) وقد بدا فوق القضيب بميس في أبراده
يحكي عيون العين في تلويزه وفتوره وبياضه وسواده

والصفي يتم في وصفه بتجسيم الصورة وتشخيصها ، وإبرازها أمام السامع
واضحة المعاني حية ملموسة ، ويكسبها حركة لا بد منها ، يصف زهر النيلوفر
فيقول :

وبركة نيلوفر زهرها ثني جيده في الدجى واحتجب
فذلح وجه حبيبي له وشاهد أنواره كاللهب
توممه الشمس قد أشرقت فقام على سوقه وانتصب
فأزهر يثني جيده وبحس ، فهو يحتجب عندما يرى وجهاً جميلاً ، ولكنه
حين يرى النور يظنه نور الشمس فيفتصب قائماً لاستقبالها ليتزود منها بالدفء
والحياة .

وأما زهر الترجمس فله وجوه ناظرة وعيون محدقة :

وللترجمس الغض ما بيننا وجوه بمحضرتنا فاضرة
كأن تحدق أزهارها عيون إلى ربها ناظرة
وربما جعل لصورته هذه أشخاصاً تتحدث بحوار عذب جميل فيقول :

قال الحيا للنسيم لما ظل به الزهر في اشتغال
وضاع نشر الرياض حتى تعطرت برودة الشمال :
أما ترى الأرض كيف تفتي عليّ منها لسان حالي ؟
فأعجب لاقرارها بفضلي وسكرها بي وشكرها لي

وهو يبدع في إيجاد الصور الفنية واللوحات الرائعة التي تصور انبلاج الفجر
وانبثاق نور الصباح . يقول :

فيروزج الصبح أم ياقوتة النسق بدت فهبت انورقاه في الورق
أم صارم الشرق لما لاح محتضباً كما بدا السيف محمراً من العلق
ومالت القضب إذ مرّ النسيم بها سكرى كما نُبّه الاثنان من أرق
فهنا نشاهد تذبذبة الورقاه حين يهب النسيم على الأغصان فتميل كأنها ثملة وذلك
عند الفجر .

ويقول كذلك :

نمّ بسر الروض خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شعاع الضحى وابتسمت منه ثغور الأفاح
وقام في الدوح لنمي الدجى حمائم تطربنا بالصياح
مذ وُلد الصبح ومات الدجى صاحت فلم تدرِ غنى أم نواح

فدشاهد هنا كيف تحركت الأطيوار عندما ظهر ضوء الفجر ففرحت له وبدأت
تفرد بألحانها العذبة وكيف ابتسمت ثغور الازهار ودبت الحياة في كل شيء .
وكم شهدنا من حفلات راقصة جميلة ، تفرد فيها الطيور بأعذب الألحان
فتراقص على نغماتها فروع الدوح وأغصان الشجر :

والظلم يسرق في الحمايل خطوه والغصن يحظر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص قد قيدت بسلاسل الرياح
والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحدائق نظرة الغيران

فهذه حفلة من حفلات الطبيعة البهيجة ، ومهرجان من مهرجانات الرياض الجميلة يتحرك فيه كل شيء ، فالظل يسير بين الأشجار والأغصان تتمايل سكرى على الدوح كأنها الراقصات الجميلات ، وحتى الشمس تنظر من خلال الأشجار وتعجب بهذا المنظر .

والكننا قد نستمتع إلى غير هذا الحفل المفرح ، فقد نسمع ندباً وعويلاً ونواحاً مخزناً من الطبيعة أيضاً ، يقول :

والأرض تعجب كيف تضحك والحيا بيكي بدمع دائم الهملان
حتى إذا افترت مباسم زهرها وبكى السحاب بدمع هتان
أو يقول :

والسحب تبكي وتفر البر مبتسم والطيور تسجع من تيه ومن شبق

نشاهد هنا السحب تبكي فينزل المطر غزيراً كأنه الدمع الهتون .

وليست الحركة فقط ما يعتمد عليه الصفي في تجميل صورته وإنما يستعين باللون ، فهاهو يبين لنا ألوان الزهور وصفات الكمال لتلك الألوان :

وقد بدا الورد مفترأ مباسمه والنرجس الغض فيها شاخص الحدق
من أحمر ساطع أو خضر نضر أو أصفر فاقع أو أبيض يقق

ومثل ذلك قوله :

وتنوعت بسط الرياض فزهرها متباين الأشكال والألوان

من أبيض يقق وأصفر فاقع أو أزرق صاف وأحمر قاني

وقد يستعين باللون في الأغراض الأخرى فهاهو يقول في بيته المشهور :

بيض صنائعنا سود وقائمنا خضر مرابنا حمر مواضينا

فهو يلون كل شيء بلونه الذي يدل على عظمته وعلو منزلته .

٩ - القصيدة الساسانية :

بنو ساسان هم المكدون والشحاذون ، ويسمون بهذا الاسم نسبة إلى شيخهم الأول ورئيسهم (ساسان) ، وهو رجل فارسي فقير حاذق في الاستمطاء دقيق الحيلة في الاستجداء^(١) . وقد تنوعت الروايات التي تحدثت عنه وعن أصله واختلفت . فيقال إنه كان ملكاً واغتصب الملك منه (دارا) فهام على وجهه محترفاً الكدية^(٢) . ويقال إن أباه طرده بعد أن رأى أنه لا يصلح للملك فعاش مع الشحاذين والمكدين ، وابتكر الحيل العجيبة في هذا الباب . ويقال إن هذه النسبة ليست حقيقية وإنما هي من باب التحقير لجد (الساسانيين) بعد زوال دولتهم الفارسية التي أسسها (أردشير بن بابك) والتي محقها الاسلام ، وبقي من أطرافها أفراد أذلاء سقطوا في أسنة فتیان المسلمين فكانوا يطردونهم من مكان إلى آخر ، فبعد أن كانت نسبتهم إلى (ساسان) تشير إلى المجد والرفعة أصبحت تشير إلى القذف والسب^(٣) . ولا يعني أن يكون هذا هو الصواب أو ذلك ، وإنما الذي يعني أن أخبار المكدين انتشرت في القرن الرابع انتشاراً واسعاً ، وصار الشعراء والكتاب يهتمون بها ويروون نوادرهم وقصصهم ، وينظمون فيهم وفي حيلهم القصائد الطوال ، ويسمونهم الساسانيين .

وقد كان بديع الزمان الهمداني يعتبر من أوائل المهتمين بأخبار الساسانيين المكدين في مقاماته ، فقد تحدث عنهم طويلاً في عدة مقامات . (كالرصفية) التي يصور فيها أحوالهم وحيلهم ، و (الدينارية) التي يعطينا فيها صوراً عجيبة لألقابهم وشتائمهم ، وهناك مقامة سماها (الساسانية) يذكر فيها طرق الشحاذة عندهم .

(١) مقامات الهمداني ص ٨٩ — هامش .

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٢١٦ .

(٣) مقامات الهمداني ص ٨٩ — هامش .

وربما كانت الفكرة الأولى في هذا الأدب قد نبعت في عصر الجاحظ
فقد ذكرهم في كتابه (البخلاء) في الحديث عن (خالد بن يزيد) : « قالوا
انك لتعرف المكدين . قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كاخان في حدائق
سني ثم لم يبق في الأرض مخطراني ولا مستعرض إلا قضيته . . »^(١) ويستمر
في سرد طرقهم وحيلهم وأسمائهم ، إلا أنه لا يسميهم باسم الساسانيين .

ثم جاء بعد (الجاحظ) من توسع فيهم كما نجد عند (البيهقي) إذ نقل
الكثير من أخبارهم ثم توسع في ذكر أفعالهم ونواديرهم^(٢) . ثم جاء الشاعر
(الأخف المكبري) فنظم قصيدته الدالية في وصف المكدين وبيان حيلهم
وطرق معيشتهم وأحوالهم . وقد عارضه في هذه القصيدة (الشاعر أبو
دلف الخزرجي) بقصيدة طويلة . وكان أبو دلف يحفظ الكثير من أخبار
الساسانيين ونواديرهم ، وكذلك كان (الصاحب بن عباد) ، وربما كان هذا
من أسباب إعجاب الصاحب بن عباد بأبي دلف الخزرجي^(٣) .

وقد ظلت أخبار المكدين تشغل بال الأدباء والشعراء والظرفاء حتى عصر
الصفي فنظم الصفي قصيدته المعروفة بهذا الاسم ، لكنه نظمها بلغة مزج فيها
بين الألفاظ العربية والألفاظ الفارسية الساسانية ، وهذه القصيدة تبلغ خمسة
وسبعين بيتاً يبدأها بقوله :

بقرمخ ادصاني وتريبخ مشتاني غدت سائر الأخشان والفرس تخشاني
خفت دوانيك المراكيس كلها فشخني من كان من قبل داصاني
وها برتهم فيما استكافوا بفيهم وبالقعجم من تبك ومرد ومرقات

.....
وسبب نظم هذه القصيدة - كما يقول الصفي ذلك في الديوان - أن أحد

(١) البخلاء للجاحظ ص ٤٧ .
(٢) الحضارة الإسلامية لأدم متر ص ٣٤٧ .
(٣) قيمة الدرر للتعالي ج ٣ ص ١٧٥ .

أصدقائه رغب في أن يجمع له لغة الغرياء وفنونهم وحيلهم ومعالشهم في قصيدة ، فرأى أن يجعلها في بني ساسان وقد قال في مقدمتها « لما أطلقت عنان أسفاري ، وإن بعد التحجب إسفاري ، طفقت أجوب البلاد وأسبر أحوال العباد ، فلم أجد في طوائف الناس ، على اختلاف الأجناس ، طائفة قليلة الكف كثيرة التحف ، آمنة عواقب التلف ، كطائفة تجار اللسان وورثة ملك ساسان ... » (١) ويذكر أيضاً أنه مطّلع على أحوالهم عارف بأمرارهم بالرغم أنه لم يكن منهم يقول : « وكنت مولماً بكشف حقائقهم واقتباس دقائقهم ، غير أنني لم أنتظم في سلكهم ولم أشاركهم في ملكهم ، مع أنني كنت أنقل من (الهاذور) من شيخهم (ساسان) في علمهم وعملمهم واصطلاحهم وحيلهم ، ما لم يحيطوا به خيراً ولم يستطيعوا عن سماعه صبراً . وأما سبب مزجه ألقاظ هذه القصيدة بين الفارسية الساسانية والعربية فقد بينه قائلاً : « وأن أجمل ألقاظها بلغتهم كي لا تعلم العامة حقائقهم ، وتسلك الأخصان - العامة - طرائقهم » .

وقد شُرحت ألقاظ هذه القصيدة في نسختين من النسخ الخطية الموجودة في دار الكتب المصرية ، فاستطعت أن أقف على معانيها وأعرف الأخبار التي غني الصفي بها عن هذه الطائفة الظريفة .

ويحدثنا الصفي عن المسكدين واحترامهم لمن ينتسب إلى شيخهم الأول وكيف أنهم يتجمعون حوله حين يروونه ويؤدون له واجبات التعظيم والاكبار ، وكيف أن من عادات هؤلاء المسكدين أن يظهر أحدهم مرة محترماً كامل اللباس فيجلبه الأسماء والعظماء والحكام ، لكنه يظهر ساعة العمل فيبدو مهلهل اللباس أغبر الخلقه شقيان ، يرتعي بجوار جامع أو مسجد . وهو طوراً يظهر الصيام والجوع للحاجة والموز . وطوراً يولع بالسكر ومجالسه والغلمان ومعاشرتهم . وطوراً يسلب أموال العامة وينهبها . والصفي يعرض علينا في هذه القصيدة

(١) الديوان ص ٤٤٤ .

من حيل هؤلاء العجب العجاب ، فمنهم من يتظاهر بأنه مكسح أو أقطع أو مريض أو أصمى ، ومنهم من يبتاع الأدوية والمقافير ، ومنهم من يبيع الطلاسم والأدعية والتعاويذ ومنهم من يمسك الأفاعي والحيات إلى آخر هذه الطرق العجيبة والحيل الغريبة .

وفي قصيدة الصفي هذه شيء من المعاني والصور التي وردت في قصيدة (أبي دلف الخزرجي) ، فربما كان الصفي متأثراً بها ولكن قصيدته تخلو من المجون في حين امتلأت قصيدة أبي دلف الخزرجي به .
ولا شك أن صفي الدين قد أبدع في تصوير هذه الطائفة وبيان أحوالهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية .

١٠ - الأغراض الأخرى :

لم يترك الصفي غرضاً من أغراض الشعر ، فقد كان لا يريد أن يخلو ديوانه من أحد فنون الشعر ، فبالإضافة إلى الأغراض التي تحدثنا عنها سابقاً هناك أغراض أخرى .

فهناك الشكوى والعتاب ، وأكثر هذا الفن مقطوعات من شعر جيد يعاتب به السلاطين إذا لحقه ضرر ولم يسرعوا لرفعه عنه ، ويعاتب أصدقائه إذا ما بدر منهم شيء نحوه ، ويعاتب جيرانه إذا جفوه ولم يزوروه ، ويشكو عدم وفائهم وجفاءهم :

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خلٌّ وفيّ للشدائد أصطفي
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعتقاء والخل الوفي
وهو في شعره هذا منطقي يورد الأسباب ويمدد المسببات ويكثر من ذكر الحجج والبراهين ويستعمل الطرق الجدلية للاقتناع . قال يعاتب جاره :

لا يؤخذ الجار في الاعراض بالجار إن دام وهو على رسل الهوى جاري
على ذوي الودّ بالحسنى بأنفسهم وما عليهم بفعل الغير من طار
فكيف ألحقتهم فعل المدادة بنا لقرب دارهم ، بالرغم ، من داري ؟
ولم عدتكم بنا ما قال ضدكم عنكم وإن قلته من غير إثاري
كما سمعت بصوت النار في حطب والصوت للريح ليس الصوت للنار
فهو يطلب من جاره أن يترث في حكمه فرمما كان ما سمعه عنه غير صحيح
ويستدل على ذلك بالصوت الذي يخرج عند اندلاع النار وهو في الحقيقة
صوت الريح وليس بصوت النار .

• • •

وهناك شعر الهجاء ، وهو عبارة عن مقطوعات قصيرة نظمها تقليداً
للشعراء ، فقد قال في بداية هذا الفصل إنه نظمها بناءً على اقتراح أفضل
أصحابه . وهو في كل قطعة يقول : « وطلب إليّ ذلك » ، أو يقول :
« وطلب إليه هجاء كذا » . ويستعمل في هذا الهجاء الصور المرعبة المخاطفة ،
والفكاهة المابرة والسخرية اللاذعة . سئل هجاء مغل فقال :

وشادٍ يشقت شمل الطرب يميت السرور ويحيي الكرب
بوجه بعيد إذا ما بدا وكف يضرب إذا ما ضرب
شدا فغدا كل قلب به قليل النصيب كثير النصب
لغنى فمغنى قلوب الرفاق وماس فمس القلوب العطب

وعناك شعر الزهد والتصوف ، ويدعو فيه إلى التوبة وعمل الخير ،
ويذكر أن الله تواب رحيم غفور غفير ، ويوصي بتقوى الله وإطاعة أوامره
والتوبة إليه لغفران الذنوب :

تب وئب وادعُ ذا الجلال بصدق تجمد الله للءاء سميما
لا تخف مع رجاء ربك ذنباً إنسه يفر الذنوب جميعا

وهو يستغفر الله معلناً التوبة طالباً الرحمة كما كان يفعل أبو نواس في
أواخر حياته :

يا ربّ ذنبي عظيم وأنت عني حلیم
بل غرني منك وعد له الأنام تروم
إذ قلت في الذكر للعص طفي وأنت كريم :
نسيّ عبادي أني أنا الغفور الرحيم
وقال أيضاً في هذا الشعر غزلاً يشبهه غزل المتصوفة في الحب الالهي فيتغزل
بالذات الالهية التي يرى أنه اندمج فيها فيقول :

تراوت لنا بين الأكلة والحجب	فتاه بها طرفي وهام بها قلبي
وأعجب شيء أنها مذ تبرّجت	رأت حسنها عيني ولم يرها صحي
تلقيتها بالرحب مني كرامة	ومنها تعلمنا التلقي بالرحب
.....
وناجيتها فيما أحب سماعه	مشافهة لا بالترسل والكتب
حملت الظلم شوقاً إليها فساقني	إلى (عين تسنيم) أدمت بها شربي
علمت بها ما كنت أجهل علمه	وكننت بها أنبا فصرت بها أنبي

وهناك شعر (الأدب والحكم) وينصح فيه بالتحلي بالآداب الرفيعة والخلق
الكريم :

عود لسانك قول الخير تنجح به من زلة اللفظ بل من زلة القدم
واحذر كلامك من خلّ تنادمه إن النديم لمشتق من الندم
ويضمن هذا الشعر بعض تجاربه في الحياة وما مرّ به من حوادث فاستفاد منها
فها هو ينصح بمصاحبة المهذبين وعدم مصاحبة اللثام :

لا تصاحب من الأنام لثيماً ربما أفسد الطبع اللثيم
فالهواء البسيط في جرة القيظ سموم وفي الربيع نسيم

وابغ منهم مجاناً يوجب الضمُّ فقد يصحب الكريمَ الكريمُ
واعتبر حال طالم الطير طراً كل جنس مع جلسه مضموم
وقال ينصح في أخذ الحكمة من أي وطاء خرجت :

نصحتك فاصغ إلى منطقي يقذك إلى العن الأرشد
ولا تستقلن رأي امري وإن كان دونك في المحتد
فان سليمان في ملكه وكل بأرائه يهتدي
أطاعته كل ذوات الجناح وأصغى إلى نبأ الهدهد
كما يقول :

أقلل المزح في الكلام احترازاً فبافراطه الدماء تراق
قلة السم لا تضر وقد يقتل مع فرط أكله الدرياق

وهناك شعر النوادر المختلفة والملح الظريفة استمع إلى هذه القصة الجميلة :

رأيت في النوم أبا مرة شيخني في تهذيب علم البيان
وحوله من رهطه عصبة يشير نحوي لهم بالبنان
وقال : يا بشراكم بالذي غنيتم عن ذكره بالبيان
هذا الذي أخبرتكم أنه في نظمه أوحد هذا الزمان
وقال : لو شئت أسمعنا بعض ما نظمت في ذا الأوان
فعندما أوردت من مدحك بدائماً منظومة كالجمان
فما د كل منهم قائلاً : أحسنت يارب المعاني الحسان
فقال : مع ذا المدح هل أنعم بضيمة عامرة أو فدان ؟
فقلت : لا ، قال : ولا منزل مستحسن يغنيك عن بيت خان ؟
فقلت : لا ، قال : فتم صاغراً ما أنت إلا بغوي اللسان
وقال في الدرهم :

لن يقضي الحاجات إلا درهم عز الغني ودرهم للمؤمل

يدني لك الغرض البعيد بسحره ويحل عقدة كل أمر مشكل
فاذا فهمت السر فيسه رأيت دخر المؤمل نزهة المتأمل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه لمعت كلسع العارض المتهلل

وإلى جانب هذا كله هناك شعر كثير في أغراض أخرى منها تقاضي أجوبة
الكتب ، وقبول الهدايا ، والألغاز ، والمجون والأحماض ، وهناك الشعر
الذي قيد به العلوم والفنون كأبجر الشعر وغيرها ، وهناك شعر الصناعة
البديمية وما إلى ذلك . لكن هذا الشعر صناعي ليس فيه جدة ، وليس
فيه ما يتميز به عن غيره من شعر الشعراء .

الفصل الرابع

الفنونه المستحدثة

طاوعتني جواهر المدح فيه فأتت في النظام مثل السباط
طيب اللفظ لو حوته الآلي جعلته الحسان كالأقراط
طرف كالعقود فالدر منها ذكره والبيوت كالأسباط

١ - الموشحات :

الموشح من أطرف فنون الشعر في الأدب العربي ، وقد كانت له أهمية عظيمة وصولاً وجولة في دنيا الأدب في عصور مختلفة وأما كن متنوعة ، فكان له شأن كبير في القرون : الرابع والخامس والسادس والسابع . وأعجب الناس به جميعاً وظلوا يحفظونه ويتناقلونه ، وتغنى به المغنون . وقد سمي بهذا الاسم تشبيهاً بوشاح المرأة المرصع المطرز المزين ، فهو يشبهه لما فيه من زينة وصناعة .

وهذا الفن أندلسي الأصل ، اخترعه شعراء الأندلس في القرن الثالث للهجرة . فحين كثرت الشعر عندهم وتهدبت مناحيه وتنوعت فنونه وبلغوا في تنقيحه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم هذا الفن ، وكان مخترعه (مقدم ابن معافر القريري) من شعراء الأمير (عبدالله بن محمد المرواني) . وأخذه عنه (أبو عبدالله محمد بن عبد ربه) صاحب (العقد الفريد) . ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فيه بعدها (عبادة بن القزاز) شاعر (المعتصم بن صالح) صاحب المربة^(١) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٨ .

وكان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق في فنونهم ، ثم اخترعوا فن
الموشح ونوعه وتفننوا فيه فانتشر واشتهر ، واقتبسه منهم أهل المشرق
ونظموه وجودوه وهذبوه . وهناك من يقول إن أهل الأندلس اخترعوه
لتأثرهم بالأسبان في مظاهر حياتهم وسبل معيشتهم وفنونهم ، فقد امتزج
العرب بالأسبان واقتبسوا صوراً من غنائهم ، فاخترعوا الموشح متأثرين بهم
حتى أنهم كانوا يحورون بالأوزان العربية ويملاؤون الشعر بألفاظ أعجمية .
ولم يظهر الموشح في المشرق إلا في القرن السادس عند (ابن سناء الملك
المصري) ومن ثم ذاع وانتشر .

والموشح فن له شروطه وأوزانه وقوافيه ، وهو ينظم أسماًطاً أسماًطاً
وأغصاناً أغصاناً تتوالى بعضها مع بعض . فقل ثم بيت ، ثم فقل ثم بيت
وهكذا ...

والفعل هو الجزء الذي يجب أن يتفق مع البقية في الوزن والقافية وعدد
الأجزاء فيه . فالفعل في موشحة لسان الدين بن الخطيب :

وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهى ملبس
والبيت هو الجزء المفرد ، أو المركب ، الذي يجب أن يكون متفقاً مع بقية
الآيات في الموشح ، في عدد الأجزاء لا القوافي ، بل بحسن أن تكون
قوافي البيت مخالفة لقوافي البيت الآخر ، لكنها متفقة في البيت الواحد :
إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطوط على ما ترسم
زسراً بين فرادى وثنى مثلما يدعو الوفود الموسم
فقوافي هذا البيت متفقة بعضها مع بعض لكنها تختلف عن قوافي
الآيات الأخرى .

ويتألف الموشح في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ، ويقال له التام ،
وفي الأقل ، من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ما ابتدئ

فيه بالأفعال والأقارع ما ابتدئ فيه بالأبيات . ويتركب القفل من جزء إلى ثمانية أجزاء ، وقد يوجد من الموشحات ما قفلها تسعة أو عشرة وهو نادر . ويتكون البيت من ثلاثة أجزاء - أو اثنين وهو نادر - إلى خمسة أجزاء ، وقد يكون ثلاثة أجزاء ونصف . والجزء من البيت قد يكون منفرداً وقد يكون مركباً من فقرتين أو ثلاث - أو أربع وهو نادر - (١) .

والموشح خصائص ومميزات يجب أن تتوفر فيه ، فأوزانه موسيقية خفيفة سريرة الضربات أكثر أجزائها قصيرة متلاحقة ، لكي لا يتمذر تلحينها وإنشادها ، فقد اخترعت الموشحات من أجل الغناء . والملاحظ أن أكثر البحور استعمالاً هي الرمل والمديد وما يتفرع منهما .

وأغراض الموشحات هي الأغراض التي تتلاءم مع روح الغناء كالغزل والحجر ووصف الطبيعة وقد توسعوا أخيراً إلى المديح والثناء والزهد والهجاء . وأما معانيه فهي لطيفة سائغة ، جميلة الخيال مشرقة الصور ، لكنها في الغالب معادة مرردة لا تعمق فيها ، قليلاً ما يعثر المدقق على معاني جليلة لأنها تعتمد على الموسيقى وجمال الألفاظ .

وأما لغتها فليينة ، ولها تعابير خاصة لا تسكاد تتمدها في وصف الطبيعة والغزل وذكر الحجر . وألفاظها جميلة موسيقية سهلة رقيقة ، تمتاز بالحلاوة والطلاوة ، والكثير فيها استعمال اللفظ العامي ومرجه باللفظ الغريب . ويلتزم فيها الصناعة البديعية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وتشبيهات . . .

• • •

وقد افتتن الصفي بالموشح افتتاناً عظيماً وأحبه حباً جماً . ففي ديوانه اثنتا عشرة موشحة مختلفة الأسماط والأغصان ، متنوعة القوافي والأوزان ، متباينة المقاصد والأغراض ، في المديح والغزل والشكر والتصوف .
واتبع الصفي المتقدمين في كل شروط فن الموشح ، وقد نظم هذه

(١) دار الطراز لابن سناء الملك ص ٢٥ .

الموشحات في الأبحر التي كثر استعمالها في التوشيح كالمديد والرمل والمفرح
والمقتضب وما تفرع منها من أجزاء وتفعيلات . وكان يستعمل الأجزاء
المتفق عليها في القفل والبيت دون زيادة . وأما القوافي فقد اتبع فيها ما فعله
المتقدمون أيضاً ، فكانت قوافي البيت الواحد متفقة كلها مختلفة مع قوافي
البيت الآخر . فقوافي هذا القفل :

واغتتم غفلة القدر	خذ من الدهر لي نصيب
صفو عيش بلا كدر	ليس طول المدى يصيب
	تتفق مع قوافي القفل الثاني وهو :
إن في ذلك معتبر	فأرشف الراح يا حبيب
نورها في قم القمر	أترى الشمس إذ يغيب
	أما هذا البيت :

لم ترعها يد المزاج	فأجل لي كاعباً عروس
وكسا نورها الزجاج	نشرها عطر الكؤوس
وهي تحت الدجى سراج	في الضحى تشبه الشموس
	فقوافيه متفقة بعضها مع بعض لكنها تختلف عن قوافي البيت الثاني وهو :
قد جلا بهجة الغمام	في رياض بها الشقيق
إذ بكت أعين الغمام	وزهى زهوها الأنيق
فشدت فوقه الحمام	وانثنى غصنه الوريق

ولما كان مثل هذا الالتزام لقافية الأفعال في الموشحة كلها مما يبعث على
السأم ، فقد استعمل الصفي ذيلًا مغايرًا في الروي للقافية الموحدة في الأفعال
مما يبعد الضجر ويخفف السأم :

زار وصبغ الظلام قد نصلا	بدر جلا الشمس في الظلام ألا فاعجب
	والقفل الثاني :

وأدهم الليل منه قد جفلا	وقد أتى رائد الصباح على أشهب
-------------------------	------------------------------

ولغة موشحاته عذبة فصيحة ، سهلة موسيقية الألفاظ حسنة الاتساق ،
جميلة الجرس إلا أنه لم ينس أن يتخلص في بعض موشحاته (بمخرجة زجلية) .
والمخرجة الزجلية هي القفل الأخير من الموشح ويشترط فيها أن تكون « من
قبل السخف قزمانية من قبل اللحن حارة محرقة حادة منضجة من ألفاظ ولغات
الداصة - أي اللصوص - وقد تكون المخرجة الزجلية عجيبة اللفظ بشرط أن
يكون لفظها في المعجم أيضاً سفسافاً »^(١) . وقد صنع ذلك الصفي في موشحته
التي مطلعها :

صاحب السيف الصقيل المحلى جرد الاحظ وألقى السلاح
وخرجتها الزجلية هي :

(عن مبيت ليلة ما تسمح بقبلة) لا عدمننا منك هذا السماحا
وأما الأغراض التي نظم فيها الصفي موشحاته فهي لم تتعد الأغراض التي نظم
فيها المتقدمون موشحاتهم ، فقد مدح (الملك المنصور) في موشحتين :

قد بدا عزه المهيب	وبمنصوره انتصر
ورأى فتحه الغريب	من أبي الفتح يفتظر
ملك أضحك السيوف	فبيكت أعين العدى
جدعت بيضه الأنوف	وردت كفه الصدى
صارم يمطر الحتوف	ويد تمطر الندى

ومدح (الملك الصالح) في موشحة واحدة منها :

الزهر غدت مسكية الأردن	للعنتشق
أم أكسبها نشرتنا السلطان	طيب العبق
ملك كفت أكنافه كل غريب	
كم أبعد بالنوال من كان قريب	
.....

وشكر (الملك المؤيد) صاحب حماة وابنه (الملك الأفاضل) على هداياها

بثلاث موشحات واحدة للمؤيد واثنان للأفاضل :

أفضت عليّ للنعمى ملابس فصار لديّ رطباً كل يابس

أزعم أنني بالمدح جازي

وهل يجزى الحقيقة بالمجاز

ولكن في ارتجالي وارتجزي

إذا قصرت فإله المجازي

فلو نظمت من مدحي نفائس طئي من قضاء الحق آيس

وتنزل في خمس موشحات مختلفة الأعاريض والفنون منها هذه الموشحة :

يا من حكى الظبي في تلفته وفاقه في الدلال والخفر

أتلفتني في الصدود معتدياً فذلّ عزي وعزّ مصطبري

تمهل ، مضى جفاك تحمّل ، ذبت في هواك !

وله موشحة على طريقة المتصوفة مطلقها :

لنا نشوة في الدجى ماشيه بادراكها أصلحت شانيه

نرى ظلها في الضحى والمقيل

أشدّ وطاء وأقوم قيسل

وألقت على الضد قولاً ثقيلاً

فكانت لأنفسنا هاديه ولكنها للعدى واهيه

ويبدأ الصبي موشحات المدح والشكر بالغزل أو الخمريات في موشحته التي

هنا بها الملك الأفاضل بالعيد يبدأ بذكر الخمر :

زمان الربيع ربيع الزمان

وحسن الوجود وجود الحسان

وإن البليغ بلوغ الأمان

فبادر لفضّ ختام الدنان

وزوج بماء الحيا السلسل عروساً من الخمر
ومن موشحاته التي بدأها بالغزل مدحه الملك الصالح :

بروحي جؤذر في القلب كانس تراه نافرأ في زي آنس
وأحوى أحور الأُحداق أبلى
تسكاد خدوده بالوهم تسدى
كأن الحسن لما منه نما
وآثر أن ذاك الروض يحمى

غدا للروض في خديه غارس وظل له بسيف اللحظ حارس
ونرى من هذا أن الصفي قد اتبع المتقدمين في كل شروط الموشحات وخصائصها
في الأغراض والمعاني والأساليب والألفاظ واللغة والأطاريض وحتى الخرجة
الزجلية استعملها في موشحاته . على أنه لم يرض على أنه لا يبدع فيه شيئاً
جديداً ويكون مقلداً فحسب فاخترع في الموشح جديداً سماه (الموشح
المضمن) ، إذ أنه نظم موشحة ضمن أبياتها (بائية أبي نواس الغزلية) التي
مطلعها :

حامل الهوى تعب يستغفبه الطرب

فقال صفي الدين :

وحق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى
وما كنت أرجو وصل من قتلي نوى
ليس في الهوى عجب
(حامل الهوى تعب)
أخو الحب لا يتفك صبباً متبها
لفرط البكا قد صار جليداً وأعظما
الغرام أنحله
(إن بكى يحق له)
ولكن نجمي في المحبة قد هوى
وأضنى فؤادي بالقطيمة والنوى
إن أصابني النصب
يستغفزه الطرب)
غريق دموع قلبه يشتكي الظما
فلا عجب أن يمزج الدمع بالدماء
إذ أصاب مقلته
ليس ما به لعب

وقد طرق الصفي فناً جديداً في الموشح ، وهو (الموشح المنجح) ، وقد سُمي بهذا الاسم لأنه يلتزم فيه اتفاق قافيتي الجزء بن الثاني والرابع من أبيات الموشحة كلها ، هذا بالإضافة إلى اتفاق هذه القوافي في الأفعال . وبذلك يكون للموشحة قافيتان ، قافية للأفعال وقافية للأبيات كما في قول الصفي :

عزمت يا متلني على السفر واطول خوفي عليك واحذري
يؤيسني من لقاك قولهم بأنه لا رجوع للقمر
تمهل ، مضني حفاك تحمل ، ذبت في هواك
يا من حكى الظبي في تلفته وفاقه بالدلال والخفر
أتلفتني بالصدود معتديا فذلّ عزي وعزّ مصطبري
تدل ، مهجتي فداك تمهل ، بمض ذا كفاك

ففي هذه الموشحة قد انفقت قافية الأفعال - كما يشترط ذلك في فن الموشح - وهي (جفاك) و (هواك) في القفل الأول وتتفق مع (فداك) و (كفاك) في القفل الثاني . وتتفق إضافة إلى ذلك قوافي البيت الأول ، (حذري) و (للقمر) مع قوافي البيت الثاني وهي (الخفر) و (مصطبر) . ليس هذا فقط وإنما جمل أول كلمة في الصدر بوزن وقافية أول كلمة في الصدر . كما في (تمهل) و (تحمل) في قوله :

تمهل ، مضني جفاك تحمل ، ذبت في هواك

ولعل هذا هو السبب في تسميته بـ (الموشح المنجح) فقد قيل : أجنح الرجل في مقعده إذا انكب على يد واحدة ، وقال (الأزهري) : الرجل يجنح إذا على المشي يعمله بيده وقدميه^(١) . وهذا الموشح يعتمد على اتفاق قافية الأفعال ، واتفاق قافية الأبيات ، ولذا سُمي بالمنجح .

وكان لا يكاد يسمع بموشحة نالت حظاً من الشهرة إلا وطارضاها ، فقد طارضا موشحة (غيلان الغول المصري) التي يقول فيها :

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (جنح) .

شربنا سلفاً بلا آتية فلا تحسبوا عينها آتية
فقال الصفي وقد التزم مجنيس القلب :

لنا نشوه في الدجى ناشيه بادراكها أصلحت شانيه

ترى ظلها في الضحى والمقيل

أشد وطاه وأقوم قيل

وألقت على الضد قولاً ثقيل

فكانت لأنفسنا هاديه ولكنها للمدى داهيه

فهناك (ناشيه) مقلوب (شانيه)

وهنا (هاديه) مقلوب (داهيه)

وقد يقترح عليه أحد السلاطين أو بعض أصدقائه نظم موشح يمارض به
موشحاً مشهوراً كما طلب منه عمل موشحة يمارض بها موشحة (أبي بكر بن
تقي الدين المغربي) التي أولها :

لست من أسر هواك محلا لو يكن ذا ما طلبت سراحا

فقال الصفي :

صاحب السيف الصقيل المحلى جرّ دال لفظ وألقى السلاحا

لك يارب العيون القواتل

ما كفى عن حمل سيف وذابل

أعين تبدو لديها المقاتل

ما سرى في جفنها الفنج إلا أوثقت منا القلوب جراحا

٢ - المنسهمات :

والمسمة قصيدة تبدأ بيت مصرع ثم بعده أربعة أقسمة (شطرات)
على غير قافية البيت الأول ويليهما قسم خامس تنفق قافيته مع قافية البيت الأول

الذي بدئت القصيدة به ، وهكذا إلى آخر القصيدة . مثال ذلك قول امرئ القيس :

توهمت من هند معالم اطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

* * *

مرابع من هند خلت ومصائفُ يصبح بمغناها صدىً وعوازفُ
وغيرها هوج الرياح العواصفُ وكل مسف ثم آخر رادفُ
باسحج من نور السماكين هطال

قالبيت الأول في هذه القصيدة مصرع لاتفاق (اطلال) و(الخالي) وقد اتفق معها آخر القسم الخامس بكلمة (هطال) أما الأقسمة الأربعة فقد انفقت بالكلمات : مصائفُ وعوازفُ ، والعواصفُ ، ورادف . ولا تتكرر القافية الغائية في الأبيات الأخرى وإنما تكون كما يريد الشاعر ، إلا أنه يجب أن يجعل قافية الأقسمة الخامسة في القصيدة كلها تتفق مع (الخالي) و(هطال) وهذه القافية تسمى (عمود القصيدة)^(١) . وقد تكون القصيدة المسمطة بأقل من أربعة أقسمة كقول أحدهم :

خيال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا

عميد القاب مرتهنا

بذكر اللهو والطرب

سبتني ظبية عطل كأن رضاها عسل

ينوء بخصرها كقل

ثقل روادف الحقب

وقد يبتدي الشاعر مسمطته بأكثر من بيت واحد - أربعة أبيات أو خمسة -

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١١٩ .

الأول منها مصرع .. وبعدها يأتي بالأبيات ذات الأقسام الخمسة . كقول
خالد القناس :

لقد نسكرت عيني منازل جيران كأسطار رق ناهج خلق فاني
توهمتها من بعد عشرين حجة فما استبين الدار إلا بعرفان
فقلت لها : حيث يادار جبرتي ابيني لنا أني تبدد إخواني
وأني بلاد بعد ربك حالفوا فان فؤادي عند طيبة جبراني

وما نطقت واستعجبت حين كلمت وما رجعت قولاً وما أن ترممت
وكان شفائي عندها لو تسكمت إلي ولو كانت أشارت وسلمت
ولكنها ضفت علي بتبيان^(١)

وهذا الفن الشعري قريب من الموشح - إلى حد ما - ولكنه ليس
بالموشح . وقد استعمله الشعراء للتخلص من التزام القافية الواحدة كما في
القصيد ، وبخاصة حين يريد الشاعر أن يطيل فيتحرر من بعض قيود القافية .
أضف إلى هذا جمال التنويع وتبديل نغمات القوافي .

وسميت هذه القصائد بالمسمطات ، وسمي هذا الفن (فن التسميط) مشتقاً
من (السمط) ، وهو سلك اللؤلؤ الذي يضمه ويجمع حباته ، لأن هذا الشعر
متفرق القوافي يجمعه وترده إلى البيت الأول قافية واحدة هي التي في الشطر
الخامس ، كما تجمع اللآلي والخرز في عدة سلوك ثم تجمع معاً في سلك أو نحو
ذلك حتى يتم السمط .

وقد نظمت هذه المسمطات في أوزان كثيرة كالجز وغيره .. ولكن
أكثر ما نظم كان في نوعين من الرجز هما المشطور والمنهوك^(٢) .

وقد ينظم الشاعر هذه المسمطة كلها بنفسه ، وقد يسمط إحدى القصائد

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ .

الشهيرة للشعراء المتقدمين وذلك بأن ينظم مع كل بيت من أبيات القصيدة ثلاثة أجزاء تكون ، الأول والثاني والثالث ، وتتفق كلها مع قافية الجزء الأول من البيت الأصيل فيكون رابعاً لها ، ويكون الجزء الثاني خامس الأقسام . وقد يسمى هذا بالتحميم وتسمى القصائد الخمسات . كتخميس صفي الدين لقصيدة السموهول ومنها :

(١) يريك الثريا من خلال شعابه (٢) وتحديق شهب الأفق طول هضابه
(٣) ويمتاز خطو السحب دون ارتكابه (٤) رسا أصله تحت الثرى وترابه
(٥) (إلى النجم فرع لا ينال طويل)

فالأجزاء الأول والثاني والثالث من شعر صفي الدين والرابع للسموهول وهي متفقة كلها في القافية والخامس للسموهول أيضاً وهو مختلف عنها في القافية لكنه متفق مع جميع الأجزاء الخمسة للمسط .

ولا شك أن النوع الأول (التسميط) أكثر أصالة من الثاني (التخميس) ، إذ أن الشاعر في التخميس يكون مقيداً بقيود كثيرة ، تمنعه من أن يكون حراً يتصرف بالشعر كما يشاء ، ويبدع فيه كما يريد ، وأن يعبر عما يحس وما يرى تعبيراً صادقاً فهو هنا مقيد بقوافي الأبيات لا يحيد عنها ، ويجب عليه أن يكمل المعاني والأبيات التي يريد تخميسها ليكون السمط وحدة موحدة المعنى .

وقد نظم صفي ثلاث مسمطات مدح بأحداها (الملك المنصور) وقد بدأها بوصف الطبيعة قائلاً :

دارت على الدوح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر
ونبه الورق نسيم الفجر ففردت فوق الفصون الحضر
تغني عن العود وصوت الزمر

وأما الثانية فشكر بها (الملك الأفضل) على إنعامه وهباته وهنأه بعيد الفطر
ومطلعها :

قم بي فقد ساعدنا صرف القدر وجاء طيب عيشنا على قدر
فكم علا قدر امري وما قدر فأرضع بنا در الهنا إن تلق در
فالشهم من حاز السرور إن قدر

والمسطة الثالثة في وصف الصيد ويبدأها بوصف الطبيعة فيقول :

أما ترى الأنوار والسحابا قد أصبحت دموعها سكابا
فاكتست الأرض بها جلابيا فأظهرت أزهارها عجائبها
غرائباً أضحت لها رغائباً

ونحمد أن الصني جعل الصيد أهم غرض في هذه المسمطات بالرغم من أنه مدح
في واحدة وشكر في الثانية ، فإن المهمة الأولى في كل مسمطاته هو الصيد لا غير .
فالمسطة الأولى التي مدح بها الملك المنصور تتكون من خمسة وثلاثين قسماً
خمس أقسام منها في وصف الطبيعة وتسعة عشر في الصيد وأحد عشر في مدح
المنصور . وهو يصور فيها الصيد ويذكر حيواناته وطيوره وأنواعها ، ويصف
القصي وصناعتها ، ويصف حادثة برهن فيها على مهارته في الصيد ، ويختمها
بالدعاء للمنصور قائلاً :

لا برحت أفراكم مجدده وأنفس الضد بكم مهدده
وأربع المجد بكم مشيدده والأرض من آرائكم ممهده
والدهر بالأمن ضحوك الثغر

وأما الثانية التي يشكر فيها (الملك الأفضل) على إنعامه ويهنئه بعيد الفطر
فتتكون من تسعة وعشرين قسماً ، عشرة منها في الملك الأفضل ، والباقي
كله في الصيد ووصف الصيادين وأحوالهم ومهارتهم وحيلهم وصفاتهم وأنواع
الطير وأسماؤها ، ويختمها بتهنئة الأفضل بالعيد فيقول :

فاسعد بعيد فطرك السعيد ممتماً بعيشك الرغيد

في الصوم والافطار والتعبيد للناس في العام انتظار عيد

وأنت عيـد دائم لا يُنتظر

والمسمطة الثالثة في الصيد ، وهي ثلاثون قسماً ، ثلاثة منها في وصف الطبيعة ، والباقي في الصيد ، فوصف القوس والبندق ، وطريقة الصيد ، وأنواع الطير وعاداتها وأحوالها وغير ذلك ، وختمها بقوله :

فيا لها من فرحة لو تمتِ كنت وهبت للقديم مهجتي
ولم يكن ذو قدمة كقدمتي بل فاتني الثاني وكانت همتي
نرى جلاء الجوّ منه واجبا

ونلاحظ أن هذه المسمطات طويلة النفس ، فأصغرها مكونة من تسعة وعشرين (مقطوعة) أي (١٤٥) شطرة فهي تساوي قصيدة تقرب من خمسة وسبعين بيتاً . وهذه المسمطات تمتاز بسهولة اللغة وخلوها من الغريب وعذوبة الأسلوب وجمال الألفاظ ودقة المعاني . وهي جميعها في بحر واحد هو بحر الرجز . فكأن الصني أبي أن يقول الصيد في غير بحر الرجز . وقد أبدى الصني براعة عظيمة في هذه القصائد ، وأبدع أحسن الابداع ، فليس أجل من وصفه للطبيعة بقوله :

هذي الروابي بالكلا قد توجت ونسمة الخريف قد تأرجت
وقد صفت مياهه ورُججت والأرض بالأزهار قد تدبجت
وأصبح الطلُّ عليها ساكبا

وليس أبدع من دعوته الانسان إلى اغتنام الفرص في زمانه القصير قائلاً :
لا تسكب الدمع على عيش مضى ولا تقلّ كان زمان وانقضى
واغتتم الغفلة من صرف القضا فالموت كالسيف متى ما ينتضى
تضحى لنا أعمارنا ضرائباً

.....

ويجدر بنا ، هنا ، أن نذكر أن الصني لا بد أن استفاد من شاعر اشتهر بهذا

الفن ، ونظم المسمطات الطردية العظيمة فأبدع فيها وهو (عمر بن السفت)
وكان رامياً ماهراً ، يصف في أشعاره ما يعمل في أسفاره . وله :

هيج لي البرق على الخيف اضا طيب ليالينا على وادي الغضا
مع طيب عيش قد تولى ومضى آه له لما تولى وانقضى
بل آه والهني على تلك الدول

أتمهم في أفق السما وأنجدا وقهقه الرعد به ثم حدا
فصحت مما حلّ بي وأكدا ياسعد إن كنت زميلا مسعدا
قف بالحمى دون الكثيبين وسل

فنلاحظ أن الصفي قد أفاد كثيراً من صور وألغاز وعبارات هذا الشاعر .

وبجانب هذه المسمطات نجد سبع نغمات هي :

واحدة في الرثاء ، فقد خمس (نونية ابن زيدون) المشهورة راثياً
(الملك المؤيد اسماعيل) صاحب حماة ، وقد مر ذلك في الكلام عن الرثاء .
واثنان في الغزل الأولى تخميس قصيدة الشيخ مدرك الشيباني المربعة
التي يتغزل فيها بغلام نصراني فقال :

من طاشق ناه هواه دان ناطق دمع صامت اللسان

موتق قلب مطلق الجمان معذب بالصد والهجران

طليق دمع قلبه في أسر

من غير ذنب كسبت يده غير هوى نمت به عيناه

شوقاً إلى رؤية من أشقاه كأنما طافه من أبلاه

إذ كان أصل نفعه والضر

ونلاحظ أن الصفي لم يتبع في تخميس هذه القصيدة طريقة التخميس المعروفة
إذ أنه أضاف الشطر الخامس في كل جزء منها وذلك لأن القصيدة مربعة
الأجزاء . وبذلك يكون هو صاحب الأشطر الخامسة والقفافية في هذه

القصيدة . والثانية تخميس لأبيات (محيي الدين بن زبلاق) التي مطلعها :
بمئت لنا من سحر مقلتك الوسنا سهاداً يذود النوم أن يألف الجفنا
وأربع قصائد في الحماسة ، إذ خمس قصيدة السموهول الحماسية التي مطلعها :
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
فقال :

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رجب لديه وعرضه
ولم يبيل سربال الدجى فيه ركضه (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه)
(فكل رداء يرتديه جميل)

وقصيدة قطري بن الفجاءة التي مطلعها :

أقول لها وقد طارت شعاعاً : من الأبطال ويحك لا تراعي

فقال :

ولما مدت الأعداء باطاً وراع النفس كرم سراطاً
برزتُ وقد حسرتُ لها القناعاً (أقول لها وقد طارت شعاعاً)
(من الأبطال ويحك لا تراعي)

وخمس الصفي كذلك فأنحة الحماسة وهي :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
.....

فقال :

يا للحماسة ضاقت بينكم حيلي وضاق حقي بين العذر والعذل
فقلت مع قلة الانصال والحوول (لو كنت من مازن لم تستبح إبلي)
(بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا)

لو أنني برطاة العرب مقترن لهم نزيل ولي في حبيهم سكن
ومسني في حمى أبنائهم حزن (إذا لقام بنصري معشر خشن)
(عند الحفيظة إن ذلوثة لانا)

.....

والصفي في هذه القصائد لا يبعد عن روح الشاعر في المعنى والتعبير والاحساس
والمعاطفة ، لأنه كان يختار القصائد التي يرى أنها تعبر عن إحساسه ، ففي
تخميسه لقصيدة السموهول يقول :

وعصبة غدر أرغمتها جدودنا فبات ومنها ضدنا وحسودنا
إذا عجزت عن فعل كيد يكيدنا (تعيرنا أنا قليل عديدنا)
(فقلت لها : إن الكرام قليل)

يوازي الجبال الراسيات وقارنا وتبنى على هام الحجر دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا (وماضنا أنا قليل وجارنا)
(عزيز وجار الأكثرين قليل)

ولاشك في أن الروح في هذه الأبيات واحدة عند الصفي والسموهول ، وأن
التعبير والأسلوب وكل شيء لا يختلف في هذه الأبيات الأصلية عما في
التخميس ، حتى لنسكاد نحس أنها لشاعر واحد .

٣ - النجل :

حين اتسعت رقعة البلاد الاسلامية بالفتوحات الكثيرة شملت أقطاراً عديدة ،
واختلط العرب بالأمم وتأثروا بهم في كل شيء ، ضعفت لغة العرب ، ودخل
فيها الكثير من الألفاظ الأعجمية وصاروا يجدون صعوبة في التكلم بها ،
فتكلموا بلغات عامية جديدة تختلف بعض الاختلاف بين بلد وآخر . وتمتاز
هذه اللغات ، بسهولة ، وخلوها من الاعراب ، وكثرة الألفاظ الأعجمية
فيها ، واستعمال التعبيرات الشعبية والاصطلاحات اليومية . وطفنت هذه
اللهجات في العصر المغولي حتى زاحمت العربية في كل ميدان ،
وبدأ الشعراء يحاولون أن يكون شعرهم المنزوع من بيئتهم معبراً بنفس

اللغة اليومية التي يتكلمون بها ويتعاملون ، أي أن يكون شعراً عامياً خالياً من الاعراب ، وساعد على ذلك وشججه السلاطين الأعاجم لصعوبة الفصحى وسهولة العامية . وقد امتنع الشعراء والأدباء في بادئ الأمر عن ذلك ، وحاولوا محاربة الأشعار العامية ، واعتبروها انحطاطاً بالشعر ونكسة بالأدب ، ورجوعاً بالفن إلى الوراء ، وظلوا ينظمون الشعر الفصيح ويرفعون عن العامي . لكنهم لم يجدوا بداً ، في آخر الأمر ، من السير في ركاب التطور ، فنظموا الشعر العامي .

والشعر العامي هذا عدة أنواع أهمها أربعة فنون هي : الزجل ، والموالي ، والكان وكان ، والقوما . ومعرفتها - كما قال الصفي - بالطبع السليم ، وافتها من الفهم السقيم . فليس لها قواعد ثابتة تسير عليها ، ونظم مؤكدة تتبعها بل يعتمد فيها على الذوق والفهم والطبع السليم . ولهذا كان من الصعب على الدارس أن يخضعها للدرس والبحث والنقد . ومع هذا فهناك قواعد عامة لكل فن ، وميزات ظاهرة يجب أن تتوفر فيه .

وقد ألف صفي الدين كتاباً في الأشعار العامية سماه (العاطل الحامي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي) درس فيه فنون هذا الشعر من زجل ، وموالي ، وقوما وغيره ، وأنواعها وشروطها وتفاعيلها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز . ومثل لكل نوع بنماذج من الشعر الأندلسي ونماذج من شعره هو . ويعتبر هذا الكتاب الوحيد في دراسة هذه الفنون بالرغم من أنه لم يف بالغرض تماماً . فلم يؤلف أحد من قبل الصفي في دراسة هذه الفنون ولا من بعده .

• • •

والزجل أرفع الأشعار العامية رتبة وأشرفها منزلة ، وأكثرها أوزاناً وأرجحها ميزاناً . أوزانه متعددة وقوافيه متعددة .

والزجل في اللغة الصوت ، ويقال سحاب زجل إذا كان فيه رعد ،

ويقال لصوت الأحجار والحديد أيضاً والجماد : زجل^(١) . والرجل التطريب
ورفع الصوت^(٢) وخص به التطريب ، وأنشد سيبويه :

له زجل كأنه صوت حاد إذا طلب الوسيقة أوزمير^(٣)

اخترع هذا الفن أهل الأندلس فجاءوا فيه بالفرائب واتسع فيه للبلاغة
مجال حسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع في هذا الفن (أبو بكر بن
قزمان) ، فهو وإن كان هذا الفن قد قيل قبله بالأندلس لكنه لم يظهر
حلاه وروعته ، ولا اشتهرت معانيه ورشاقته إلا في زمانه . فكان هو إمام
الرجالين ، وقد رويت أزجاله في بغداد أكثر منها في الأندلس^(٤) . وقيل
إن مخترعه غير هذا ، ومنهم من قال إنه (عمر بن غرلة) وقد استخرجه من
الموشح . ومنهم من قال إنه (مخلف بن راشد) ، وكان إمام الرجل قبل
(ابن قزمان) ، فلما جاء ابن قزمان نظم السهل الرقيق قال الناس إليه . وقيل
إنه (مدغليس)^(٥) .

وكانت الأزجال الأولى قصائد كقصائد القريض ، وأحياناً على عروض
الشعر العربي بقافية واحدة ، ولا تختلف عن القصيد إلا باللحن واللفظ العامي ،
ويسمونها (القصائد الزجلية) . ثم نوعوا أوزانها وقوافيها وجعلوا لها أفعالاً
وأوزاناً . ونوعوا في الأوزان وخالفوا فيها فصارت كأوزان الموشح ، بعد
أن كانت كالقصيد ، وأصبحت قافية الزجل كذلك متنوعة مختلفة .

وقد قسمه مخترعوه أربعة أقسام ، فرقوا بينها بضمونها أو غرضها
وبالأوزان واللزوم : الأول ما تضمن الغزل والنسيب والخمر والزهد ويسمى
(الرجل) . والثاني ما تضمن الهزل والحلاعة ويسمى (البليق) . والثالث

(١) العاقل الخالي ورقة ١٨ (مخطوط)

(٢) القاموس المحيط للفريز أبادي ، مادة (زجل)

(٣) لسان العرب لابن منظور ، مادة (زجل)

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤

(٥) العاقل الخالي ورقة ٢١ — ٢٢

ما تضمن الهجاء والثلب ويسمى (قرقياً) . والرابع ما تضمن الوعظ والحكمة
ويسمى (الكفر) (١) .

وأطلقوا على ما أعرب جزء منه وأهمل الجزء الآخر اسم (المزتم) فهو
ملحق بالموشح لاعراب بعضه ، وبالزجل للحن بعضه الآخر . فما أعرب هو
الموشح وما خلا من الاعراب الزجل ، والمزتم وسط بين هذا وذاك .

ولسلك أمة زجل يجري على أسنفة شعرائها ، بما في لغتها من خصائص
ومميزات من إدغام بعض الحروف ، ومن مد وإمالة وقطع ، ومن تغيير حرف
بآخر ، وغير ذلك . فللأندلسيين زجل ، وللمصريين زجل ، وللعراقيين
زجل . . .

ويمتاز الزجل بسهولة اللفظ ، وحسن السبك ، والرقّة والمدبوبة .



وللصفي أزجال كثيرة أورد منها (أحد عشر زجلاً) في هذا الكتاب
- العاطل الحالي - وقد أتبع فيها قواعد مخترعي الزجل ، وامتنع - كما قال -
عن الميوب التي يجب ألا يقع فيها الشاعر لثلاثاً يقال إنه اصطر إلى ذلك لضعف
قدرته ، فها هو ينظم زجلاً على عروض زجل لشاعر مصري اسمه علي فيقول :

نعشق	قر	قد	طلع	في	تمامو
عقلي	قر	حين	خلم	غيم	لثامو
سيد	السمر	بالله	مم	ذب	كلامو
متر	ك	أح	ور	مستعرب	اللفظ أسمر

.....

ويقول إن الشاعر رغم أنه نظم ما لا يقبعه أحد في البلاد ، فقد خلص لزوماته
كما يجب ، وكانت في كل بيت (إحدى وعشرين تافية) . فزادها الصفي تافيتين
وجعلها (ثلاثاً وعشرين تافية) .

ونلاحظ أن أكثر أزجال الصفي منظومة على عروض أزجال معروفة ليبرهن بها على براعته ومهارته ، إذ يزيد عليها ويلتزم ما التزم شعراؤها في زجلهم ، ويجوّد في معانيها .

وألفاظ الصفي في أزجاله سهلة مختارة ، كثير منها قريب إلى ألفاظ الفصحى . ولم نجد في هذه الأزجال - وفي غيرها من فنون الشعر العامي - من الألفاظ العامية والتعبيرات الشعبية ما بقي منتشرأ حتى اليوم إلا قليلاً بل قليلاً جداً . فقد وجدنا (اش علي) بمعنى أي شيء علي ، ويراد بها « ليس لي أي دخل » في مثل قوله :

صرتم حكيه شرحها نقل إليه أنتم هتكتم عرضكم فأنا اش علي
وكلمة (الزغلات) بمعنى الغش في اللعب في مثل قوله :

أي من لعب بقلبي بحكم شطرنج الهوى
وغرني وغلني بكثرة الزغلات

ومن ذلك حذف همزة إن وإضافة الواو إلى النون فتكون (وِن) كقوله :

وِن طلب وصفو شعري قال فكري صب لنا بجمو
و « معذب » بمعنى ما أعذب . كقوله :

سيد السمير بالله مع ذب كلامو

ولعل سبب هذا أن الصفي كان يتكلم بلغة الخاصة ، لغة الأدياء والعلماء ، فهي مهذبة الألفاظ بعيدة عن كلام العامة قريبة إلى الفصحى . وقد وجدنا الصفي يرفع أواخر بعض الكلمات التي يقف عندها ، كما هو في العامية المصرية اليوم فيقول : « كلامو » أي كلامه و « أخاصمو » أي أخاصمه كما في قوله :

نمشق صغير لي شهر سيف عنادو

قلبي الكبير والنظر طوع مرادو

وقوله : وقفت يوم لحبيبي حتى أعتبو وأخاصمو

فقلت ، وقال : جواني بالغمز بالأجفان

هذا بينما العامية المراقية تحرك هذه الحروف بالفتح فتكون (عناده)
و (مراده) و (أعتبه) و (أخصمه) .

ولكن معظم ألفاظ أزجاله - وغيرها من فنون الشعر المامي - من الفصح
يبين ذلك قوله :

يا ما لقيت	من دعج	ذي المقلة
قلبي يبيت	منزعج	كل ليله
وقد بقيت	كثي ع	نون ليلي

أو قوله :

ليس غريب من طارق أوطانو أو بعد عن ناظرو المحبوب
إلا من دارو قبل دارو والحبيب عن ناظرو محبوب
حتى عني حجيوه أهلو وأسرفوا في جمع حفاضو
والرقيب قد غيبو عني حتى عني قيد ألفاظو
كل يوم لأجلو يفيظ قلبو رب يحفظ قلب الذي ظاظو
ونجد في هذه الأزجال بعض المحسنات البديعة كقوله في الجناس :

أصير إن خطر أسير في خطر

وأما معانيه فهي بديعة يختارها اختياراً ، ويفوص عليها إلى الأحمق ،
ولسنا ندري أكل معاني أشعاره العامية بهذه الجودة أم أن هذه الجودة تختص
بما اختاره وأثبتته في هذا الكتاب فحسب ؟

وهذه الأزجال كلها في الغزل والخمرات ما عدا بليقين في الشكوى واحدة
في شكوى مشقة الصوم . فن خمرياته هذا الزجل الجميل :

جنى والكاس والزهرة والراوق والطيور والسحاب

سنة في مجلس ثلاث تضحك وثلاث في انتحاب

جيت صباح اليوم نستجلي شمس الراح على وجه الحبيب

وبقيت نجتلي من ألفاظو كل معنى غريب

رمت عشرة أشياء مقسم قسمين أيش غريب من قريب
در لغزو ولفظو والأقراط والأقحاح والحباب
وشعاع خدو والشفق والسكاس والشقيق والتزاب
ومن أزجاله الغزلية الرقيقة ما نظمه جواباً (لشهاب الدين أحمد) في دمشق :
إش نحمد لك بقتلتي غبطة يا الذي تمشقو
لو تدع ما تبقى من عمري كان عليك ننفقو
بالله يستعبد القلوب حسنك يا لطيف اللطيف
جل من لطفك ومن خصك بالفعال الكثيف
وجمع فيك مع قلة إنصافك كل معنى ظريف
قط ما نطلب من الجمال معنى ألا فيك نلحظو
لو تصيب من قديم جمال بالله كان تسرقوا
ومها يكن فأزجاله خفيفه ، وليس فيها نقل ولا ما يفبو عن الأذن والدوق .

٤ - المواليا :

اخترع هذا الفن أهل واسط ، وله وزن واحد ، من بحر البسيط
- مستفعلن فعلان مستفعلن فعل - ويتكون من بيتين لها أربع قوافٍ على
روي واحد . في هذا الموالى :

أغنت وأفنت كفوفك في الندى والحرب
في البعد والقرب من في الشرق ومن في الغرب
وفيض جودك وسيفك في العطا والضرب
ذا فرج الكرب وذا رمى في القلوب الكرب
نجد أن الروي ، وهو حرف الباء متفق في الأجزاء الأربعة كلها في الكلمات :
الحرب ، الغرب ، الضرب ، الكرب .

ونظموا فيه باللفظ القوي الجزل في الغزل والمديح والصناعات وأغراض
القريض الأخرى ، كقولهم في الغزل :

ما بين أكناف راكس من حمى التلثم
شرقي حزوي لبا ذات القضا ترسيم
ودون آرام رامة يسبق التسليم
نبيل يشق المرابر من لحاظ الريم
وقولهم في المديح :

أضحت أنوف القنا ترعف وبيض الهند
تضحك وتنتحب الهامات خوفاً عند
لقا سناب ابن عاصم مطعم الافرندي
لحم الحجاج ومن أعيا أساء السند

وكان يجوز فيه الاعراب واللحن . وليس معنى هذا أنه يجوز جمع الاثنين
في موالي واحد ، كما هو الحال في الزجل المزم ، فهذا عيب كبير في الموالي
وإنما يجوز أن يكون هناك موالي معرب وموالي خالٍ من الاعراب .

ولم يزل كذلك حتى اقتبسه أهل بغداد فلفظوه ونمقوه ورققوه وحذفوا
الاعراب منه واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقة المعنى ، ونظموا فيه الجيد
والهزل حتى شاع في الأمصار وانتشر في البلاد وتداوله كل الناس واشتهر
باسم البغداديين ونسب اليهم فقبل موالي بغدادية :

وسمي بهذا الاسم لأنه كان يتداوله العبيد والفلاحون بسهولة تناوله
وقصره ، فكانوا يتغنون به على النخيل وعند سقي المياه ويقولون في آخر
كل صوت - مع التزميم - يا مواليا ، إشارة إلى أسيادهم فغلب ذلك الاسم
عليه وعرف به .

وهو يشارك الزجل في اللحن ، وإبدال بعض الحروف ببعضها . ويختص
دون الزجل بالامالة خصوصاً في حروف القافية ، كقولهم :

أي من سرد الهوى يلعب على فيرد
ومن جعلني مثل للشيرد والويرد
مو أقدر أصبر على شيطانك الميرد
ولا يمكن غضب خيره جرد بيرد
فالقافية هنا مماله الألف في (فيرد والويرد والميرد ويرد) وأصلها (فارد والوارد
والمارد وبارد) .

وقد أورد الصفي في كتابه العاقل الحالي من موالياته (واحدأ وعشرين
صوتاً) ، جعلها ثلاثة أقسام :
الأول في الجزل القوي ، وسار فيه سيرة المتقدمين قبل أن يلفظه أهل
بغداد ، وله في هذا النوع سبعة أصوات واحد في الحماسة وستة في المدح .
قال في الحماسة .

إن اقمم النقع كنا الضاربين الهام
وإن أفاضوا الحجى كنا ذوي الأفهام
وما برحنا بارث الفضل والالهام
تطوى الخناصر لنا أو بعقد الابهام

وفي المدح :

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت
والمخضب الأرض والأمواه قد غارت
هواطل النجب من كفيك قد غارت
والشهب من شهادت طلعتك قد غارت

أما القسم الثاني في الصناعات المشككة ، وهو ثلاثة أصوات ، منها صوت
فتح كل كلمة منه بحرف من حروف المعجم :

أي بدرتم ثقل جورك حصل خسري

دع ذلك ردً زمن سعدي شفا صدري
ضدي طمع ظن عجزي غار في قهري
كم لج مذ نلت وصلك هات لا يدري

والقسم الثالث في الرقيق على طريقة المتأخرين ، وهو أحد عشر صوتاً في الغزل .
والتهنئة والعتاب والهجاء : قال في الغزل :

قالت وقد طاوعت أسري وزال الغدر
ووجهها في الدجى خجل لنور البدر
ما ريت ملاح مثلك حاز هذا القدر
تجذف بجنّ سفينة وأنت فوق الصدر

وقد أدخل الصفي موالياته من الأعراب ، لكنه ميزه بسهولة اللفظ ورقته ،
واتبع كل الشروط اللازمة في هذا الفن كما وضعها مخترعوه ، فالصوت
يتكون من بيتين وله أربع قواف على روي واحد ، وقد جعله كله في بحر
البسيط ، إلى غير ذلك من مميزات مما أوجبه المتقدمون .

٥ - الكان وكان :

لهذا الفن وزن واحد وقافية واحدة ، غير أن الشطر الأول من كل بيت
يكون أطول من الشطر الثاني . ويجب أن تكون قافيته قبل حرف الروي
بأحد حروف العلة دائماً .

اخترع هذا الفن البغداديون ، وانتشر إلى سائر البلاد فتداوله الناس
ولكنهم لم يبلغوا به مبلغ البغداديين . وسمي بهذا الاسم لأن من اخترعوه
كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات والمراجعات ، فكان قائله يحكي ما
كان وكان ، ولفظة (قال) . لذلك قيل له الكان وكان ، إلى أن كثر واتسع

طريق النظم فيه وظهر مثل الشيخ (جمال الدين بن الجوزي) و (شمس الدين ابن الواعظ) وغيرهم فنظموا فيه المواعظ والزهديات والأمثال والحكم وتداولها الناس ، وظل يسمى بهذا الاسم .

وللصفي في هذا الفن عشر قصائد ، خمس في الغزل وواحدة في تقييد عدد قرى الوصل وما جاورها وذكر أسمائها منها :

من كان من (باعشيقا) و (باخذ يدا) تمجبو
يحتاج إلى (بادني) تايببلغ الآمال
وإن قصد (باطناي) أو صوب (باتلي) طلب
بصر على (برطلي) ويبذل الأموال

.....

وأما الغزليات فيحكي في واحدة منها قصة تصور فساد المجتمع وتدهور الأخلاق في عصره ، إذ يصور طريقة النساء الساقطات في الاحتيال على الرجال لاصطيادهم وابتزاز أموالهم يقول فيها :

جازت فقلت إن رتني لا بد أن تلعب معي
ذي لعبها وعبثها أنا أعرفو إسراف
من أبهرتني تهيت وحركت لي رأسها
مثقلة مشيتها وهزت الأعطاف
قلت صباحاً مبارك قالت علي من تكلمو
قلت : إن سمع ما أقلو قالت : ولا انخاف

.....

ويتغزل في قصيدة بغلام لعب معه الشطرنج وكان الغلام يفتشه في اللعب وينالطه حتى غلبه :

أي من لعب بقلبي بحكم شطرنج الهوى
وغرني وغلبنى بكثرة الزغلات

والله قوى أي يبدق غلبت فرزين الرفع
ولو علمت حسبت لك حسابات
جعلت حظي الأسود وتمت بابيضك النقي بزغلك
وإن عدلتك ثقل لي السود للسادات

.....

وهناك غزليه من الفراقيات يصف فيها فراق الحبيب وبين أثر هجره وما يقاسيه
من حزن وألم فيقول :

أي سادة هجروني وهم نزول بخاطري
لا أوحش الله منكم في سائر الأوقات
أوحشتم العين مني وإنكم في خاطري
فالقلب في النور منكم والعين في الظلمات

.....

وقد اخترع الصفي نوعاً جديداً في هذا الفن لم يسبق إليه ، فقد جمع عشرين
بيتاً مختلفة الأغراض متفقه القوافي والأوزان مجهولة القائل ، ونظم هو عشرين
بيتاً في قافيتها ووزنها مكلمة لها في المعنى فكانت قصيدة كاملة :

أي من يسرو سخطي وكل أحد راضي منو
وتستريح بو الخلاق وأنا معو تعبان
(الخلق ومن خلق الله تصفك عندي بالكرم
ما أدري الزمان تغير أم شوم حظي كان)
أيش أقدر أصحل بحظي وأيش ينفعني الحسد
يعطي الدليل النائم ويحرم اليقظان
(ما هو بحمد الصوارم ولا بمشتبك القنا
هذي هدايا تهدي لمن يشا الرحمن)

.....

ونلاحظ أن لغته في هذه القصائد سهلة رقيقة ، قريبة من الفصحى . وأن معاني هذه القطع معظمها من المعاني السامية مثل :

لم يبق غير خيالي يلوح كالشبح الخفي
أعد بين الأحياء وأنا من الأموات
ودعتموني وسرتم والقلب يتبع ركبكم
أيش كان لو كان جسمي من جملة التبعات
ما مر ما ريت ضدي يقول لي من فرحتو
هنا تشق المرائر وتسكب العبرات
لو لم أسلي نفسي وأروض نفسي بالمني
لكان قلبي تقطع من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم حيران بين أضعانكم
أخفض جناح المذلة وأرفع الأصوات
ما أطول ليالي جفاكم ساعاتها مثل السنة
وما أقصر أيام وصلي كأنها ساعات
مالي أرى حسناني بالسيئات تبدلت
وسيئات الأعداي تبدلت حسنات
نسكت ونصبر عنكم ويفعل الله ما يشا
فأدهر من عاداتو يقلب الحالات

٦ - القوما :

اخترع هذا الفن البغداديون ، وقيل أن أول من اخترعه (ابن نقطة)
برسم الخليفة الناصر العباسي لكنه - في الحقيقة - وجد قبل ابن نقطة .

وكان الناصر يعجب به فيطلب من ابن نقطة أن يتغنى به كثيراً ، ولهذا
اشتهر باسمه .

ولهذا الفن صورتان ، الأولى ما يتركب بيته من أربعة أفعال ، ثلاثة
منها متساوية في الوزن والقافية ، والآخرة - وهو القفل الثالث - أطول منها
ويكون مهمل القافية . مثل :

لا زال سعدك جديد	دايم وجسدك سعيد
ولا برحت مهنا	بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيد
فاخلق شعرا منقح	وأنت بيت القصيد
.....

نجد أن القافية في البيت الأول في الأجزاء الثلاثة ، الأول والثاني والرابع
هي (جديد ، سعيد ، عيد) متساوية مع ما يناظرها من قوافي البيت الثاني
وهي (الفريد ، وحيد ، القصيد) بينما تختلف عنها قافية الجزء الثالث في كل
من هذين البيتين ، وهي (مهنا) في البيت الأول و (منقح) في البيت الثاني .
وأما الصورة الثانية فهي مركبة من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة
القافية القفل الأول أقصر من الثاني ، والقفل الثاني أقصر من الثالث ، من
ذلك قول صفي الدين :

صرتم حكيه شرحها ينقل إلي أنتم هتكم عرضكم فأنا اش علي
أنا اش علي صونكم ما هو إلي موروا علوايش ردتهم خرجتم من يدي

فترى في هذين البيتين أن القفل الأول - وهو صرتم حكيه - أقصر من القفل
الثاني - وهو شرحها ينقل إلي - وهو بدوره أقصر من القفل الثالث وهو
أنتم هتكم عرضكم فأنا اش علي - وترى كذلك أن القوافي في الأفعال
الثلاثة متساوية وهي في البيت الأول (حكيه ، إليه ، علي) وهي متفقة

أيضاً مع قوافي البيت الثاني وهي (على ، إليّ ، يدي) .
وقد سمي هذا الفن باسم (القوما) لأنه كان يرتل في شهر رمضان عند
السحور فيقول المتغني به في نهاية كل بيت : « قوما للسحور » يفبه رب
المنزل ، فبقي هذا الاسم .

وكانت معانيه : المدح والدعاء ومقاضاة الانعام ، ثم بعد أن شاع وكثر
نظموا به في الغزل والزهد والعتاب وسائر أغراض الشعر الأخرى .
وكل بيت من أبيات القصيدة ، في هذا الفن ، قائم بذاته ولذا يجوز
تكرير القوافي في بيتين من القصيدة الواحدة دون أن يكون في ذلك
أي عيب .

* * *

وللصفي خمس قصائد في هذا الفن ، اثنان من الصورة الأولى ، ذات
الأفعال الأربعة المتساوية الوزن . يقول في واحدة :

لا زال سمعدك جديك	دايم وجدك سميد
ولا برحت مهنا	بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيد
فأخلق شعر منقح	وأنت بيت القصيد
يا من جناو شديد	ولطف رايو سديد
ومن يلاقي الشدايد	بقلب مثل الحديد
.....

وثلاثة من هذه القصائد في الصورة الثانية ذات الأفعال الثلاثة غير المتساوية ،
منها هذه القصيدة :

كنا مآلك دون إخوانك وآلك	سلبتنا الله يجعلو أول سؤالك
رامواقتالك والأذى منهم أتى لك	وما نفع عنا انحرافك وانفتالك
.....

واثنان من هذه القصائد في المدح ونظمها للسحور في شهر رمضان ، وهذا هو الغرض الذي اخترع من أجله هذا الفن - القوما - والثلاثة الباقية في الغزل. ونلاحظ أن الصني اتبع كل شروط هذا الفن التي وضعها المتقدمون من الشعراء ومخترعي القوما . حتى تكرار القافية الواحدة في بيتين من القصيدة ، كقوله :

لا زال قدرك مجيد	وظل جودك مديد
ولا برحت موقى	كما توقى الوليد
لا زلت في كل عيد	تحظى بمجد سعيد
عمرك طويل وقدرك	وافر وظلك مديد

فقد كرر في هذين البيتين كلمة مديد ، وليس بينهما إلا بيت واحد .



الفصل الخامس

منزلة في الشعر العربي

وأشده من شعري لهم كل جزلة تحلى بها أممهم وتشنف
قصائد في ألفاظهن مقاصد من الصخر أقوى بل من الماء لطف
إذا رام أهل مصر نظماً لمثلها وجاءوا بلفظ دونها وتكلفوا
ظننت جبال السحر ما قد أتوا به وتلك عصا موسى لها تنلقف

١ - تقليد:

يبدأ الفنان أو الأديب حياته بالتقليد ، فليس لديه من المواهب ما يستطيع أن يكمل عمله الفني ، ومواهبه لا تزال في دور التكوّن ، وفنه محتاج إلى إخراج وصقل وتهذيب . ووسائل الأداء والتعبير لا تزال ساذجة عنده ، فهو لا يستطيع أن يقوى للوقوف على قدميه ، لذلك يضطر إلى البحث حوله ليجد ما يستعين به على الوقوف والسير ، كالطفل الذي يبدأ تعلم المشي متوكئاً على كل ما يصادفه أمامه ، سواء بسواء . فالشاعر يستعين بالمتقدمين من الشعراء ، يقرأ دواوينهم ويحفظ أشعارهم ، ويستوعب معانيهم ، ونطبع صورهم وتمايزهم في مخيلته فيكون ثروة من المعاني والصور ، ونصيماً من الألفاظ والتعابير ، فيخصب خياله ، ويرهف حسه ، ويقوى تفكيره ، ويمكنه أن يسير شيئاً فشيئاً في التجويد ، ويرتقي سلم المجد قليلاً قليلاً . فإذا ما أحس أنه وصل إلى مكان يستطيع أن يظهر فيه بين الناس بمظهر لائق ، وصار في حال يمكنه أن يفخر فيه بما عنده ، يبحث عند ذلك عن شخصيته

وذاته ، ليعرف مواهبه وخصائصه ومميزاته ، فإذا تبين له ذلك تمسك به ولم يفارقه إلى الأبد .

وهذا ما سر به الصفي فعلاً ، فحين شب عن الطرق - على حد تعبيره - أصبح لهجاً بالشعر حفظاً ونظماً ، فكان يحفظ شعر الشعراء ويقرأ دواوينهم ويتأثر بهم ، بفنونهم وأساليبهم ومعانيهم وأخيلتهم ، ولكنه ، لا ريب ، كان يعيل إلى الشعراء الذين يجد بينه وبينه تجاوباً نفسياً واتصالاً عاطفياً ، فاختار شعراء كان يقرأ لهم أكثر من غيرهم أمثال : المتنبي وأبي تمام وأبي نواس وزهير والسموول وغيرهم . وقد ظهرت آثار هؤلاء الشعراء في شعره ، فضمن أبياتهم واقتبس معانيهم واستعمل ألفاظهم ، وصار يعتبرهم أساتذته - كل واحد في فنه - يضرب بهم الأمثال ، ويحتج بأرائهم عند اللزوم . وكان يرى أنهم الصفوة المختارة من الشعراء في الأدب العربي ، ويعتقد أن ما وصلوا إليه هو غاية الابداع ، و قمة الفن وذروة المجد ، لذلك كان على الأجيال المقبلة أن تسير سيرهم وتحذو حذوهم وتسلك سبيلهم ، فتقلدهم في كل ما وصلوا إليه ، وتحاكي كل ما قدموا إلى الشعر العربي من فنون أي أنه كان يدعو إلى المحافظة على عمود الشعر - كما يقول القدماء - فكان صفي الدين نفسه يحرص كل الحرص على أن يبقى فنون الشعر العربي على ما هي عليه دون نقص أو زيادة ، ولا أدل على ذلك من احتواء ديوانه لجميع هذه الفنون في شعره : الحماسة والمدح والثناء والتعازي والغزل والخرجات والوصف والطرديات والاعتذار والعتاب والشكر والاستعطاف والاخوانيات والهجاء وتقييد العلوم والفنون وغير ذلك . وكان يضطر إلى نظم بعض الأغراض لسكي لا يخلو ديوانه منها . وهناك الموشح والدوبيت ، وهناك الرجز بأنواعه والمواليب والساكن وكان والقوما . وظل يحافظ على ميزات الشعر العربي وخصائصه ، لم يحاول أن يفلت منها ، ولم يرد أن يتخلص من بعضها أو يغير فيها . فلقصيدة كما هي يلتزم فيها القافية الواحدة ، ويعتمد على وحدة البيت فيها ، ويحافظ على البداية ثم الدخول

مع حسن الانتقال ، ثم الخاتمة . فيبدأ هذه القصيدة بالغزل أو بذكر الخمر ، كما كان يفعل الشعراء المتقدمون وربما بدأها بوصف الطبيعة . . . وينتقل بعدها إلى غرضه من مدح أو شكر أو حماسة أو غير ذلك ، وربما ختمها بالفخر بشعره . وفعل ذلك أيضاً في الموشحات ، فلم يترك قوائنها وأصولها ، ولم يغير تقاعيلها وقوافيها وحتى « الخرجة الزجلية » لم يتركها . وهذا ما صنعه كذلك بالغنون الشعرية العامية من زجل ومواليا وغيره ، فقد سار سيرة أسلافه دون أن يحيد عنهم قيد شعرة .

ومن مظاهر تأثير الصفي بهؤلاء الشعراء المتقدمين وحبهم لهم و إعجابهم بشعرهم ، عنايته بقصائدهم حتى أن شعره امتلأ بشعرهم فضمن الكثير من أبياتهم في قوله :

أطاعن فرسان الكلام وتارة (أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر)
يضمن شطراً للمعتمدي من قوله :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبر^(١)
وهو في قوله :

فكن قائلاً قول السهول تائهاً بنفسك عجباً وهو منك قليل
(ونسكرك إن شئنا على الناس قوهم ولا ينكرون القول حين نقول)
يضمن بيتاً من حماسة السهول ، ويشير إلى ذلك في بيته الأول . ويقتبس الكثير من معاني هؤلاء الشعراء وأضرابهم أو يشير إليها ، فقوله :

مثل أهل الجحيم إن تذهب لنا ر جلوداً تبدلوا بجلود
مقتبس من بيت أبي نواس الذي أخذ معناه من القرآن الكريم وهو :
كأهل النار إن فضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود^(٢)
وهو حين يقول :

(١) ديوان المتنبي ج ١ ص ١٤٩

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٧٤

وقضية صمت القضاء ترفماً عن فصلها والخصم فيها يحكم
لا شك أنه استعان بمعنى بيت المتنبي الذي قاله لسيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم^(١)
ولا ريب أن بيته هذا :

أهلاً بشهب في سماء المجلس هتكت أشعتها حجاب الخندس
مقتبس من بيت ابن المعتز :

انظر إلى حسن هلال بدا بهتك من أنواره الخندسا^(٢)

وقد شطر بعض قصائد هؤلاء الشعراء كملقة امرئ القيس المشهورة ، إذ
شطر منها أبياتاً يشكو بها إلى (الملك المنصور) أحد نوابه حين ربط عنده
فرسه فأهمله فبات بغير علق فقال :

رأى فرسي إصطبل موسى فقال لي (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل)
به لم أذق طعم الشعر كآني (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)
تقمقع من برد الشتاء أضالعي (لما نسجتها من جنوب وشمأل)

.....

فالصدور في هذه القصيدة للصفي والأعجاز لامرئ القيس . وهذا ، دون
أدنى ريب ، يبين لنا تعلقه بالشعر القديم أولاً ، واعتماده عليه ثانياً . فهو
يستعين بهذه الأعجاز على التخلص من القافية وإكمال الوزن ، وهو يوفر
بهذا نصف مجهوده الذي يبذله في القصيدة أو أكثر من ذلك ، كما أنه شطر
مقصورة (ابن دريد) المشهورة بطريقة جديدة تعتبر من مبتكراته ..

وخمس الصفي كثيراً من قصائد المتقدمين المشهورة وأبياتهم ، فخمس حماسة
السموول اللامية ، وخمس أبيات قطري بن الفجاءة المينية في الحماسة وخمس
نونية ابن زيدون وأبيات ابن زبلاق النونية في الغزل ، وخمس رباعية الشيخ

(١) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٢٦٦

(٢) ديوان ابن المعتز ص ١٢٢

مدرك الشيباني التي يتغزل فيها بصبي نصراني . ولا يخفى ما يكسبه في هذا العمل من تدريب على صوغ الشعر واختيار القوافي ، وإكمال الأوزان والبحور ، وتحسين الصور ، إلى غير ذلك مما يستفيد منه حين يخمس أمثال هذه القصائد . ولكن ، هناك ما هو أهم من هذا وذاك ، فهناك فن المعارضة ، فالشاعر حين يريد نظم قصيدة في موضوع ما ، يختار قصيدة من القصائد المشهورة ، تناسب غرضه وتلائم مطلبه ، وينظم على وزنها وقافيتها وفي موضوعها ويقتبس منها الكثير من المعاني والأخيلة والصور ، ويتضمن الكثير منها من القوافي والألفاظ . ولا يخفى ما في هذا العمل من التقليد والمحاكاة والاستماعة بكل ما في القصيدة من مميزات ومحاسن ، وجودة وقوة ، والتخلص مما قد يكون فيها من مظاهر الضعف أو عدم الاتقان .
ومما طرأ الصني ثلاث قصائد مشهورة ، الأولى للمتني ، والثانية لأبي تمام ، والثالثة لابن المعتز .



أما قصيدة المتني فهي بائيته التي مدح بها (علي بن منصور الحاجب) التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات^(١) من الحرير جلابيا^(١)
فحين جاء الصني إلى مصر ، ودخل بلاط الملك الناصر (محمد بن قلاوون) وأراد مدحه لما لقيه من الحفاوة والتكريم تذكر المتني وشعره في مصر فرت بخاطره هذه القصيدة ، وتأملها جيداً - بمد أن استعرض معانيها في مخيلته - قرأها خير ما يحكي حاله ، وأحسن ما يعبر عن إحساسه ، فعارضها بقصيدة مطلعها :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا

(١) ديوان المتني ج ١ ص ١٢٢

والصفي يبدأ قصيدته هذه بالغزل ، كما فعل المتنبي ، ويستمر في غزله
هذا إلى ما يقرب من رابع القصيدة :

وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرت فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغبي كواعبا ولو استبان الرشد قال كوا كبا
سفن رأي المانوية عندما أسبلن من ظلم الشعور غياها
وسفرن لي فرأين شخصاً حاضراً شدهت بصيرته وقلبا غائبا
أشرقن في حلال كأن وميضها شفق تدرعه الشمس جلايبا

فالمعاني مستمدة من منبع واحد ، والصور متشابهة عند الشعارين ، فوصف
الفتيات وجماهن ، وشعرهن ، وملابسهن . . « فأجاد (صفي الدين) كثيراً ،
إذ جعل هذه الملابس شفقاً . وهو لون بهي بالعيون والقلوب . أما المتنبي
فلم يزد على أن قال إن هذه الملابس من الحرير »^(١) . وقد وصف الشاعران
دلال المحبوب ولكن المتنبي اكتفى في ذلك بقوله : « المبديات من الدلال
غرائباً » أما الحلبي فإنه صاغ ذلك المعنى في بيتين^(٢) :

حلو التمتع والدلال يروعه غني ولست أراه إلا طاببا
طابته فتضرجت وجناته وازور الحاظاً وقطب حاجبا
ثم ينتقل إلى المديح انتقالاتاً جميلاً إذ يقول :

ذو مظهر تغدو القلوب لحسنه نهياً وإن منح العيون مواهبها
لا بدع إن وهب النواظر حظوة من نوره ودعاه قلبي ناها
فواهب السلطان قد كمت الوري نعماً وتدعوه القساور سالب

ولا شك أن هذا الانتقال الذي لا يفاجيء السامع ولا يستغزه من مستلزمات
الشعر الجيد ، شعر الفحول . وقد انتقل المتنبي - من قبل - إلى المدح بتمهيد
جميل أيضاً .

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٣ ص ٢٦٢

(٢) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٦٢

ويدخل الصفي في المدبح ، كما يدخل المتغي ، فيقول في الناصر :
الناصر الملك الذي خضعت له صيد الملوك مشارقاً ومقاربا
ملك يرى نمب السكارم راحة وبمسد راحات القراع متاعبا
.....

وهكذا يستمر في اسباغ أكرم الصفات وأعظم الفضائل عليه . . ثم يفتقل إلى
وصفه بالشجاعة ويفصل ذلك تفصيلاً :

كاليث يحمي غابه بزئيره طوراً وينشب في القنيص مخالبا
كالسيف يبدي للنواظر منظراً طلقاً ويمضي في الهياج مضاربا
ويخرج من هذا الوصف إلى الحماسة ويطيل فيها إذ تبلغ ستة عشر بيتاً :
أبقى (قلاوون) الفخار لولده إرنأ وحازوا بالثناء مكاسبها
قوم إذا سئمو الصوافن صيروا للمجد أخطار الأمور مرا كبا
عشقوا الحروب تيمناً بالقي العدا فكأتمهم حسبوا العدا حبايبا

ويستمر في مثل هذا حتى يفتقل إلى وصف القتال والجلاد في المعارك التي
يقودها الناصر في سبيل الاسلام فيفرق جموع المارقين :

صرمت شمل المارقين بصارم تبديسه مسلوباً فيرجع سالبا
تطأ الصدور من الصدور كأنما تمتاض من وطه التراب ترائبا
ويسير في ذلك الوصف الرائع حتى يفتقل إلى وصف كرم الملك الناصر :
إن يحرس الناس النضار بحاجب كان السماح لعين مالك حاجبا
لم يملأوا فيسك البيوت غرائبها إلا وقد ملأوا البيوت رغائبها
ثم يختتم القصيدة بالثناء عليه قائلاً :

فطفقت أملاً من ثنائك ونشره عقداً وأملاً من نذاك حقايبا
أنتي فتثنيني صفاتك مظهرأ عيباً وكم أعيت صفاتك خاطبا
لو أن أعضانا جميعاً ألسن تثنى عليك لما قضين الواجبا

ونلاحظ هنا حسن التنسيق في قصيدة صفي الدين ، فهو لا يفتقل من غرضه

إلى غرض حتى يشبع غرضه فلا يمود اليه من جديد ، وينتقل بين أغراضه بتدرج جميل وتسلسل بديع ، فن الغزل إلى المدح بالشجاعة إلى الحماسة إلى وصف القتال وهكذا حتى يختتم القصيدة . وأما المتنبي فنراه يمدح دون نظام ولا تفسيق ، فيمدح بالشجاعة :

ملك سنان قناته وبنانه يتباريان دماً وعرفاً ساكبا
يستصفر الخطر الكبير لوفده ويظن دجلة ليس تكفي شاربا
ثم ينتقل إلى وصف ممدوحه بالكرم :
كرماً فلو حدثته عن نفسه بعظيم ما صنعت لظنك كاذبا
ثم يمود للشجاعة من جديد :

سل عن شجاعته وزره مسالماً وحذار ثم حذار منه محاربا
وبعد ذلك يرجع إلى الكرم من جديد ، وهكذا نرى عنده عدة انتقالات .
ويختتم قصيدته بالثناء قائلاً :

خذ من ثنائي عليك ما أسطيعه لا تلمني في الثناء الواجبا
فلقد دهشت لما فعلت ودونه ما يدهش الملك الحفيظ الكاتببا
وإلى كل ذلك نجد أن الصفي أطول نفساً من المتنبي فقصيدته الصفي بلغت (واحداً وستين بيتاً) في حين أن قصيدة المتنبي بلغت (أربعين بيتاً) فقط .
وقد قلد الصفي المتنبي في البداية والخاتمة ، فالغائمتان غزل والغائمتان ثناء ، والمعنى في الغائمتين يكاد يكون واحداً .

واتبع صفي الدين أبا الطيب حتى في مواضع التصريح في قصيدته ، فهو عند المتنبي في المطلع وفي أوائل القصيدة في قوله :

حاولن تفديتي وخفن مراقبا فوضعن أيديهن فوق ترابها
وكذلك في أواخرها في قوله :

لميك غيظ الحاسدين الرابيا إنا لنخبر من يدك عجائبها
فكان التصريح عند الصفي في المطلع أيضاً وفي أوائل القصيدة في قوله :

بيض دطامن الغيُّ كواعبا ولو استبان الرشد قال كوا كبا
وفي أواخرها في بيته :

لم بملأوا فيك البيوت غرائباً إلا وقد ملأوا البيوت رغائباً
ووجدنا المتنبّي يبدأ عدة أبيات متتالية من قصيدته بالتشبيه بالكاف :

كالبدر من حيث التفت رأيتَه يهدي إلى عيفيك نوراً ثاقباً
كالبحر يقذف للقريب جواهرأ جوداً ويبعث البعيد سحائباً
كالشمس

فلم يفت الصفي ذلك فقال :

كالغيث يبعث من عطاءه وابلأ سبطاً ويرسل من سطاءه حاصباً
كالليث يحمي غابه بزئيره طوراً وينشب في القنيس مخالباً
كالسيف

ولا يخفى أن الصفي استفاد كثيراً من معاني المتنبّي وألفاظه وقوافيه في
قصيدته هذه . وإن كان الاستاذ محمود مصطفي يرى « أن معاني الحلبي أكثر
كما أن أسلوبه رصين . . وأسلوبه وإشارته دقيقة غير ممعنة في الغرابة ... » (١)

أما قصيدة أبي تمام فهي الرائية التي رثى بها (محمد بن حميد الطوسي)
التي مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمرُ فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ (٢)
وهي من أجمل مرثي الطائي وأصدقها عاطفة . ومن المرثي المشهورة في الأدب
العربي . وحين توفي (الملك الناصر) وجد الصفي أن هذه القصيدة تستطيع
أن تعبر عن حزنه وألمه فعارضها بقصيدته التي مطلعها :

وفى لي فيك الدمع إذ خانني الصبرُ وأنجد فيك النظم إذ خذل النثرُ

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) ديوان أبي تمام ص ٣٦٨ .

ويعضي الصفي في تصوير الفاجعة وما خيم على الناس إزاءها من حزن ، ويصور
كيف سادهم الأسمى بل لقد أظلمت كل الأقطار الاسلامية :

فان أظلمت أرض الشام لحزنه فلم يخل من ذلك الصعيد ولا مصر
ويفتقل الصفي بعد هذا إلى ذكر صفات الفقيده الفاضلة وخلقه الكريم ، فيصفه
بالشجاعة في شعر حماسي جميل :

ولم يفتن عنه الجأش والجيش واليهى وفرط النهى والحكم والنهي والأمر
ولا الخيل تجري بين آذانها القنا لحرب العدى والدم من دمهم حجر
لدى معرك خاضت به الخيل في الوغى من الدم فيما خاضت البيض والسمر
ويطيل في هذا وفي وصف الفقيده بكل بر وتق حتى ينتهي إلى وصف كرمه :

كأن أديم الأرض قد من اسمه فما وجدت إلا وفيها له ذكر
وما كان يدري من تيمم جوده ونكب لج البحر أنها البحر
ويعضي في التقني بهذا الكرم بمعاني طريفة وصور رائعة ثم لا ينسى أن يذكر
أن القدر محتم وأن الموت لا بد منه :

وكيف يرد الطبُّ أمراً مقدرأ إذا كان ذلك الأمر ممن له الأمر
والفقيده لم يمتم ، لما خلف من ذكر طيب وأخلاف كأنهم الأنجم الزهر :
وإن لنا من بعده من سليله مليكاً به عن فقده يحسن الصبر
فان غاب ذلك البدر عن أفق ملسكه فقد أشرقت من نجله أنجم زهر
ويختتم القصيدة بالبكاء عليه والترحم له :

سأ بكبك بالأشعار حتى إذا وهت سلوك عقود النظم أنجدني النثر
عليك سلام الله ما ذكر اسمك وذلك بين الناس آخره الحشر

وإذا رجعنا إلى أبي تمام وجدناه يفتقل ، بعد تصوير الحزن وكبر الفاجعة
إلى ذكر محامد الفقيده فيصفه بالكرم في أبيات قلائل :

وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أسمى وليس له ذخ

ثم يصفه بالشجاعة في شعر حماسي رائع ، ولا جرم فرثيه مات شهيداً في معركة للدفاع عن الاسلام :

فتى مات بين الطمن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيده من الضرب واعتلت عليه القنا السم
وينتقل بمد ذلك إلى ذكر غدر الأيام ومساءات الدهر :

لئن أبغض الدهر الخوون لفقده لمهدي به ممن يجب له الدهر
لئن غدرت في الروع أيامه به فما زالت الأيام شيمتها الفسدر
ويختتم قصيدته بالتسليم عليه :

عليك سلام الله وقفاً فأنني رأيت الكريم الحر ليس له ضمير
فالقصيدتان من نفس الدرجة في الجودة ، في جزالة الشعر ودقة التعبير وصدق
العاطفة ، فكل منهما يرثي انساناً تصله به عاطفة الحب ، وكل منهما يحس نحو
فقيده إحساساً صادقاً بالفقد فيجزع لذلك ، ويحزن ويتألم ولا يجد ما يعبر به
إلا شعره فيرثيه أعظم رثاء .

ويظهر لنا أن نفس الصفي أطول من نفس أبي تمام ، ففي حين كانت قصيدة
الصفي (خمسة وخمسين بيتاً) كانت قصيدة أبي تمام (واحداً وثلاثين بيتاً) .
ولكن مما لا شك فيه أن الصفي تأثر بمرثية أبي تمام وأعاد منها وإلا لما عارضها
وقد ظهر تأثره بمظاهر عديدة ، فالمعاني التي يطرقها واحدة ، وفي القصيدتين
حماسة كثيرة ، ووصف الاثنان الدهر ومصائبه والدنيا وأقدارها ، واختتم
الشاعران قصيدتيهما بالسلام على الفقيد . وكرر أبو تمام كلمة « فتى » في بداية
خمسة أبيات :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطروفي جوده شطر
فتى

فلم يفت ذلك صفي الدين وكررها في أول سبعة أبيات :

فتي كان مثل الدهر بطشا وبسطة يرجي ويخشى عنده النفع والضر
فتي طبق الأرض البسيطة جوده فني كل قطر من نداء بها قطر
فتي
وهكذا كان يعارضه ويحجري على نمطه في المعاني وفي الصياغة وطريقة التعبير
ولا ريب في أن الفضل لأبي تمام ، فهو السابق لا من حيث الزمن فحسب
ولكن من حيث الابداع الفني أيضاً .
* * *

وأما قصيدة ابن المعتز فهي القصيدة التي يهجو بها آل البيت ومطلما :
ألا من لعين وتسكابها تشكي الأذى وبكاهها^(١)
وليست معارضة الصفي لها معارضة الاعجاب وإنما معارضة رد ومناقضة ، فقد
طلب نقيب الأشراف بالعراق ، (تاج الدين الآوي) ، من صفي الدين أن
يرد على ابن المعتز ويفند مزاعمه فقال الصفي ارتجالاً في مجلسه :

ألا قل لشر عبيد الآله وطاغي قريش وكذابها
وباغي العباد وباغي العناد وهاجي الكرام ومغتابها
أأنت تفاخر آل النبي وتمجدها أفضل أحسابها
وقصيدة ابن المعتز ضعيفة وتضم بعض أفكاراً يناقض بعضها بعضاً . وعدتها
أربعون بيتاً أكثر من عشرين منها في معاني طائفة ، يدور فيها حول
الموضوع ولا يدخل صميمه . ولا يحس بذلك إلا بعد أن يقطع نصف
الشوط فيقول :

نصحت بني رحمي لو وعوا نصيحة برّ بأنسائها
وقد ركبوا بغيهم وارتقوا بزلاء تردّي بركابها
فيظهر نفسه بمظهر النصيح الذي يريد الخير لأقاربه ، ولكنه سرعان ما يدلّ
بغطرسته ويزهو بمظاهر خداعه فيقول :

(١) ديوان ابن المعتز ص ٥٠ .

دعوا الأُسَد تفرس ثم اشبعوا بما تدع الأُسَد في ظاهبا
قتلنا أمية في دارها ونحن أحق بأسلابها
ثم يناقض ابن المعتز نفسه في ممتقده فيقول : إنهم ورثوا ثياب النبي ولا يجوز
أن يرثها العلويون ، في حين أن مذهبه لا يسمح بوراثمة الأنبياء . ويعترف
بأن للعلويين رحماً لكنه يقول إن العباسيين أحق بهذا الرحم لأنهم أبناء
عم النبي :

و نحن ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها ؟
لكم رحم يابني بقتله ولكن بنو أولى بها
ويدل على العلويين بأن أيام ثبت في (يوم حنين) حين تفرق عن النبي الناس
وظل يدافع عنه ، ونسي أن علياً كان معه في موقفه ذلك . ويختتم
قصيدته بقوله :

وأقسم أنكم تعلمون بأنا لها خير أربابها
وقد بدأ الصفي قصيدته بهجاء ابن المعتز ، لكنه جاء مع هجائه هذا بما يبين
له أن له أن العلويين خير منه ، فن خير المبالهة إلى نص القرآن بأن الله طهر
آل بيت الرسول :

بكم باهل المصطفى أم بهم فرد العداة بأوصابها
أعنكم نفي الرجز أم عنهم لظهر النفوس وألبابها
ويسير الصفي في حججه القوية واحدة تلو الأخرى ، دون غموض وابهام ،
ويرد على آراء ابن المعتز واحداً واحداً فيقول :

وقلت : ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها ؟
وعندك لا يورث الأنبياء فكيف حظيتم بأثوابها ؟
فكذبت نفسك في الحالتين ولم تعلم الشهد من صابها
فالصفي يجادل جدلاً منطقياً ، يأخذ المسألة ويقلبها على شتى الوجوه ، يقدم
لها المقدمات ويستنتج النتائج ، ويعطي بمد ذلك الحكم . يريه أنه كذب

نفسه في الحالتين إذ يدعى بوراة أنواب النبي في حين أن معتقده لا يسمح
بوراة الأنبياء ، وهذا تناقض في مسألة واحدة . ويذكره بأن جده
(ابن عباس) لا يرضى بهذا فقد كان مع الامام علي (ع) في خلافه مع
معاوية ، وقد حاول الامام أن يجعله أحد الحكيمين ، لكن أعداءه لم يرضوا
بذلك لأنهم يعرفون تقديره لابن عمه وأيمانه بأحقيقته في الخلافة ؟ وثقته
بأنه على حق في كل أعماله .

أجداك يرضى بما قلته وما كان يوماً يمتزجها
وكان (بصفين) من حزبهم لحرب الطفساء وأحزابها
وقد شتم الموت عن ساقه وكشرت الحرب عن نابها
فأقبل يدعو إلى حيدر بارغابها وبارهابها
وآثر أن ترتضيه الأنعام من الحكيمين لأسبابها
ليعطي الخلافة أهلاً لها فلم يرتضوه لا يجابها

وكان ابن عباس يصلي طول حياته مع الناس شأنه كشأن أي واحد منهم في
حين أن علياً كان إمام الناس يصلي في صدر المحراب ، فصلى ابن عباس خلفه :

وصلى مع الناس طول الحياة وحيدر في صدر محرابها
فهل تقمصها جدكم إذا كان إذ ذاك أحرى بها

ويعيد إليه قصة الشورى التي نظمها (عمر بن الخطاب) (رض) لاختيار خليفة
المسلمين فكان علي من الستة الذين اختارهم في حين لم يكن ابن عباس منهم :

وإذ جعل الأسماء شورى لهم فهل كان من بعض أربابها
أخامسهم كانت أم سادساً وقد جلبت بين خطابها

ويرد على ادعاء ابن المعتز أنهم أحق بها لأنهم أبناء عمه :

وقولك : أنتم بنو بنته ولكن بنو العم أولى بها
بنو البنت أيضاً بنو عمه وذلك أدنى لأنسابها

فيذكره أن بني البنت هؤلاء هم أيضاً بنو عم الرسول . وبذلك يكون نسبهم

إلى الرسول أقرب لأنهم يرتبطون به عن طريق البغت وطريق العم .
وبعد كل هذا يخرج بفتيجة هي أن الخلافة ليست من شأنه وقد تميمها
ساعة واحدة ثم طردوه منها شر طردة فليترك الكلام فيها :

فدع في الخلافة فصل الخلاف فليست ذلولاً لركابها
وما ساورتك سوى ساعة فاكنت أهلاً لأسبابها
وكيف يخصوك يوماً بها ولم تتأدب بآدابها
ويرد عليه حين يقول أنهم قتلوا أسود أمية بأن الذي صنع ذلك (أبو مسلم
الخراساني) الذي كان موالياً للعوليين . فيقول له :

وقلت : بأنكمم « القاتلون ... أسود أمية في غابها »
كذبت وأسرفت فيما ادعيت ولم تنه نفسك عن طابها
فكم حاولتها سراة لكم فردت على نكص أعقابها
ولولا سيوف (أبي مسلم) لعزت على جهد طلابها
وذلك عبداً لهم لا لكم رعى فيكم قرب أنسابها
فجازيموه بشر الجزاء لطفوى النفوس وإعجابها
ويقارن الصفي بعد كل هذا بين خلق العوليين العاملين العابدين الراكمين
الساجدين وبين خلق العباسيين اللاهين العاشين :

هم الزاهدون هم العابدون هم الساجدون بمحرابها
هم الصائمون هم القائمون هم العالمون بآدابها
هم قطب ملة دين الاله ودور الرحي حول أقطابها
ويختتم قصيدته بتقديم النصيح إلى ابن المعتز بترك هذه الأمور ، والاهتمام بما
هو فيه من اللهو بالغانيات والسكر ، وقول الشعر في تعاطي الخمر ووصف
مجلسها ومدح ترك العبادة والصلاة :

عليك بلهوك بالغانيات وخلل الممالي لأصحابها
ووصف العذار وذات الخمار ونعت العقار بألقابها

وشعرك في مدح ترك الصلاة وسمي السقاء بأكوابها
فذلك شأنك لا شأنهم وجري الجياد بأحسابها
فلاحظ من كل هذا أن قصيدة الصفي ، وإن كانت أبياتها بقدر أبيات قصيدة
ابن المعتز ، إلا أنها اشبعت الغرض ، فقد نحدث في صميم الموضوع ولم
يحم حوله .

وبالإضافة إلى هذا فهناك قصائد أخرى عارضها الصفي لكنها تأتي بعد
هذه القصائد في الأهمية . . فقد عارض (وصف واد) للشاعر (المنازي)
الذي يقول فيه :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاء مضاعف الغيث العميم
فقال الصفي في وصف وادٍ خصيب :
وواد تسكر الأرواح فيه وتحقق فيه أرواح النسيم
به الأطيوار قد قالت وقالت كلاماً شافياً داه الكلام
تسلسل في خمائله مياه يقدر أديمها قد الأديم
صروج للقلوب لها امتزاج كأن عيونها أيدي الكريم
كما نجد القصيدة الكافية من قصائد (درر المنحور في مدائح المنصور) على
وزن وقافية قصيدة (الشريف الرضي) المشهورة التي يقول فيها :
يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
وقد بدا الصفي قصيدته هذه بالغزل ، وقد زادت أبيات الغزل على خمسة عشر
بيتاً يقول فيها :

كفي القتال وفكي قيد أسراك كفاك ما فعلت بالناس عينك
كلت لحاظك مما قد فتكت بنا فن ترى في دم المشاق أفتاك ؟
ونجد أن الصفي قد أتاد من قصيدة (الشريف الرضي) لفظاً ومعنى .
ويجب ألا لا يفوتنا أن نشير إلى الموشحات الكثيرة التي عارضها الصفي
ونظم على غرارها من موشحات الشعراء الذين تقدموا عليه .

٢ - ابداعه :

لقد اختلف النقاد والكتاب في معنى الابداع ، فمنهم من رأى أنه هو أن يخلق الشاعر أو الفنان شيئاً من العدم ، فينتج أثراً لم يكن له وجود من قبل ، فهذه الكلمة مرادفة لكلمة الخلق . فالشاعر حين يحس إحساساً ما ، ويعبر عن هذا بقصيدة يبرزها إلى الوجود إنما يبدع خلقاً سوياً في عالم الأدب ، لم يكن موجوداً قبل لحظات . ومن قائل إنه إيجاد الفنان أو اختراعه شيئاً جديداً له مميزات جديدة وخصائص جديدة وكل شيء فيه جديد ، لم يكن يعرفه أحد قبل أن يوجد ، كأن يبتدع شاعر فناً من الفنون الشعرية لم يكن معروفاً من قبل ، كالذي اخترع فن الموشح ، أو فن الزجل . فهذا الفن جديد لم يكن قبل مخترعه معروفاً في الشعر العربي . ومنهم من قال : الابداع بمعنى الاجادة والانتقاء . . . فالشاعر يبدع في قصيدة يصف فيها الطبيعة عندما يكون وصفه دقيقاً صادقاً يعبر عما أحس به من مجالي الطبيعة وفتحتها ويصور لنا المنظر وكأنه أمامنا بألوانه وبهائه ورونقه وجماله وأنواره وظلاله ، فنعجب به وكأننا ننظر إليه . وهناك فريق من الفنانين يرى أن الابداع ليس معناها الخلق من العدم وإنما قد يكون الأثر الأدبي موجوداً من قبل لكن المبدع ينفت فيه الحياة فيجعله متحركاً حياً . وسواء أكان معنى الابداع هذا أو ذلك فقد هيأت الظروف لصفي الدين أن يبدع في الشعر فيخلد شعره رغم السنين ، وسيظل خالداً أبداً الأبدى .

فقد أبدع الصفي بالرغم من أن عصره لم يكن عصر إبداع ، بل لم يكن عصر شعر وأدب ، فهو عصر انحطت فيه كل مظاهر الحياة وتأخرت وتدهورت الحضارة الاسلامية وفسدت ، ومات الشعر وأصبح جسداً بغير روح ، ولم يعد له ذلك المجد القديم وتلك السطوة ، ولم يبق فيه ذلك الجمال وتلك البهجة ، ولم يكن هناك أحد ممن يشجبه وبراه ، وبجمي أبطاله من غائلات الزمن ،

فترك الشعراء الشعر ، وأهمل الأدباء الأدب وانشغلوا في خضم الحياة باحثين عن الرزق . فكيف يمكن أن يوجد من الشعراء من ينهض بالشعر ، ومن يجود به من يبدع ويخترع ؟

ومع هذا فقد وجد الصفي فأبدع وخلد ، وجد إذ ساعدته ظروف عديدة على أن يقف للتيار الجارف ويثبت للمصافة الهوجاء ، فظل محافظاً على بهاء الشعر وجماله ورونقه ورقته وجزالته وفصاحته ولعل من هذه الأسباب :

١ - ذلك التراث الأدبي العظيم الذي ورثه عن أجداده الطائيين من شعراء وأدباء أمثال : (حاتم الطائي) و (أبي تمام) و (البحتري) و (السنوسي) وغيرهم فكانت عنده موهبة كامنة في النفس وطبيعة شعرية سهلة مواتية .

٢ - تلك النهضة الأدبية التي كانت مزدهرة في الحلة يوم ولد فيها الصفي فشب في ظل دنيا معطرة بشذا الأدب فواحة بمرف العلم . فاستطاع أن يشبع رغبته الأدبية ويروي غليله ، فصقلت موهبته وتهذب طبعه .

٣ - وقد توفر له ما لم يتوفر لغيره من الشعراء من الغنى الوفير والحسب الطريف والنسب التليد ، فكان يرفل في مجبوحة من العيش وعز ونعيم لا يشغله شاغل في نهاره أو ليله من مشاغل الحياة الكثيرة فأهتم بشعره وفنه ومال بكليته إلى موهبته وإشباع رغبته .

٤ - وتلك الثقافة الواسعة التي تنقف بها ، نظرياً من الكتب الكثيرة التي قرأها ، وعملياً من رحلاته وسفراته وتنقلاته بين مختلف البلاد وجوسه خلال مختلف المجتمعات والطبقات والشعوب . ولهذا كان الصفي الشعلة التي نقلت الأدب إلى الأجيال التي جاءت بعده . وكان القبس الذي ظل يتلأأ في ذلك الظلام الدامس حتى أضاء الدنيا في العصور المتأخرة فهو ، وشعراء قلائل ، حافظوا على روح الشعر العربي ، واستطاعوا أن يخلصوه من الفناء المحقق والموت الأكيد . كل هذا ساعد الصفي على الابداع في الشعر بكل نواحي الابداع .

فقد أبدع لنا قصائد تعتبر من روائع الشعر وفرائد القصيد . فهذه قصيدته في الحماسة :

سلي الرياح العوالي عن معالينا واستشهدني البيض هل خاب الرجا فينا ؟
وسائلي العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر (عبيد الله) أيدينا
لما سعيينا فارقت عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد دنا الأطاخي كما كانوا يدينونا
بضم ما ربطناها مسومة إلا لنغزو بها من بات يغزونا
.....

هذه القصيدة ملأى بكل معنى جليل ، وفكر راق ، وخيال خصب ، وأسلوبها جزل قوي متدفق فياض .

وأما قصيدته التي يحرص بها (الملك الصالح) على التخلص من المغول فهي إنذار حربي ، لا شك في ذلك ، يستنهض الهمم ويحرض على الوثوب ويدفع الأمة كلها دفعا إلى قتال قوم اغتصبوها حقها وساموها الخسف ولكن هذا كله مشرب بالحكمة فالعاطفة عنده تتزاج مع العقل ، والحس لديه يتمازج مع الفكر ، فتأتي القصيدة ناضجة عقلاً وقلباً .. ففكرأ وعاطفة . يقول فيها :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلي من قدّم الحذرا
ومن أراد العلاء عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمتعه لا يجتني النفع من لم يحمل الضرا
لا يُبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا تتم النية إلا لمن صبرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا
.....

يا أيها الملك الباني لدولته ذكر أطوى ذكر أهل الأرض وانتشرا
كانت عداك لها دست فقد صدعت حصاة جدك ذاك المدست فأنكسرا
فاوقع إذا غدروا سوط العذاب بهم يظل يخشاك صرف الدهر إن غدرا

وارعب قلوب العدى تنصر بخذلهم إن النبي" بفضل الرب قد نصرنا
ولا تكدر بهم نفساً مطهرة فالبحر من يومه لا يعرف الكدرا
ظنوا تأنيك عن عجز وما علموا أن التأني فيهم يعقب الظفرا
وهذه مدائح الرسول جاء فيها بصفحة نثار ناصمة تدل دلالة واضحة على
إيمانه العميق ، وإجلاله الخالص للرسول ، وحبه لآل بيته الكرام . وهو
في كل هذه القصائد وغيرها كثيراً ما يبدع في التعمير عن شعوره أصدق تعبير ،
فيوجد شيئاً من العدم ، ويحيد في إيجاد هذا الأثر ويتقن صنمته ، ويبعثه
حيّاً يبلغ أسمى مكانة بين الآثار الأدبية الأخرى .

أما ما أبدعه من الفنون ولم يكن موجوداً ، بالرغم من حبه المحافظة على
الفنون القديمة في الشعر العربي ، فقد اخترع ما أضافه إلى سجل المخترعين من
الشعراء والأدباء . ولما كان مولماً بالصناعة أيما ولوع ، لانتشارها في عصره
والإتزام الشعراء إياها في شعرهم ونثرهم أبدع في اختراع الجنس المجنح ، فالجناس
التام في البلاغة يتكون من جناس كلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى ،
ولكن الصفي اخترع جناساً تتلاحق فيه ثلاث ألفاظ متشابهة ذات معانٍ
مختلفة . وقد نظم قصيدة مرصعة بهذا الجنس :

سل سلسل الريق لم لم يرو حر ظما بل بلبل القلب لما زاده ألما
قد قد قد حبيبي جبل مصطبري أن أن أن إن أجنتي جرماً فلا جرماً
مذ مل مل قلبي في تعتبه لو كف كفكف دمعا منه سال دما
.....

واخترع الصفي كذلك فناً في الموشح سماه (الموشح المضمن) ، وهو أن ينظم
موشحة بضمونها قصيدة لأحد الشعراء المتقدمين ، كما ضمن غزلية أبي نواس
البائية في موشحته :

وحق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى

وما كنت أرجو وصل من قتلي نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى
ليس في الهوى عجبٌ إن أصابني النصبُ
« حامل الهوى تعبٌ يستخفه الطربُ »

ومن أطرف مبتكرات الصفي في هذا الباب ما سماه : (تضمين البيت)
وهو تضمينه لمقصورة ابن دريد المشهورة - هو أبو بكر محمد بن الحسن بن
دريد الأزدي - التي يقول في مطلعها :

يا ظبيسة أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا
أما ترى رأسي حاكي لونه طرة صبح تحت أذيال الدجي
(١)

فقد نظم الصفي قصيدة يشكر بها إتمام ولدي (الملك المنصور نجم الدين غازي
ابن ارتق) وهما : (ناصر الدين محمد) و (عماد الدين علي) إذ قدما له جواداً
أصيلاً ، فجعل نصف أبيات هذه القصيدة من مقصورة ابن دريد هذه .
وبالرغم من أن قصيدة الصفي مقصورة أيضاً إلا أنه لم ينظمها على نفس وزن
قصيدة ابن دريد التي نظمها في تام الرجز أي « مستفعلن مستفعلن مستفعلن »
فقد نظم الصفي قصيدته في مجزوء الرجز « مستفعلن مستفعلن » ومع هذا فإن
الصفي استطاع أن يختار أبياتاً لابن دريد تتوفر فيها القافية التي يحتاجها بعد
حذف ما يزيد عن الوزن الذي تتطلبه قصيدته فكان يأخذ ثلثي بيت ابن دريد
ثم يأتي ببيته هو ، ثم يردفه بثلثي بيت آخر لابن دريد ، ثم يجيء ببيت له
وهكذا . . . حتى كانت القصيدة ثلاثة وثلاثين بيتاً (٣٣) سبعة عشر منها
لابن دريد ، وستة عشر للصفي ، وهي على النحو التالي :

برق المشيب قد أضأ بعارض مثل الأضا
يشبه اشتعاله « بالنار في جزل الغضا » (٢)

(١) شرح مقصورة ابن دريد ص ٤

(٢) كل ما بين هذه الأقواس « من شعر ابن دريد

« واتخذ التسبيد عيني مألفاً لما جفا »
« وكنت ذا بأس فذ عاندي صرف القضا »
« رضيت قسراً وعلى القمر رضى من كان ذا »
« لي أسوة (بن الزبير) إذ أبي حمل الأذى »
« و (ابن الأشج) القيل ساق نفسه إلى الردى »
« وهكذا جد أبو الخير لادراك المنى »
« وقد سما قبلي (يزيد) طالباً شأو العلى »
« وقد رمى (عمرو) بهم كيده قلب المدى »

.....

وقد اختتم القصيدة بيتين من شعر ابن دريد :

« فان أعش صاحبته دهري عالماً بما انطوى »

« وإن أمت فشكل شيء بلغ الحد انتهى »

وهناك ما هو أطرف من هذا ، فقد أرسل الصفي قصيدة لأحد أصدقائه يذكره فيها بالوقائع التي قدم فيها الصفي له النجدة ، وهو اليوم في حاجة إلى نجده فلا ينجده . ولم ينظم الصفي من هذه القصيدة سوى صدر المطلع وصدر الختام ، أما بقية الأبيات فليست من شعره ، فقد عمد إلى عشرين بيتاً من لامية المعجم للطفرائي - وهو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد ابن عبد الصمد المتوفي سنة ٥١٥ - التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفضل زانتي لدى المعطل^(١)

فأخذ أعجازها وخرج لها عشرين صدرأ اختارها من أعجاز قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة الحمداني ، والتي أولها :

واحر قلباه بمن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

مالي أكتم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأعم^(٢)

(١) ديوان الطفرائي ص ٥٤ (٢) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٣٦٢

« وقد ناسب الصفي بينهما مناسبة عجيبة توافق غرضه ، فجاءت وكأنه نظمها بنفسه في هذه المناسبة »^(١) استمع إليه يقول :

قل للخلي الذي قد نام عن سهري	(ومن بجسمي وحالي عنده سقم) ^(٢)
« تنام عيني وعين النجم ساهرة » ^(٣)	(واحرق قلباه بمن قلبه شيم)
« فالحب حيث العدى والأسد رابضة »	(فليت أنا بقدر الحب نقسم)
« فهل تعين على غيِّ همت به »	(في طيه أسف في طيه نعم)
« حب السلامة يثني عزم صاحبه »	(إذا استوت عنده الأنوار والظلم)
« فأن جنحت إليه فأتخذ نفقاً »	(ليحدثن لمن ودعتهم ندم)
« رضى الدليل بخفض العيش بخفضه »	(وقد نظرت إليه والسيوف دم)
« إن العلى حدثتني وهي صادقة »	(إن المعارف في أهل النهى ذم)

وقد اختتم الصفي هذه القصيدة بأبيات تشير إلى هذا التضمين وهي :

« ويا خبيراً على الأمرار مطلعاً »	(فيك الخصام وأنت الخصم والحكم)
« قد رشحوك لأمر لو فطنت له »	(تصاغت فيه بيض الهند والهم)
« فاطن لتضمين لفظ فيك أحسبه »	(قد ضمن الدر إلا أنه كلم)

٣ - منزلته :

كان الصفي يتمتع بمكانة ممتازة في المجتمع ، ولا عجب فهو ابن أسرة من أكرم الأسر العربية تمتد أصولها إلى قبيلة طيه . وهو يمتاز بأكرم الصفات وأفضل الخلق ، وقد وهبه الله عقلاً كبيراً وعلماً غزيراً ومالاً وفيراً . وكان

(١) ديوان صفي الدين ص ٣٤

(٢) الأشرط التي بين هذين القوسين () للتني

(٣) الأشرط التي بين هذه الأقواس « » للظنرائي

آبؤه وأقاربه ذوي مراكزها ومكانة ممتازة في الحلة فقد كان خاله (صفي الدين ابن حمزة) صدر الحلة - كما مر بنا - لهذا كله كان يستطيع أن يدخل أي بلد من البلدان العربية معزاً مكرماً ، مقدراً محترماً . وقد اختار ماردين وطناً له ، للهدوء الذي كانت تتمتع به حين رحل من العراق ، فأكرمه السلاطين الأرتقيون وأعلوا قدره واشتاق له سلاطين البلاد الأخرى . وقدره الناس واحترمه العلماء وقربه الملوك .

وكان الصفي مقدراً عند هؤلاء السلاطين كأنه واحد منهم ، وكان يقضي معهم أكثر أوقاته وكانوا لا يرضون أن يفارقهم . . . ويحضر معهم مجالس الأُنس والطرب والخمر والشراب ، وكان لا يخيب له رجاء عندهم ، وعرف الناس ذلك فصاروا يرجونه لقضاء حاجاتهم . وكان حين يمدح هؤلاء السلاطين يطلب أن يقضوا بعض حاجات الناس ، وقد أنقل مرة على الملك الصالح بمدة حاجات فقضاها جميعاً ، فقال :

رعى الله ملكاً ما رميتي بربعه مراي النوى إلا بلغت سرايها
وكم حاجة حاولتها من جنابه وأخفت في قولي له وخطايا
فلم يلق الحاحي بحب وإعسا أجاد التغاضي إذ أسأت التقاضيا
ومما يدل على منزلته أنه كان يرد على هدايا الملوك بهدايا مثلها ، فقد أرسل إليه (الملك الأفضل) صاحب حماة تحفاً وهدايا ، فأرسل له الصفي قصيدة ومعها مملوك تركي وقماش من ماردين ، ومطلع هذه القصيدة :

سوى حسن وجهك لم يحلُّ لي وغيرك في القلب لم يحلِّ
ويقول فيها :

وكفرت عن زلة الانقطاع بأحسن من كان في منزلي
فأرسلته راجياً أنه يحض عن زلة المرسل

وإلى هذا كله كانت منزلته الأدبية لا تقل عن منزلته الاجتماعية بأي حال . لأن شاعريته لم تكن طادية ، فهو شاعر فحل ، ذو طبيعة مواتية سهلة ، وموهبة طبيعية فطرية . لا تبخل عليه شاعريته ولا تتعبه ، وتمنحه ما يريد حيث يريد دون تعب وإرهاق ودون جهد أو تكلف . وكثيراً ما ارتجّل الشعر فكان يتدفق من خاطره تدفق العين الثارة ، ويجري على لسانه جريان الماء السلسال . ومن طريف ما يروى في ذلك أنه رد على قصيدة ابن المعتز ارتجالاً في مجلس نقيب الأشراف بالعراق بقصيدة قوية طويلة ...

وظل يصف مجلس السلطان الملك الصالح في المساء ، حين تحضر الشموع لتضيء المجلس ، وصفاً جميلاً ، والتزم ذلك لمدة شهر يرتجّل كل يوم قصيدة رائعة منها هذه القصيدة :

أنجوم روض أم نجوم سماء كشفت أشعتها دجى الظلماء
أشرفن في حلل الظلام فهدت حسداً لمن كواكب الجوزاء
من كل هيفاء المعاطف قومت قسداً كقصد الصعدة السمراء

.....

وأسمعه (الملك المؤيد) وزناً طويلاً وقافية معينة وأخبره أن جماعة من الشعراء حاولوا أن ينظموا فيه فأخطأوا فارتجّل الصني هذه القصيدة على نفس الوزن :

إن قصر لفظي فأن طولك قد طال يا من فعل البر والجميل كم قال

.....

وللصني من الارتجال غير هذا كثير ، وخاصة في المقطوعات ، فالمقطوعات الهجائية كان يقولها بسرعة تدهش السامع ، فهو حاضر البديهة ، المسيطر على اللغة والنظم ، لا يكابد فيه عسراً ولا يلاقي عنتاً ، واللغة في يديه كالمجينة في يد المثال الماهر يصنعها كيف يشاء ، ويكيفها حسب ما يريد ، وكأن ألفاظ اللغة مرصوفة أمامه يختار ما يحتاج في أي وقت ، فهو حين ينظم الشعر لا تتمعه قافية أو بشكل عليه تعبير ، فشاعريته من النوع الفذ الفريد الذي لا

يتأتى لكل إنسان . وكان شعره من النوع الذي يعجب السامعين فيسري
على كل لسان ويفتشر في كل مكان . ولذلك ذاع صيته ، وتناقل الناس شعره .
وحفظوه ، وصار الملوك يخطبون وده ليخلدوهم في شعره . وها هو يصور
ذلك مخاطباً الملك المنصور :

لقد حسد الأقوام لفظي وفضله وقد غبطوا إحسانه ولسانها
ولولاك لم تمن الملوك بمنطقي ولا خطبوا مدحي لهم وخطاياها
ولولاك لم يُعرف مُسمّاي بينهم ولا أصبح اسمي في الممالك ساميا
ولاسيما لما رأوني راغباً عن الرfd لا أبغي من المال باقيا

فهو يبين لنا أن الملوك تعنى بشعره وتخطب وده ، وأن اسمه يدوي في سائر
الممالك ، وهو راغب عن هؤلاء الملوك لا بمدحهم ولا يفد اليهم . ويقول أيضاً :

وبك استعذب الملوك كلامي ورعوا حق حرمتي وعمودي

ولهذا السبب طلب منه الملك الناصر أن يجمع ديوان شعره فجمعه في بلاطه .
وكان صفي الدين شاعر عصره ، وكبير الشعراء في ذلك الزمان دون منازع ،
وقد اعترف بهذا معاصروه فقال الصفدي : « وهو شاعر عصرنا على الاطلاق »
وصرح بمثل هذا كل من كتب عنه أو ترجم له . وكان الشعراء والأدباء
والعلماء يحترمون منزلته ويهابون موهبته ويمجّبون بعلمه وأدبه ، وينظرون
إليه جميعاً بعين الاكبار والاحلال ، ويرون أنه هو الذي حافظ على روح
الشعر العربي بجميع مميزاته وخصائصه وصفاته . وأن شعره لا يقل في أي
حال من الأحوال عن شعر الفحول المتقدمين أمثال المتنبي وأبي تمام والبحري
وغيرهم . وربما كان هناك من يفضله على من سبقوه إذ قال فيه الشاعر (جمال
الدين بن نباته المصري) :

يا سائلي عن رتبة (الحلبي) في نظم القريض وراضياً بي أحكم
للشعر حليان : ذلك (راجح) ذهب الزمان به ، وهذا قيم^(١)

(١) ديوان ابن نباته ص ٤٧٨ .

بل يذهب إلى أبعد من هذا فيفضله حتى على البحثري :

حبذا من إمام لفظ وفعل نشر الذكر في البلاد دعاته
ناظم يشتكى (الوليد) قعوداً حين تتلو رواه أبيان^(١)

وقد قال فيه (الشيخ شمس الدين عبداللطيف) : « ما نظم الشعر مثله أحد من المتقدمين والمتأخرين » وهذا القول وإن كان فيه الكثير من المبالغة ، إلا إنه يصور لنا منزلة الصفي بين أدباء عصره وعند نقاد زمانه ، فقد كانوا يقدمونه على جميع الشعراء ، ويرفعونه إلى أعلى المراتب ، ويسمون بشعره إلى أرقى منزلة .

وقد عرف الصفي منزلته هذه فكان يدل بها في شعره ، وكان غالباً ما يختتم قصيدته مفتخراً بموهبته وشاعريته ، سواء أكانت القصيدة حماسة أو مدحاً أو رثاءً أو شكراً . . . أو غير ذلك ، يقول في خاتمة قصيدة مدح بها (الملك المنصور) :

فلئن رحلت فقد تركت بدائماً غصبت فصول الحكم من لقمان
وخريدة هي في الجمال فريدة فهي الغريبة وهي في الأوطان
معتادة نهب الحليل صداقها نغراً على الأوكفاء والأقران
لا عيب فيها، وهو شاهد حسنها، إلا تبرجها بكل مكان
وحين يرثي الملك الناصر يقول مفتخراً بشعره :

ولما نظمت الشعر فيك قلائداً تمت نجوم الليل لو أنها شعر
.....

أو يقول مبيناً أن رثاءه خالد ، يكسب الخلود حين يرثي به أحداً ؛ قال في رثاء القاضي (شهاب الدين محمد) كاتب السر بدمشق :

فسوف ترثيك مني كل قافية بها لذكرك بين الناس تخليد
وأسمع الناس أوصافاً عرفت بها حتى كأنك في الأحياء موجود

(١) ديوان ابن نباته من ٧٣ .

وقد يتعالى فيفضل شعر نفسه على شعر أكابر الشعراء ممن سبقوه . . . فما هو
يزري بشعر بشار :

كسوتك من قشيب الشعر برداً يهجن شعر (بشار بن برد)
ويقول إن قصيدته تفخر على قصائد المتنبّي :

على (أبي الطيب) الكوفي مفخرها إذ لم أصغ مسكها في مثل كافور
وقد يرجع إلى أبعد من ذلك فيرجع إلى الخطيئة وليد بن ربيعة ، فيفضل
شعره على شعرها وشعر سواها :

فاستمعها بكرأحماها ضياء الحسن مني من ظلعة التقليد

هجت شعر كل من نطق الضاد جميعاً لا (جرول) و (لييد)

أما أهل عصره فهم في اعتقاده لا يمكن أن يصلوا إلى مرتبته :

إذا رام أهل العصر نظماً لمثلها وجاءوا بلفظ دونها وتكلفوا

ظننت حبال السحر ما قد أتوا به وتلك عصا موسى لها تتلقف

وربما غالي في نغره بشعره فعدّه منزهاً عن العيب :

يسامرنّي في الفكر كل بديعة منزّهة الألفاظ عن قدح طائب

فهو مؤمن بالنقد ، وبأن الشعر الجيد هو الذي يقف ثابتاً راسخاً أمام النقد ،

فيعلو قدره وتسمو منزلته :

والشعر كالتبر يخنى حين تنظره عين الغي ويملو حين ينتقد

فليس كل انسان يعرف قيمته ويقدر جماله :

والشعر ثوب ليس يعرف قدره من بعد صاحبه سوى بزاز

وبالرغم من أن الصفي كان يقول الشعر على طبيعته :

صفت القريض ولم أقله تكلفاً لكنه طبع لديّ عزيز

إلا أنه كان - أحياناً - ينقح الشعر ويهذبه ، استمع إليه بين رأيه في ذلك :

ليس لغات العرب لفظ الفرس كأتني لضيقه في حبس

فأترك الشعر شديد اليبس وإنما أجيل فيه حلمي

فإن تم ما قلته بالأمس فلم أرد إلا زوال اللبس
وإنما نقحت شعر نفسي وليس نظم الشعر شاه المس
وهكذا كان شعر الصفي ، وهكذا كانت منزلته ، وهكذا كان يعرف منزلته
المظيمة ، ومكانته الرفيعة بين شعراء عصره وشعراء سائر العصور .

٤ - تأثيره في أخلاقه :

كل مبرز في ناحية من نواحي النشاط الانساني لا بد أن يشغل الناس ،
ويذيع صيته بينهم ، ولا بد أن يكون له معجبون ، ويكون هناك من يقلده
في هذا النشاط فيتعلمد عليه ويتأثر به . وصفي الدين الذي طبقت شهرته الآفاق
وذاع شعره في مختلف البلاد ، لا ريب في أنه أثر في كثير ، أو قليل ، من
الشعراء الذين جاءوا بعده .

ولو كان تأثير الصفي هو محافظته على روح الشعر العربي فقط لكني ، فإنه
وصل بين الشعراء المتقدمين وبين من جاء بعده من أجيال ، ولولاه لانقطعت
الصلة وبقيت هناك حلقات مفقودة وفصول ناقصة . فهو الذي حافظ للشعراء
على ميزات الشعر العربي القوي الرصين الجزل المتين ، السهل الرقيق ، بكل
أغراضه وكافة فنونه وجميع أنواعه . ولا بد أنه قد تعلمد على الصفي شعراء
كثيرون ممن كانوا فرسان النهضة الحديثة في الأدب العربي . والمدقق في
دواوين الكثير من هؤلاء الشعراء يجد آثار الصفي واضحة في شعرهم دون
منازع ، فهناك من ضمن أشعاره ، واقتبس معانيه ، ألا تجد معي أن
قول (أحمد شوقي) في رثائه لمحمد فريد :

كل حي على المنية غادي تتوالى الركاب والموت حادي
كرة الأرض كم رمت صولجاناً وطوت من ملاعب وجياد^(١)

مقتبس من قول الصفي في رثاء قاضي القضاة بمارد بن (شمس الدين عبدالله ابن المهذب) :

غير أن الأيام بالخلق تجري لبلوغ الآجال جري الجياد
كيف ترجو المقام والخلق سفر نحن ركب وحادث الدهر حادي
وهناك أيضاً من شطر أو خمس أبياته. فهذا الشاعر الحلي الملاعباس بن القاسم بن
ابراهيم الزبوري المتوفى سنة ٥١٣١٥ هـ ، خمس أبياته في الامام علي فقال :
صفي ذو الأصل مذ حدثت عمّا به الرحمان خصمك وعمّا
فقلت لمن به الانعام نمتا (أمير المؤمنين أراك إما)
(ذكرتك عند ذي حسب صفي لي)

.....

براك الله للمخلوق آيا تحبك كي يبين لها السجايا
فتمتاز الهداة من البغايا (وهأنا مخير عنك البرايا)
(فأنت محك أولاد الحلال)

وقد كان لخرعات الصفي الشعرية أثر في الشعراء الذين خلفوه أيضاً . وكان
له تلاميذ في فن (البديعة النبوية) إذ حذا حذوه كثير من أسلافه حتى زادوا
على ثلاثين شاعراً منهم : ابن حجة الحموي ، والموصلي ، والشماع والسيوطي
وغيرهم ممن ذكره ، فقد نظموا بديعيات علي غرار بديعته بمدحون بها
الرسول . وكان للصفي في هذا الفن تلاميذ من شعراء النصارى نظموا القصائد
البديعية في مدح المسيح ورسله ، أشهرهم : (الخوري نيقولا داس الصائغ) .
(والمطران جرمانوس فرحات) ... والمعجب أن هؤلاء الشعراء لم يبنوا الصفي
ولم يزيدوا على ما جاء به ، بل ظل نجم الصفي متلألئاً لماعاً يبهر نوره الناظرين
دون أنوارهم أجمعين .

وأثر الصفي كذلك بفن (الروضة) الشعرية في شعراء كثيرين جاءوا
بعده ، بالرغم من أن شاعرين قد سبقاه إلى هذا الفن هما : (أبو زيد

عبدالرحمن محمد الفاززي اليجفشي (الأندلسي المتوفى سنة (٨٦٣٧) صاحب
(القصائد العشرية) و (مجد الدين أبو عبدالرحمن الشافعي) البغدادي صاحب
(القصائد الوترية) . إلا أن قصائد الصفي ، الأرتقيات ، هي التي
استطاعت أن تؤثر في الشعراء ، فتجعلهم ينظمون هذا الفن معترفين بأنهم
يريدون أن يفعلوا ما فعله الصفي في أرتقياته ، ويصلوا إلى بعض ما وصل
إليه في هذه القصائد العظيمة . فهو أشهر من هذين الشاعرين اللذين سبقاه ،
وشعره أوسع انتشاراً وأذيع صيتاً ، وأكثر سرياناً من شعرهما . وتتلذذ
على الصفي في هذا الفن كثير من الشعراء منهم : (محمد الغلامي الموصلية) وله
روضة في مدح (أحمد الجليلي) الموصلية ، والشيخ (ابراهيم بجي العاملي)
وله روضة يمدح بها الشيخ علي الفارسي أمير جبل عامل . و (الشيخ صالح
التميمي البغدادي) وله روضة في مدح الشيخ محمد علي الحويزي ، و (الحاج
جواد بزقت السكرلائي) وله روضة في مدح الامام (علي بن أبي طالب) ،
و (الشيخ حسن مصبح) وله ثلاث روضات واحدة في الغزل والأخرى في
مدح الامام (علي بن أبي طالب) والثالثة في رثاء الامام (الحسين بن علي) .
وهؤلاء الشعراء لم يبلغوا أيضاً ما بلغه الصفي أرتقياته من حسن السبك وجمال
الأسلوب ورشاقة اللغة وعذوبة الألفاظ والبعد عن التكلف .

خاتمة

ولد صفي الدين الحلبي السنبلي الطائي في الحلة ، تلك المدينة التي أسسها المزيديون سنة (٣٩٥ هـ) وحملت مشعل الحضارة الاسلامية ردها من الزمن غير يسير ، وظلت ترقى سلم المجد حتى ولد الصفي سنة (٦٧٧ هـ) وكان العالم الاسلامي يومذاك يتخبط في ظلام دامس بعد أن خيم الركود على الحياة الاسلامية وعم القلق والاضطراب في جميع نواحي الحياة سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية وأدبية . وكانت الحلة لا تزال نهضتها العلمية مزدهرة لم تمسها يد المغول بسوء بالرغم من تدمير مرا كز العلم والحضارة والمدنية الاسلامية في العراق وخراسان .

وتربى الصفي في الحلة تربية ناعمة فيها كل ما في حياة أبناء الأشراف من عز وغنى ، فكان يتعلم الفروسية ويتدرب على الرمي بالسهم وصيد الحيوانات والطيور . وكان يمارس الألعاب المسلية (كالنرد والشطرنج) . وقد بدأ تعليمه وتثقيفه منذ نعومة أظفاره ، حفظ القرآن ودرس علوم الدين من فقه وأصول وتفسير وحديث ... وتلقى العلوم الأخرى من تاريخ وأخبار العرب وأيامهم وجغرافية وفلسفة ، وتعلم علوم العربية من نحو وصرف وعروض وبيان ، ومال إلى قرض الشعر فنظمه وجود فيه ولم يتعد المقدم الأول من عمره بعد .

وكان الصفي يعتز باسلامه ، ويفخر به ، ويذهب مذهب أهل بلده ويتعصب لعقائدهم الشيعية ، بحب آل علي ولا يرى غيرهم أحق بامامة المسلمين . إلا أنه ما كان يتعرض لغيرهم بسوء ، ولا يجيز بحبهم كره سواهم من الصحابة والتابعين ، شأنه في ذلك شأن معتدلي الشيعة .

وقد عاش الصفي عقدين من حياته في وطنه ، إلا أنه اضطر إلى مفارقتها بعد قتل خاله (صفي الدين بن محاسن) واشتراكه في معاركه للأخذ بثأره فالتجأ إلى ماردن وعاش في كنف الملوك الأرتقيين مدة غير قصيرة ، ومدحهم بقصائد طوال ووقف شعره عليهم وكان يحضر معهم مجالس اللهو والشراب فيصفها بشعر رقيق جميل ، ويخرج معهم للصيد فيبدع القصيد والأراجيز في وصف تلك الرحلات . واشتغل بالتجارة وجال البلاد وطاف الأقطار ، ورحل إلى كل مكان فزار الحجاز وأدى فريضة الحج ، وغادر الحجاز إلى مصر . وكان له في مصر أصدقاء كثيرون ، منهم (جمال الدين محمد بن نباتة المصري) الشاعر و (صلاح الدين الصفدي) الأديب المؤرخ و (القاضي علاء الدين بن الأثير) كاتب السر وهو الذي قدمه إلى الملك الناصر ، فأحتق به وأكرمه وطلب منه أن يجمع ديوان شعره فجمعه في بلاطه . وعاد من مصر إلى ماردن ثم إلى العراق . وظل يتنقل من بلد إلى بلد حتى وافته منيته سنة (٨٧٥٠) .

وقد خلف الصفي تراثاً أدبياً خالداً فيه آثار نثرية وآثار شعرية ، فأما آثاره الشعرية فهي : ديوانه ، ودرر النحور في مدائح الملك المنصور ، والسكافية البدئية .

فأما ديوانه فقد جمعه بنفسه في مصر وضمن فيه أكثر شعره ، وقسمه اثني عشر باباً ، تحتوي على ثلاثين فصلاً ، كل فصل في فن من فنون الشعر المختلفة . وقد طبع هذا الديوان عدة مرات . وهناك كثير من النسخ الخطية مبعثة في مصر والعراق وإيران وغير ذلك من البلاد .

وأما (درر النحور في مدائح المنصور) فهي القصائد الأرتقيات التي نظمها في الملك المنصور في ماردن حين لجأ إليه فأحسن وطأته وأجزل صلته . ويضم (تسعاً وعشرين قصيدة) مرتبة على حروف الهجاء كل قصيدة (تسعة وعشرون بيتاً) ، كل بيت منها يبدأ بنفس حرف الروي فيكون للقصيدة قافيتان ،

وشعرها جميل ليس فيه تعسف أو تكلف . وقد قال الصفي إنه أول من نظم هذه القصائد في هذا الفن ، غير أني وجدت شاعرين لها مثل ذلك كانا متقدمين على الصفي بزمن غير قصير ، أولهما العلامة الفقيه (أبو زيد عبد الرحمن الفازازي البجفشي الأندلسي) المتوفى سنة (٦٣٧ هـ) ، وله (القصائد العشرية) في النصح الدينية والحكم والزهد . وثانيهما (محمد الدين أبو عبد الله محمد البغدادي الشافعي) المشهور بالوترى المتوفى سنة (٦٦٢ هـ) وله (الوترية) في مدح الرسول وسماها (معدن الافاضات في مدح أشرف الكائنات) . ولعل الصفي أول من نظم مثل ذلك في مدح الملوك والسلاطين ، أو لعله لم يطلع على آثار من سبقه في هذا الفن .

وأما البديعية ، فهي القصيدة التي مدح بها النبي ونظمها على وزن وقافية بردة البوصيري وقد ضمنها أنواع البديع فجعل في كل بيت نوعاً أو نوعين منه ، وهي (١٤٥) بيتاً تشتمل على (١٥١) نوعاً من أنواع البديع . ويقول الصفي انه هو الذي اخترع هذا الفن وحذا حذوه كثير من الشعراء فيما بعد ، والواقع انه سبق الى هذا الفن ، ولكنه أول من نظم البديعية في مدح الرسول الكريم (ص) .

وقدم شعر الصفي في مراحل ثلاث : الأولى مرحلة الصبا ، أيام كان يعيش في الحلة شاباً مترفاً مدلاً ، وكان شعره في طور التكوين ، فكان يقلد الشعراء المتقدمين ويحذو حذوهم ويفيد من قصائدهم ، وكان شعره في هذا الطور سهلاً لا تكلف فيه ولا تعقيد ، يقتصر على بعض الأغراض . والمرحلة الثانية أيام كان يعيش في ماردين ، فكان شعره وقفاً على الأرتقيين ، إذ مدحهم بكثير من القصائد الجميلة ، وقد ظهر في شعره التعقيد والصناعة البديعية والمحسنات اللفظية ، وأول ما ظهر ذلك في قصائده الأرتقيات . وأما المرحلة الثالثة فهي التي كان يقول فيها الشعر في مختلف الأقطار ؛ في العراق وماردين ومصر والحجاز والشام ، منذ أن بدأ يرحل للتجارة حتى

وفاته . وقد ظهر التعقيد في شعره أثناء هذه الفترة بجلاء ووضوح ، وتزايد حبه للصناعة حتى أصبح لا هم له إلا ترصيع شعره بأنواع التجنيس والمطابقة والاستعارات والتشبيهات . ونظم القصائد المعجمة والمهملة والقصائد التي تقرأ طرداً وعكساً أو عمودياً وأفقياً ، حتى أنه اخترع (الجنس المجنح) . وقد زادت أغراضه في هذه الفترة أيضاً فزاد الزهد والتصوف والأدب والحكم والمجون ، حتى تكاملت موضوعات شعره . وقد جمع ديوانه في هذه المرحلة ، في بلاط الملك (الناصر محمد بن قلاوون) .

ويمتاز شعر الصفي في جميع مراحلها بكثرة الصناعات البدعية فيه ، وانتشار روح الحماسة ، فبالإضافة إلى القصائد السكثيرة والمقطوعات الجمة من شعر الحماسة نحس بالروح الحماسية في أكثر موضوعات شعره كالممدح والثناء والاخوانيات وحتى الغزل . ويمتاز كذلك بروح المبالغة فنجده يزيد في تهويل الصورة التي يريد أن يعرضها لنا . كما كان ذلك منتشراً في عصره . وكان هذا الشعر في أسلوب رقيق جميل متين رصين ، فلم يتأثر الصفي بضعف أساليب عصره وإنما تأثر بقوة أساليب أسلافه من فحول الشعراء . وأما ألفاظه فكافت عربية فصيحة موسيقية سهلة ليس فيها غريب . والصفي يهتم بمعانيه ، وهو مفتن بالفنوس باحثاً عن المعنى الجميل ، فيرسم الصورة الرائعة ويختار لها أليق إطار .

وطرق الصفي كل أبواب الشعر من حماسة ومدح وثناء واخوانيات وغزل وخمريات ووصف وطرديات وغير ذلك . ولم يقتصر الصفي على القصيد فحسب بل طرق الفنون الأخرى المستحدثة في الشعر العربي ، كالموشح الذي أجاد فيه إذ نجد له (١٢) موشحة جميلة سلك فيها ما سلكه الوشاحون القدماء ، ثم أنه اخترع فناً جديداً من الموشح سماه الموشح المضمن ، ويضمن فيه إحدى قصائد الشعراء المتقدمين كما وجد عنده الموشح المجنح . وهناك الفنون الشعرية العامة وهي (الزجل) و (الموالى) و (السكك) و (القوما) ،

وقد نظم الصفي منها نماذج لم تخرج عما أوجبه فيها مخترعوها من شروط ،
وقد ضاع أكثر هذه الأسماء فلم نعث إلا على نماذج قليلة ذكرها الصفي في
كتابه (العاقل الحالي) الذي درس فيه هذه الفنون .

وقد بدأ الصفي حياته الشعرية بتقليد غيره من الشعراء المتقدمين الذين كان
يعجب بهم وبمحفظ شعرهم . وتأثر بهم وبأن هذا الأثر في تضمينه شعرهم
واقتراسه معانيهم ونخميسه لأشعارهم ومعارضته لقصائدهم ... ولكن سرعان
ما استطاع الصفي أن يكون له شخصية خاصة في الشعر فأبدع القصائد الرائعة
والمعاني الجميلة ، واخترع الفنون الطريفة ، حتى أصبحت له منزلة عظيمة
بين شعراء عصره لا تدانيها منزلة ، واشتهر في الآفاق وطار صيته ، فأحبه
الناس ورجب الملوك في مدحه وتقريبه اليهم . فأصبح أكبر شعراء عصره
دون منازع . وكان له تلاميذ عديدون أثر فيهم فأقتبسوا معانيه وضموا
أبياته وخمسوا قصائده ، ونهجوا نهجه في مختلف فنون الشعر كالبدعيات
وغيرها .



وإذا كان من اللازم على المتقدمين ببحوث علمية أن يأتوا فيها بمجديد
من عندهم فإني أستطيع أن أقول إن هذا العمل المتواضع الذي أتقدم به ،
إن هو إلا ثمرة مجهودي الشخصي ، إذ لم يكتب أحد عن الصفي شيئاً ذا بال ،
وكل ما كتب تنف بميرة جداً لا تسمن ولا تغني من جوع . وقد استطعت
أن أكتب عنه هذا البحث مستمداً في تصوير حياته ومراحلها المختلفة ،
وثقافته المتنوعة وعقيدته ، على ديوانه الذي أمكنني بواسطته أن أكشف
عن كثير من النواحي المختلفة . وأما شعره فقد درستُه دراسة طويلة ،
وعشت معه زمناً غير قصير ، مع مختلف آثاره الشعرية حتى استطعت أن
أقدم هذا البحث الذي تناول شعره ومختلف فنونه وأغراضه وبين نواحيه
المختلفة المتعددة .

ويعلم الله أنني لم أقل هذا زهواً أو فخراً ، فليس في العلم زهو أو فخر ، وإنما قلته لاحقاق الحق ، فيجب أن تمتاز البحوث العلمية بالحق والصراحة . ويعلم الله أنني ما فكرت في يوم من الأيام أن أجعل هذا البحث غاية من الغايات أو هدفاً من الأهداف ، أو نهاية شوط كنت أجد لأبلغه ، وإنما كنت ولا أزال ، أفكر في أن هذا البحث إن هو إلا باب أسنطيع أن أُلج منه طالم البحث والدرس والمجد ، وأصل به عهداً يتصف بالعمل المستمر والجهد المضني ، لأستطيع أن أكشف عن بعض الكنوز الأدبية الكثيرة ، والمواهب الشعرية المغمورة في وطني . والله أسأل أن يلهمني الصواب وأن يهديني سواء السبيل .

مراجع البحث

أ - المخطوطة :

- ١ - أبيات شعرية - مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٩٦٦ .
- ٢ - أعيان العصر وأعوان النصر - صلاح الدين الصفدي .
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٩١ تاريخ
- ٣ - أنوار الربيع في أنواع البديع - علي خان -
نسخة مخطوطة في مكتبة دار المعلمين العالية برقم ٤٨٦ ع
- ٤ - البداية والنهاية - ابن كثير عماد الدين أبو الفداء ج ١٣
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١١١٠ تاريخ
- ٥ - تاريخ ماردين - عبدالسلام المارديني قاضي ماردين .
مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٨١٣ تاريخ
- ٦ - درر النحور في مدائح الملك المنصور - صفي الدين الحلبي
مخطوطتان بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٤٨ أدب ورقم ٣٢١ أدب
- ٧ - ديوان صفي الدين الحلبي - صفي الدين
أربع نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية وأرقامها : ١٣٩٩ و ٥٣٥ و ١٣٩٩ و ٥٠٩٥ أدب .
- ٨ - ديوان صفي الدين الحلبي - صفي الدين
نسخة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٢٢٤٧
- ٩ - العاقل الحالم والمرخص الغالي في الأزجال والموالي - صفي الدين
نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦٥ أدب

- ١٠ - الكافية البديعية - صفي الدين
مخطوطتان بدار الكتب المصرية برقم ١٢٨ بلاغة و٥٦٧ بلاغة
- ١١ - المنهل الصافي والمستوفي بعمد الوافي - أبو المحاسن بن تغري بردي
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٢١٢٦ تاريخ
- ١٢ - الوافي بالوفيات - صلاح الدين الصفدي
مخطوطة لدى الاستاذ سيد العقاد

ب - المطبوعه :

- ١ - أمل الآمل - محمد بن الحسن بن علي الحر العامل
طبعة محمد حسن السكر بلائي سنة ١٣٠٧ هـ - العراق
- ٢ - الأدب العربي وتاريخه - محمود مصطفى ج ٣ ط . الباني الجلي ١٩٣٧
- ٣ - البداية والنهاية لابن كثير - مطبعة السعادة - مصر
- ٤ - تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان . طبع مطبعة الهلال
- ٥ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم متز
ترجمة الدكتور عبدالمهدي أبي ريدة - طبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر ١٩٤٧ .
- ٦ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة - المنسوب إلى كمال
الدين بن الفوطي البغدادي، نشر وتحقيق الدكتور مصطفى جواد . بغداد
- ٧ - خزنة الأدب ونهاية الأرب - تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي .
المطبعة الخديوية بمصر سنة ١٢٩١ هـ
- ٨ - الحيوان - عمرو بن بحر الجاحظ . طبع السامي ٣٣٢٣ هـ
- ٩ - دائرة المعارف الاسلامية - العربية
- ١٠ - » » » - الانكليزية مواد : (ماردين) و(أرتق)
- ١١ - دار الطراز - لابن سناء الملك المصري . طبع دمشق ١٩٤٩

- ١٢ - دراسات في تاريخ الممالك البحرية - علي ابراهيم حسن . مطبعة
الاعتماد ١٩٤٤ .
- ١٣ - الدرر السكامة لاعلام المائة الثامنة . شهاب الدين بن حجر الحقلاني
طبعة دائرة المعارف الاسلامية بالهند
- ١٤ - الدولة الخوارزمية والمغول - حافظ أحمد حمدي . مصر ١٩٤٩
- ١٥ - ديوان ابن المعتز - المطبعة المحروسة ، مصر ١٨٩١
- ١٦ - ديوان ابن نباتة المصري - مطبعة النجف بمصر ١٩٠٥
- ١٧ - ديوان أبي تمام الطائي - طبع بيروت سنة ١٣٢٩ هـ
- ١٨ - ديوان أبي نواس - المطبعة العمومية ١٨٩٨
- ١٩ - ديوان صفي الدين الحلبي - طبعة دمشق ١٣٠٠ هـ
- ٢٠ - ديوان صفي الدين الحلبي - طبعة بيروت ١٨٩٣ م
- ٢١ - ديوان صفي الدين الحلبي . طبعة النجف - المكتبة العلمية ١٩٥٦
- ٢٢ - ديوان الطغرائي - مطبعة الجوائب قسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ
- ٢٣ - ديوان المتقي - شرح المكبري طبعة الحلبي بمصر ١٩٣٦ م
- ٢٤ - رحلة ابن بطوطة المطبعة الأزهرية
- ٢٥ - رحلة ابن جبر مطبعة ليدن - الطبعة الثانية
- ٢٦ - العاقل الحلبي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي - صفي الدين الحلبي
نشر لجنة الاستشراق في مجمع العلوم والآداب في ألمانيا (ولهم هونرباخ)
- ٢٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر - ابن خلدون طبعة بولاق ١٢٨٦ هـ
- ٢٨ - العمدة في صناعة الشعر ونقده - ابن رشيق القيرواني مصر ١٩٢٥ م
- ٢٩ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - الدكتور شوقي ضيف
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر ١٩٤٩ م
- ٣٠ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب - الشيخ عبدالحسين أحمد الأمين النجفي
طبع الحيدري - طهران .

- ٣١ - فوات الوفيات - ابن شاکر الکتبی طبعه بولاق سنة ١٢٩٩ هـ
- ٣٢ - القاموس المحيط - لمجد الدين الفيروز آبادي - طبعه السعادة ١٣٣٢ هـ
- ٣٣ - القصائد الأرتقيات - صفي الدين الحلبي - المطبعة الوهية ١٢٨٣ هـ
- ٣٤ - القصائد الأرتقيات » » » المطبعة الأزهرية للطوخي ١٢٩٩ هـ
- ٣٥ - القصائد العشریات في النصائح الدينية - أبو زيد عبدالرحمن الفاززي
اليجفشي الأندلسي - طبعه الحلبي ١٣٤٤ هـ
- ٣٦ - الكامل في التاريخ - ابن الأثير المطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ
- ٣٧ - لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور
- ٣٨ - المدائح النبوية في الأدب العربي - الدكتور زكي مبارك
مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٥ م
- ٣٩ - معجم البلدان - ياقوت الحموي طبعه ليبزج ١٨٦٧ م
- ٤٠ - معذب الاقاضات في مدح أشرف الكائنات - مجد الدين محمد بن أبي
بكر الوتري . طبعه بيروت ١٩١٠ م
- ٤١ - مقامات الهمذاني - طبعه بيروت ١٨٨٩ م
- ٤٢ - مقدمة ابن خلدون - طبعه بولاق ١٣٩٦ هـ
- ٤٣ - مقصورة ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد. الهند ١٣٤٤ هـ
- ٤٤ - الموشح في الأندلس والمشرق - الدكتور محمد مهدي البصير مطبعة
المعارف بغداد سنة ١٩٤٦ .
- ٤٥ - النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة - جمال الدين بن تفرج بري
طبعه دار الكتب المصرية .
- ٤٦ - وفيات الأعيان - ابن خلكان طبعه بولاق ١٢٩٩ هـ
- ٤٧ - يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر - أبو منصور عبدالملك الثعالبي
طبعه دمشق .

فهرس الأعلام

[أ]

ص	ص
اسماعيل شرف الدين بن أبي بكر المقرئ ١٢٩	أمنة بنت وهب ٩٩
٣٨ الأَصمعي	ابراهيم الخليل (ع) ١٩٨، ٨٥
٢٠٠، ١٨٤، ١٦٨ الأَعشى	ابراهيم بن العباس بن الأحنف ٦٥
٢٣٠، ١٤٨، ٦٠ الأفضل - أيوب	١٣٠ ابراهيم الكفعمي الحارثي
٢٨٠، ٢٣٧	الشيخ ابراهيم بن يحيى الطيبي ٢٨٧، ١٢١
٢٦٠، ٢٣٤، ٤٥٠ امرؤ القيس	أرتق بن اكسب ١٧
٨٧ الأَمين العباسي	١٠ ابن الأثير
٩٩ انوشروان	١٢١ أحمد الجليلي
١٩ ايبك	٢٨٥ أحمد شوقي
[ب]	الشيخ أحمد بن صالح البحراني ١٣٣
البحثري ٤، ٣٦، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٣	أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ١٣١
٢١٧ بديع الزمان الهمداني	٣٦ أحمد بن مروان
٤٧ البرزالي	٢١٨ الأحنف المكبري
١٢٨، ١٢٣ بروكلان	٢٠٠ الأخطل
٢٨٤ بشار بن برد	٢١٧ أردشير بن بابك
٦٥، ٣٥ ابن بطريق الأَسدي	٤٥ أسامة بن لؤي بن طيء
١٢ ابن بطوطة	اسماعيل بن الأفضل - المؤيد ٦٠،
	٢٨١، ٢٣٩، ١٨٤، ١٧٩، ٧٦

ص	ص
١٠٧	٢٣٣
جمال الدين السيوطي ١٣٠ ، ٢٨٦	أبو بكر تقي الدين المغربي
٤٧	٢٤٣
جمال الدين بن تغري بردي	أبو بكر بن قزمان
٢٥١	٨٨
جمال الدين بن الجوزي	بلقيس
جمال الدين أبو منصور - العلامة	٢٩٠ ، ١٦٩ ، ١٣٣
الحلي ٣٦ ، ١٠١	البوصيري
١٩٣ ، ٩٠ ، ٦٤	٢٩
جميل بثينة	بيسري بن عبدالله الصالحى
٢٨ ، ١٦	٢٢
جنـكيز خان	ابن البيضاوي
٢٨٧ ، ١٢٢	٢١٨
جواد بزقت	البهقي
الجويني	[ت]
٣٢	٢٦٨
[ح]	تاج الدين الآوي
٢٧٤ ، ٧٣ ، ٤٦	٣٦
حاتم الطائي	تاج الدين بن معيه الديباجي
١٨٠	١٨٣ ، ٥٠
الحارث بن عوف	تاج الدين بن وشاح الحلي
٨٢	٢٠
حبيب - زين الدين	التاج الكفني
ابن حجر العسقلاني ٤٧ ، ٩٩ ، ١٠٠	٣٥
ابن حجة الحموي ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١	تقي الدين بن داود
٢٨٦ ، ١٣٣	أبو تمام الطائي
٣٦	٦٥ ، ٥٠ ، ٤٦
حمام الدين تيمورطاش	١٣٥ ، ١٦١ ، ٢٥٨ ، ٢٦١
٢٠٠ ، ١٦٨	٢٨٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤
١٢٢	[ث]
الشيخ حسن مصباح	١٨٧
١٨٨	الثعالي
١٠٣	[ج]
الحسن بن علي (ع)	٢١٨
	الجاحظ
	١٢
	ابن جبير
	جرمانوس فرحات - المطران ١٢٩ ، ٢٨٦

ص		ص	
١٨٤	دريد بن الصمة	٣٥	الحسن بن معالي البلاقلائي
٢٧٧	ابن دريد	١٠٢، ٩١ (ع)	الحسين بن علي (ع)
٦٨، ٦٤	دعبل الخزامي	١٨٣، ١٦٩، ١٢٢، ١٠٨، ١٠٣	
٢٢٠، ٢١٨	أبو دلف الخزرجي	٢٨٧	
	[ر]		حسين بن مير رشيد الرضوي
٢٨٢، ١٠٢، ٩٥	راجح الحلبي	١٣٢	الهندي
٦٥	ربيعة الرقي	٢٨٤	الخطيئة
١٠٢، ٩٨، ٩٧، ٦٣، ٣٩	الرسول	٢٠	ابن الحماس
١١٦، ١١٥، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣		١٨٧	أبو حيان التوحيدي
١٤٣، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٥، ١٢٤، ١١٨		٢٨٠	حيدر
٢٦٩، ١٧٥، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٨		٩١	الحيص بيص
٢٩٠، ٢٨٦، ٢٧٦، ٢٧١، ٢٧٠			[خ]
١٢٤	ابن رشيق القيرواني	٢٣٥	خالد القناس
٢٧٢، ١٦٩	الشريف الرضي	٢١٨	خالد بن يزيد
٣٥	رضي الدين بن طاووس	١٠١، ١٩	خر بنده - خدا بنده
	رکن الدين عبدالمعظم بن أبي	٦٩	الخصيب
١٢٤	الأصبغ	٢٠٧	الخليل بن أحمد الفراهيدي
	[ز]	٩٠، ٨٨	الخنساء
٨٨	الزباه		[د]
٨٧	زبيده	٢١٧	دارا
١٢٥	زكي مبارك		داود بن الحاج قاضي الخراساني -
٢٥٨، ١٧٩، ٩٠، ٥٠	زهير بن أبي سلمى	١٣٢	ملا باشي
٤٦	زيد الحنبل	٧٣، ٤٥، ٤٦	دييس بن صدقة المزديدي

ص	
٢٨٦، ٩٦	شمس الدين عبدالله بن المهذب
٢٥١	شمس الدين بن الواعظ
٥	شوقي ضيف
٢٤٧	شهاب الدين أحمد
٢٨٣	شهاب الدين محمد
١٨٧، ١٨٣	شهاب الدين محمود
	[ص]
٢١٨	الصاحب بن عباد
١٨، ١٥	الصالح شمس الدين صالح
٦٢، ٦١، ٥٩، ٥٦، ٥٤، ٤٢، ٣٦	
٩١، ٨١، ٧٦، ٦٨، ٦٦، ٦٤، ٦٣	
١٦٨، ١٥٢، ١٤٧، ١٣٩، ١١٣، ٩٦	
١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٩، ١٧٨	
٢٨٠، ٢٧٥، ٢٣١، ٢٢٩، ٢٠٠	
٢٨١	
	صالح بن درويش التميمي البغدادي
٢٨٧، ١٢١	
٩٠، ٨٨	صخر
١٣٦، ٥١، ١٣	صفي الدين بن حمزة
٢٨٩، ٢٨٠، ١٨٧، ١٨٦	
٦٩، ٦٥، ٤٧	صلاح الدين الصفدي
٢٨٩، ٢٨٢، ٩٩، ٨٥، ٨٢، ٧٢	

ص	
٢٦٠، ٢٣٩، ١٨٤، ٦٠	ابن زيدون
٢٦٠	ابن زبلاق المصري
	[س]
٢١٧	ساسان
٩٩	سطيح
١٨٩	سمد ابن أبي وقاص
١٢٣	السكاكي
٢٧، ١٩	سلار المصري
٢٤٠، ٢٣٦، ٩٢، ٩٠	السمول
٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٤١	
٢٢٦	ابن سناء الملك المصري
٤٧	سنبس
٦٥	سوار بن شراعة - الناشي الأصفر
٢٤٣	سيبويه
١٨٠، ١٦٧	سيف الدولة الحمداني
٢٧٨، ٢٦٠	
٧٣، ١١	سيف الدولة صدقة المزيدي
١٨٩	سيف الدين أبو بكر السلامي الحلبي
	[ش]
٤٧	ابن شاكر السكتي
١٢٤	شرف الدين التيفاشي
١٢٩	شعبان بن محمد القرشي
٢٨٣	شمس الدين عبداللطيف

ص	
	الشيخ عبدالقادر الحسيني
١٣٢	الأزهري الطربلسي
١٣١	عبدالقادر بن محمد المكي
١٣٤	عبداللطيف محمد الخطاط
٢٧٨	عبدالله بن الزبير
٢٧٠ ، ١٠٥	عبدالله بن عباس
٢٢٥	عبدالله بن محمد المرواني
١٢٧ ، ١٢٣ ، ١٠٣	عبدالله بن المعتمر
٢٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٠	
٢٨١ ، ٢٧٢	
	الشيخ عبدالله بن يوسف الحلبي
١٣٢	
١٢٨	عبدالوهاب بن أحمد الجبيري
	عبدالمهدي - جمال الدين - بن
١٢٩	ابراهيم الحسيني الزبيدي
٦٤	عبيدالله بن قيس الرقيات
٢٧٥ ، ٥٢	عبيدالله بن محمد العلوي
١٠٧	عثمان بن عفان
١٩٣ ، ٩٠	عروة العذري
١٢٣	المسكري - أبو هلال
٢٨٩ ، ٦٥ ، ٢٦ ، ١٩	علاء الدين بن الأمير
٢٨	علاء الدين خوارزمشاه
٣٢	علاء الدين عطا ملك

ص	
	[ط]
١٩٢	الطرماح
٢٧٨ ، ٩٨	الطغراني
	[ظ]
	الشيخ ظاهر بن صالح بن أحمد
١٣٢	الجزائري
	[ع]
١٣٠	طائشة بنت يوسف الباعونية
٨٨	عاد بن شداد
٢٢٥	عبادة بن القزاز
٢٨٦	عباس الزبوري
٤١	عبد الحميد الكاتب بن الأشج
٢٧٨	عبدالرحمن بن الأشعث
١٣٠	عبد الرحمن بن أحمد الحميدي
	عبدالرحمن بن محمد زين الدين
١٣٠	الشافعي
	عبدالرحمن بن محمد الفازازي
٢٩٠ ، ٢٨٧ ، ١٢٠	البيجفشي
١٠٢	عبدالرحمن الكناني
١٠٢	عبدالرحمن بن ملجم
١٢٢	عبدعلي الحوزي
	الشيخ عبدالغني بن اسماعيل
١٣١	الحنفي النابلسي

ص	
٢٧٨	صمرو بن ربيعة بن نصر
٣٣	العمرى
١٨٨	ابن العميد
١٤٣، ٨٥	عيسى بن صموم
١٢٩	عيسى بن حجاج السعدي
	[غ]
٥١، ٢٧، ١٨	غازان
	غيث الدين عبد الكريم
١٨٦، ١٠٦	النقيب
٢٣٢	غيلان الغول المصري
	[ف]
١٦٩	ابن الفارض
١٠٣	فاطمة
١٦٩، ٩١	الفرزدق
٨٥	فرعون
٢٥، ٢٢، ١٠	ابن الفوطي
٧١، ٧٠	الفيروز آبادي
	[ق]
	الشيخ قاسم بن البكره جي
١٣١	الخلبي
٣٥	أبو القاسم المحقق
٤١	القاضي الفاضل
٢٠	قتادة

ص	
١٦٥	علي بن أحمد الخراساني
١٩	علي بن بهادر
١٦٩، ٩١	علي بن الحسين (ع)
	علي بن الحسين عز الدين
٢٨٦، ١٢٩	الموصلى
١٣١، ١٢٤	علي خان الحسيني
٨٩، ٤٥، ٩	علي بن أبي طالب (ع)
١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤	
١٠٥، ١٢٢، ١٣٣، ١٧٦، ١٩٨	
٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٧٠، ٢٦٩	
	الشيخ علي بن عثمان أمين الدين
١٢٥، ١٢٤	الأربلي
١٠١	علي بن مزيد الأسدي
٢٦١، ٦٦	علي بن منصور الحاجب
٢٧٧	عماد الدين علي
١٩	عماد الدين القزويني
	عماد الدين ناصر بن محمد
١٦٤، ١٠٨	الدلقندي
٢٧٠، ١٠٧، ١٥	عمر بن الخطاب
١٩٣	عمر بن أبي ربيعة
٢٣٩	عمر بن العفت
٢٤٣	عمر بن غرلة
١٥٤	عمر بن المنصور

ص	[م]	ص	
١٤	ماردين بن ملك الفرس	٤٥	قحطان
١٧	المأمون بن الرشيد	١٢٣	قدامة بن جعفر
٩٠	المبرد	٨٨	قصير
٦٩ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٥٠	المتني	٢٦٠ ، ٢٤٠ ، ٩٢	قطري بن الفجاءة
١٦٥ ، ١٦١ ، ١٥٧ ، ١٥٣ ، ١٣٥		٢٧ ، ١٩	قطز
١٨٢ ، ١٨٠ ، ١٧٨ ، ١٦٧ ، ١٦٦		٢٦٣	قلاوون
٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨		٣٣	القلقشندي
٢٨٢ ، ٢٧٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣		١٩٣ ، ٩٠	قيس بن ذريح
٢٨٤		٩٨ ، ٩٥ ، ٨٨	قيصر
٢٧	محمد الدين بن الأثير	[ك]	
	محمد الدين أبو عبدالله البغدادي	١٨٢ ، ١٦٥ ، ٦٩	كافور الأخشيدي
٢٩٠ ، ٢٨٧ ، ١٢١	الوترى	١٩	كتبغا
١٨٣	محمد الدين أبو الفوارس النقيب	١٩٣ ، ٩٠ ، ٦٤	كثير عزة
١٩	محمد الملك	٩٨ ، ٩٥ ، ٨٨	كمرى
١٢٦ ، ١٢٥	محمد بن أحمد بن جابر الاندلسي	١٧٧ ، ١٦٨	كعب بن زهير
١٣٣	محمد الجهني القاضى الناصري	١٨٤ ، ١٦٩	الكفيت بن زيد
	الشيخ محمد بن حمزة التستري	٥٥	كوهر خان
١٣٢	الحلي	٢٦	كيخاتو
٢٦٥	محمد بن حميد الطوسي	[ل]	
	محمد بن الشيخ خليل المقرئ	١٩	لاجين
١٣٠	الحلي	٢٨٤	لبيد
٢٧٤ ، ٤٦	محمد السفيس	٢٢٦	لسان الدين بن الخطيب

ص	ص
٢٤٣	محمد بن شرشير - الناشي الأكبر ٦٥
مدرك بن علي الشيباني ١٩٨ ، ٢٣٩ ،	محمد بن الحاج صالح ١٨٥
٢٦٠	الشيخ محمد صالح بن ميرزا فضل
٢٤٣	المازندراني الحارثي ١٣٢
٨٧	محمد بن عبد ربه ٢٢٥
٥٥	محمد بن عبد الرحمن الحموي ١٣٠
٨٧	محمد بن عبد القادر حكيم زاده ١٣٠
٢٧١	محمد بن عبدالله (ص) ٩٦ ، ١١٢ ،
١٢٩	١٨١ ، ١٢٦
١٢٦ ، ١٠٧ ، ١٦٠	الشيخ محمد بن عبدالله الضمير
٥	الأزهري ١٣٢
المطلب بن عبدالله الخزاعي ٦٨ ، ٦٩	محمد عبد الوهاب - الموسيقى ١٥٥
معاوية بن أبي سفيان ٤٥ ، ١٧٧ ، ٢٧٠	محمد شمس الدين بن علي الهواري ١٢٩
١٤٨	محمد علي الحويزي ٢٨٧
٢٢٥	محمد بن علي الخميمي ٦٥
٨٧	محمد الغلامي ٢٨٧ ، ١٢١
١٠١	محمد فريد ٢٨٥
٢٢٥	محمد كامل حسن ٥
٤١	محمد بن نبانة المصري ٤ ، ٦٥ ، ١٢٣ ،
١٧	٢٨٩ ، ٢٨٢ ، ١٩٠ ، ١٦٨
٢٧٢	محمود مصطفى ٢٦٥
٢٠٠	محي الدين بن زبلاق ٢٦٠ ، ٢٤٠

ص	
٢٧٧	ناصر الدين محمد
١٠٦ ، ١٠٢ ، ١٠٠ ، ٤٦ (ص)	النبي (ص)
١٤٣ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٢٤	
١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٧	
٢٩٠ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٠٧	
٥٥	نجم الدين ايلغازي
٢٦	نجم الدين حيدر
١٩	نجم الدين كاتب الجريد
١٩	نجم الدين يحيى
٣٢ ، ٢١	نصير الدين الطوسي
٢٠٦	النظام
٨٨	النعمان بن المنذر
٢٥٣	ابن نقطة
٣٥	ابن تما الربمي
٨٥	نمرود
١٣٥ ، ٦٩ ، ٦٤ ، ٥٠	أبو نواس
٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٦	
٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥	
٢٧٦ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٣١ ، ٢٢٢	
٣١	نور لدين زنكي
٣٣	النوري
١٢٩ ، ٢٨٦	نيقولادس الصائغ - الحوري

ص	
١٥ ، ١٨ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٥	المنصور نجم الدين غازي بن ارتق
٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٦	
٩٦ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠	
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤	
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١	
١٨٢ ، ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦	
٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢	
٢٨٩ ، ٢٨٣	
٢٨٤ ، ٨٥ (ع)	موسى بن عمران (ع)
٦٥	ابن المولى
١٨٩ ، ١٤١	مهذب الدين النحوي الحلبي
١٦٩	مهيبار الديلمي
١٨٨	الميكالي
[ز]	
٩١ ، ٥٠	النايفة الديباني
٣٧ ، ٣٤	الناصر العباسي
٦٥ ، ٢٨ ، ١٨	الناصر بن فلاوون
٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٩٦ ، ١١١	
١١٣ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٨	
١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٦١	
٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦	
٢٩١	

ص	[ي]	ص	[و]
١٤ ، ١١	ياقوت الرومي	١٣٢	الواردي المقرئ
١٧	ياقوتي الأرنؤقي	١٢٩	وجيه الدين البمني
٢٧٨	يزبد بن المهلب	٩٥	ولهلم هونرباخ
٨٥	يعقوب (ع)		[ه]
١٢٩	يوسف الفاخوري - الخوري	١٨٠	هرم بن سنان
٨٦ ، ٨٥	يونس بن يعقوب (ع)	٣٥ ، ٢١ ، ١٥ ، ١٣	هولاكو
٨٥	يونس (ع)		



الفهرس

<u>صفحة</u>	
٣	الاهداء
٥	تصدير
٧	المقدمة
١١ - ٤٢	تمهيد
١١	١ - البيئة الطبيعية
١٥	٢ - الحياة السياسية
١٨	٣ - الحياة الاجتماعية
٢٤	٤ - الحياة الاقتصادية
٣٠	٥ - الحياة العلمية
٣٦	٦ - الحياة الأدبية
٤٣ - ١٠٨	الباب الأول
	سيرته من شعره
	الفصل الأول - ميانه
٤٥	١ - نسبه ومولده ونشأته
٥١	٢ - في الامصار الاسلامية
٧٠	٣ - صفاته وأخلاقه وطباعه
٨٠	٤ - وفاته

الفصل الثاني - ثقافته وعقيدته

٨٣	١ - ثقافته
٩٥	٢ - عقيدته الإسلامية
٩٩	٣ - تشييمه

الباب الثاني

٢٨٨ - ١٠٩	شعره
-----------	------

الفصل الأول - آثاره الشعرية

١١١	١ - الديوان
١١٩	٢ - درر النحور في مدائح الملك المنصور
١٢٣	٣ - البديعية

الفصل الثاني - مراحل شعره

١٣٥	١ - ابتداء صنعة الشعر
١٣٩	٢ - ظهور التعقيد
١٤٣	٣ - اشتداد التعقيد
١٥١	٤ - صفات عامة

الفصل الثالث - موضوعات شعره

١٦١	١ - الحماسة
١٦٧	٢ - المدح

صفحة	
١٦٨	أ - المدائح النبوية
١٧٨	ب - مدح السلاطين
١٨٣	٣ - الرثاء
١٨٧	٤ - الاخوانيات
١٩٢	٥ - الغزل
١٩٩	٦ - الحمريات
٢٠٦	٧ - الطرديات
٢١٢	٨ - الوصف
١١٧	٩ - القصيدة الساسانية
٢٢٠	١٠ - الأغراض الأخرى

الفصل الرابع - الفنون المستعمرة

٢٢٥	١ - الموشحات
٢٣٣	٢ - المسمطات
٢٤١	٣ - الزجل
٢٤٧	٤ - المواليا
٢٥٠	٥ - الكان وكان
٢٥٣	٦ - القوما

الفصل الخامس - منزلة في الشعر العربي

٢٥٧	١ - تقليده
٢٧٣	٢ - ابداعه

صفحة

٢٧٩

٣ - منزلته

٢٨٥

٤ - تأثيره في أخلاقه

٢٨٩

الخاتمة

٢٩٤

مراجع البحث

٢٩٤

أ - المخطوطة

٢٩٥

ب - المطبوعة

٢٩٨

فهرس الأعلام

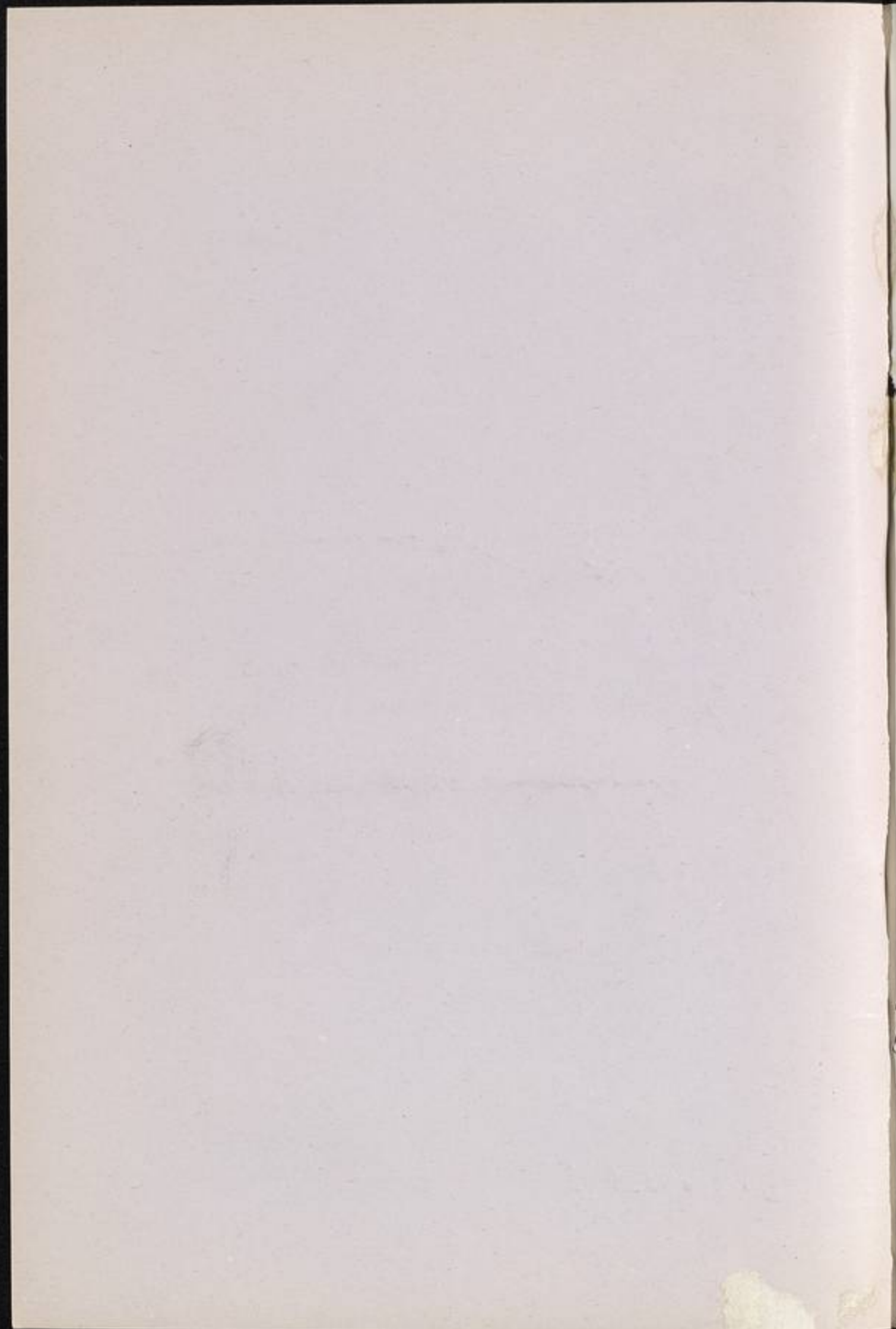
٣٠٨

الفهرس



اعتذار

بالرغم من العناية الفائقة لتجنب وقوع الأخطاء فقد
وقعت بعض المهملات البسيطة مما لا يخفى على القاري الفطن،
فترجو المذرة .

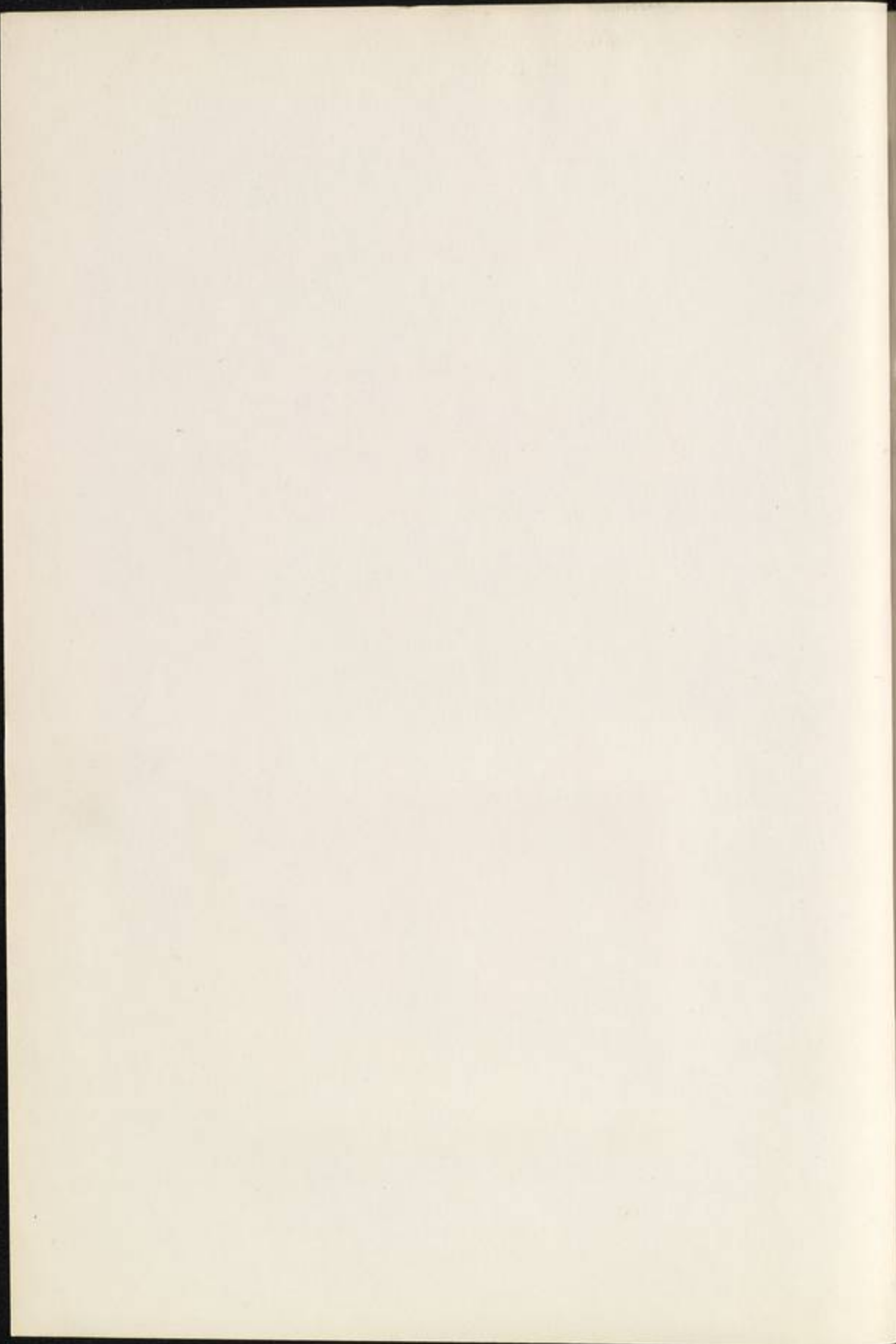


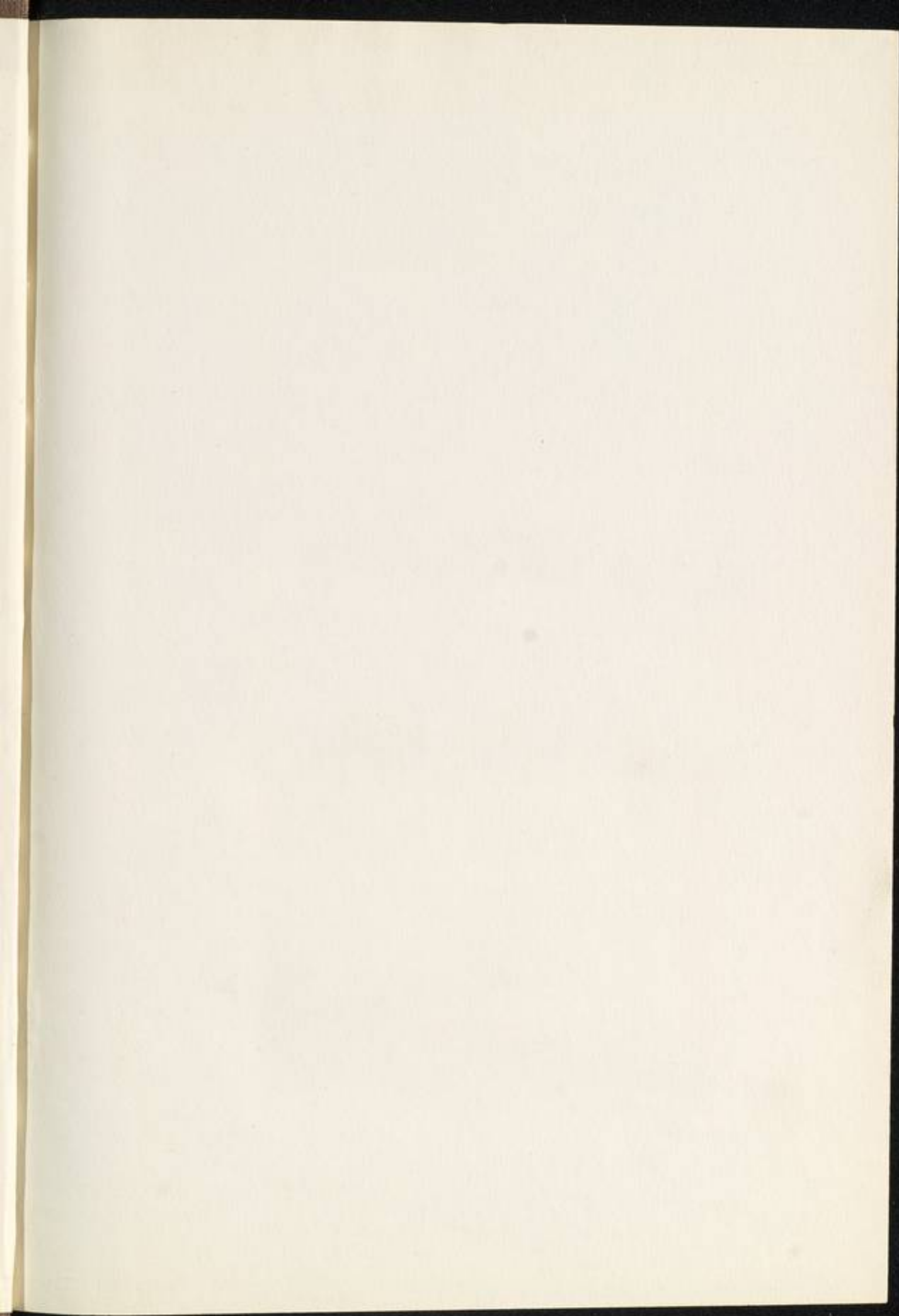
تحت الطبع

للمؤلف

حيدر الحلي

ثمان نسخة ٣٥٠ فلس





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

0114607662

893.7H5b8
DA

OCT 25 1962

BOUND

FEB 22 1962

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58873376

893.7H558 DA

Shir Safi al-Din al-